علام العرب

٤١

الناصر صلاح الدين

تأليف

دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

ؤسسة المصرية العامة
للتأليف والأنباء والنشر
ر المصرية للتأليف والترجمة

أعلام العرب

الكتاب القادم

عبد الله فكرى

بقلم

محمد عبد الغنى حسن

يصدر فى ٧ يونيو ١٩٦٥

الدار القومية للطباعة والنشر

يطـ

مكتبـ

٣ شارع كامـ

الثمن ٥ قروش

أعلام العرب
٤١

الناصر صلاح الدين

يوسف بن أيوب

تأليف
دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والأنباء والنشر
الدار المصرية للتأليف والترجمة

مقدمة

التاريخ ملىء بسير الأبطال والأعـلام ، فلكل دولة أبطالها ولكل أمة أعلامها الذين تعتز بهم وتفخر بانتسابهم اليها وتحرص على ترديد سيرهم والتغنى بأخلاقهم وأعمالهم ، لأن أبناء الأمة يجدون فى ذلك كله نوعا من الاعتزاز بالماضى والفخر بسير الآباء والأجداد ، فضلا عن الأمل فى المستقبل لأن الأمـة التى تنجب بطلا قادرة على أن تنجب أبطالا مهما تطل بها الأيام وتتقلب بها الأحداث .

على أن للبطولة درجات وأنواع ؛ فهناك فى التاريخ بطولة محلية اقليمية : على مستوى القرية أو المدينة أو الاقليم ؛ وهناك بطولة وطنية على مستوى الوطن أو القطر ، وهناك بطولة عالمية على مستوى الوطن الكبير للانسان . والبطل فى النوع الأخير لا يخلد اسمه فى تاريخ وطنه الصغير أو فى تاريخ المسرح الذى عاش عليه وعمل بين جوانبه ، بل يخلد اسمه فى تاريخ البشرية ؛ فينال اعجاب الأعداء والأصدقاء جميعا ، ويردد اسـمه أناس لا تربطهم به صلة من الصلات الا صلة الانتماء الى الوطن البشرى الكبير .

واذا كانت الأمة العربية تفخر فى تاريخها المجيد بعديد الأعلام الذين خلدوا أسماءهم فى تاريخ المجتمع البشرى : من مصلحين وعلماء ومجاهدين وغيرهم ؛ فان اسم صلاح الدين يحتل مكانة مرموقة بين أعلام العرب ، بوصفه زعيما آمن برسالته ، وثبت على الجهاد لتحقيق هذه الرسالة ، وسلك فى سبيل ذلك طريقا مستقيما يتصف بالخلق القويم والاستقامة الشريفة ، حتى حظى باعجاب معاصريه جميعا فى مشارق الأرض ومغاربها ، وشهد له بذلك كله أعداؤه وخصومه مثلما شهد به أصدقاؤه وأنصاره . وحسب صلاح الدين أن أهل فرنسا وانجلترا فى العصور الوسطى عرفوا ضريبة جديدة فرضها « فيليب أوغسطس » ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا — وأطلق عليها فى القرن الثانى عشر اسم « ضريبة صلاح الدين » ؛ بمعنى جمع الأموال من الغرب لمحاربة صلاح الدين فى الشرق .

والحق أن المكانة الكبيرة التى حققها صلاح الدين لنفسه فى التاريخ انما جاءت نتيجة لموقفه الحازم من الصليبيين ، ولايمانه المطلق بالجهاد ، ولادراكه العميق لخطورة المراكز الصليبية بالشام على كيان العروبة ومستقبلها . حقيقة أنه سبق صلاح الدين من أعلام العروبة والاسلام من تزعموا حركة الجهاد فى زمنهم ضد الصليبيين ، وحقيقة أنه أعقب صلاح الدين من أبطال العروبة والاسلام من واصلوا حركة الجهاد ضد الصليبيين والتتار ، ولكن أحدا من أولئك الأعلام والأبطال لم يظهر

ما أظهره صلاح الدين من عناد ومثابرة وادراك لحقيقة الخطر الخارجى مثلما أظهر صلاح الدين .

ثم ان صلاح الدين تحدى الصليبيين وهم فى أوج مجدهم ، بعد أن بلغوا من القوة واتساع النفوذ فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر درجة هددت أهل العراق والشام ومصر بل أهل الحجاز وسكان الحرمين . فصلاح الدين عندما أعلنها حربا دائبة على الصليبيين كان يعلم تماما أنه سينازل خصما قويا مكن لنفسه فى البلاد ، ومن خلفه الغرب الأوربى بأجمعه يمده بالعدد والعدد .. واذا كان صلاح الدين قد بلغ درجة كبيرة من القوة — بوصفه حاكما على مصر والشام — فانه بنزوله الى المعركة تحدى أكابر ملوك الغرب فى انجلترا وفرنسا وألمانيا فضلا عن البابوية ذات النفوذ الروحى الواسع فى غرب أوربا فى العصور الوسطى . وبمعنى آخر فان الفارق واضح بين صلاح الدين من ناحية وغيره من زعماء الجهاد السابقين واللاحقين من ناحيـــة أخرى ؛ لأن أسلاف صلاح الدين من زعماء حركة الجهاد نازلوا جموعا من الصليبيين ما زالت فى دور النضج والنمو والسعى لتفهم أوضاع البيئة الجديدة التى استقرت فيها بالشرق ؛ وخلفاء صلاح الدين من زعماء حركة الجهاد نازلوا جمـاعات صليبية هزتها حروب صلاح الدين وضرباته القوية ، وجعلتها تتحول من دور الهجوم الى دور الدفاع عما تبقى لها من ممتلكات متناثرة تعرضت للانحلال والذبول . أما صلاح الدين نفسه فقد تحدى

امارات صليبية ومملكة قوية للصليبيين فى بيت المقدس ، بلغت جميعها على أيامه عنفوان قوتها وشبابها واكتملت لها أسباب الحياة والتنظيم السياسى والحربى . فاذا أضفنا الى ذلك تمسك صلاح الدين بمبدأ الوحدة ، أدركنا فى نهاية الأمر السر فى عظمة هذا الرجل فى التاريخ . ونحن نعترف من باب الأمانة التاريخية أن فكرة الوحدة فى حد ذاتها لم تكن فى عصر الحروب الصليبية من ابتكار صلاح الدين وانما ترجع أصول هذه الفكرة من الناحية النظرية الى عماد الدين زنكى ومن الناحية العملية الى نور الدين محمود . ولكن دور صلاح الدين فى قضية الوحدة لا ينحصر فى أنه استفاد من سياسة نور الدين محمود وجهوده — كما يظن البعض — وانما ترجع أهمية هذا الدور وعظمته الى ايمان صلاح الدين بمبدأ الوحدة ايمانا لا يتزعزع وحرصه على أن يجعل الوطن العربى من الفرات الى النيل قوة واحدة ويدا واحدة شعارها الجهاد وهدفها تطهير أرض العروبة من رجس الدخلاء . وربما تسرع بعض الكتاب المعاصرين وغير المعاصرين ورأوا فى محاولات صلاح الدين لجمع شمل القوى الاسلامية الصغيرة المتناثرة فى شمال الشام والعراق ، نوعا من الطمع غير المشروع واعتداء صارخا عى أبناء البيت الزنكى وهم سادته وأرباب نعمته ... ولكننا اذا وقفنا أمام الحقائق لنتدبرها تدبر المؤرخ المنصف وجدنا أن صلاح الدين هو آخر من يمكن اتهامه بالطمع فيما للغير . وكيف يوصف صلاح الدين بالطمع وهو الرجل الذى أكد معاصروه أنه مات ولم يوجد فى

خزانته من الفضة سوى سبعة وأربعين درهما ودينارا واحدا من الذهب ؟ لو كان صلاح الدين من ذلك النوع من الرجال الذين يشرهون فى الحكم لاشباع رغبـة فى التسلط والسيطرة لقنع بحكم مصر بعد أن أصبح المتصرف الأوحد فى شئونها عقب وفاة آخر خلفائها الفاطميين ثم بعد وفاة سيده نور الدين محمود . نعم كان من الممكن أن يفرح صلاح الدين بملك مصر وهو الرجل الذى كان بالأمس القريب تابعا لا متبوعا والذى لم يكن يحلم فى يوم من الأيام بملك بلد مثل مصر له من اتساع الرقعة وأسباب القوة ووفرة الثروة وكثرة الخيرات ماهو كفيل بأن يجعله حصنا حصينا لأى حاكم يهيمن عليه .

ولكن صلاح الدين لم يطمع فى الملك لمجرد الرغبة فى الملك ، وقد أدرك صلاح الدين بعد وفاة سيده نور الدين أنه اذا كان نور الدين قد ترك بعده من يرثه فى دولته وأراضيه ، فانه لم يترك من يرثه فى سياسته الخاصـة بالوحدة والجهاد . وهكذا اعتبر صلاح الدين نفسه الوريث الوحيد لسيده نور الدين فى سياسته ، وهى السياسة التى استهدفت جهاد الصليبيين وطردهم تماما من أرض الوطن العزيز . ولكن كيف يمكن تنفيذ سياسـة الجهاد وحكام الشام والعراق منقسمون على أنفسهم شيعا بدافع أغراض دنيوية شخصية لايجوز أن تقف حائلا دون تنفيذ سياسة قومية تحررية بعيدة الأهداف سامية الغايات ؟ وما ذنب صلاح الدين ، بل ماذنب قضية الجهاد ، اذا كان نور الدين محمود لم يترك من بعده الا ذرية ضعافا غدت ألعوبة فى أيدى المغرضين من وزراء

نور الدين محمود وأمرائه الذين رأوا فى السيطرة على أبنـاء البيت الزنكى تحقيقا لأطماعهم وشهواتهم ؟ هل يترك صلاح الدين أمر الجهاد ويترك السرطان الغربى يواصل زحفه التدريجى فى جسم الوطن العربى ، أو يغامر بنفسه فى حرب جزئية لا أمل فى نجاحها ضـد الصليبيين وهو متعرض فى أية لحظة لتآمر بعض حكام القوى الاسلامية ضده ليطعنوه من الخلف ، مثلما سبق أن فعل معين الدين أنر حاكم دمشق الخـائن عندما تحالف مع الصليبيين ضد نور الدين محمود ؟ لاشك فى أن منطق العقـل والضمير كان يحتم على صلاح الدين ألا يسلك هذا أو ذاك من أساليب الخيانة ، وأن يبدأ جهوده بتوحيد قوى المسلمين والضرب على أيدى ذوى المصالح الشخصية من الانفصاليين ، وبعد ذلك يمكنه أن يواجه الدخلاء الغاصبين ؛ ومن خلفه الوطن العربى من الفرات الى النيل يقف كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا .

وهكذا اذا نحن تكلمنا عن صلاح الدين فانما نتكلم عن بطل من أبطال الوحدة وعلم من أعلام الجهاد ؛ بطـل جمع بين الشجاعة وكرم الخلق ، وعـلم وضع لنفسه ولأمته رسـالة سامية وأهدافا خالدة ، وكرس حياته فى سبيل تحقيق هـذه الرسالة والوصول الى تلك الأهداف . انه الرجل الذى وصفه صديقه ورفيقه القاضى ابن شداد بأنه قضى حياته « صابرا على مر العيش وخشونته ، مع القـدرة التامة على غير ذلك ، احتسابا لله تعالى » .

* * *

أما نحن فلا يسعنا سوى أن نردد نفس الدعاء الذى دعاه له ابن شداد « اللهم انك تعلم أنه بذل جهده فى نصرة دينك وجاهد رجاء رحمتك ، فارحمه ... »

والله يوفقنا فيما ذهبنا اليـــه من خـدمة تاريخ الآباء والأجداد .

سعيد عبد الفتاح عاشور
كلية الآداب بجامعة القاهرة

فى ذى الحجة سنة ١٣٨٤
الموافق مايو سنة ١٩٦٥

بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية
قونيه
هرقله
أرمينية الصغرى
الرها
أنطاكية
حلب
اللاذقية
قبرس
حماه
حصن الأكراد
طرابلس
حمص
البحر المتوسط
بيروت
صيدا
دمشق
صور
عكا
طبرية
عثليث
عسقلان
غزة
بيت المقدس
الكرك
الشوبك
مصر
القلزم

الفصل الأول

عالم مضطرب

هل الأحداث هى التى تصنع الرجال أو أن الرجال هم الذين يصنعون الأحداث ؟ وبعبارة أخرى أيهما يدين بوجوده للطرف الآخر : الشخصيات الكبيرة التى نسمع عنها فى التاريخ تدين بظهورها وعظمتها الى الأحداث التى أحاطت بها ومهدت لظهورها وساعدت على نموها ، أم أن الأحداث الضخمة التى يمتلىء بها تاريخ البشر هى التى تدين بوجودها وظهورها وتطورها وصناعتها الى بعض الشخصيات الملهمة من صانعى التاريخ ؟

مشكلة عسيرة طالما شغلت تفكيرى طوال دراستى التاريخية، وفى كل مرة أرى أنها تحتاج الى مزيد من الروية قبل أن أقطع فيها برأى حاسم . وربما كان أقرب الى الصواب عند معالجة هذا النوع من المشاكل الفكرية أن نأخذ رأيا وسطا ، فنقول ان كثيرا من الأحداث التاريخية انما هى من صنع البشر ، وأن هذه الأحداث بدورها رسمت للبشر الدور الذى يلعبوه على مسرح التاريخ . فالأوضاع والأحداث التى ألمت بالعالم الرومانى القديم فى القرن الأول قبل الميلاد هى التى ساعدت على ظهور قيصر وأوغسطس وفى الوقت نفسه أدى ظهور هذين الرجلين الى

تطوير تاريخ العالم الرومانى تطويرا لا ينكره باحث . كذلك يمكن أن يقال أن تطور أحداث الثورة الفرنسية هو الذى أدى الى ظهور رجل مثل بونابرت ، ولم يلبث بونابرت بدوره أن أسهم فى خلق أحداث جديدة تركت أثرا عميقا فى التـاريخ الأوربى بوجه خاص . والأوضاع التى أحاطت بألمانيا عقب الحرب العالمية الأولى هى المسئولة عن ظهور رجل مثل هتلر ، ولا نستطيع أن ننكر الأثر الذى تركه هتلر بدوره فى التـاريخ .. وهكذا تتلخص المشكلة فى عملية تفاعل كبيرة ، فتساعد الأحداث فى خلق الرجال ويساعد الرجال فى خلق الأحداث ، ويشترك الجميع فى صياغة التاريخ تحت تأثير ظروف البيئة والطبيعة ...

* * *

واذا كان التاريخ يذكر لصلاح الدين الأيوبى أنه البطـل الذى ظهر على مسرح الشرق الأدنى فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر للميلاد ، ليشكل الأحداث ويؤثر فى سيرها بعد أن قضى حياته فى تدعيم الجبهة الاسلامية فى الشرق الأدنى ثم فى محاربة الصليبيين حتى حـوّل أمنهم فى بلاد الشـام خـوفا وانتصاراتهم هزائم ، وأنزل بهم ضربات لم يفيقوا منها حتى تم طردهم نهائيا من الشام فى أواخر القرن التالى .. اذا كان هذا هو المعروف عن صلاح الدين ، فمن حق التاريخ أن نسجل الظروف والأحداث التى مهدت لظهور صـلاح الدين ، بل التى أدت وساعدت على ذلك الظهور ، والتى لولاها ما أصبح المسرح معدا لنشاط بطل كبير مثل صلاح الدين ..

والواقع ان هناك أمثلة كثيرة فى التاريخ لأجزاء عديدة من العالم تشهد على أن الفوضى وسوء الأحوال وانتشار الأخطار والمخاوف كثيرا ما تنتهى بظهور رجل مصلح يضع حدا لتلك الفوضى والأخطار ويوفر الأمن والاستقرار لقومه بعد ما عانوه من قلق واضطراب ، فيكون ظهوره بشيرا بفجر نهار جديد يأتى بعد ليل طويل وأمس ملىء بالمخاوف والهواجس . ومن هذا يبدو أنه من الصعب تقدير ما حققه المصلح أو البطل لقومه ووطنه من أعمال وخدمات الا فى ضوء الأوضاع التى ألمت بالبلاد والعباد قبل ظهوره . وهذه هى الحقيقة الكبرى التى جعلتنا نبدأ هذا الكتاب بفصل تخصصه لدراسة الموقف فى الشرق الأدنى قبل ظهور صلاح الدين ..

* * *

الدولة العباسية والروم :

ويبدو أن المدخل الطبيعى لدراسة أحوال الشرق الأدنى قبل ظهور صلاح الدين على مسرحه انما يأتى من ناحية الدولة العباسية . ذلك أن ما أصاب المسلمين فى الشرق الأدنى من وهن وضعف أدى الى تمكين الصليبيين من تثبيت أقدامهم فى مراكز هامة من أراضيهم ، انما يرجع أولا الى ضعف الخلافة العباسية وتفتت دولتها ، مما ترك أثره فى الوطن الاسلامى مشرقه ومغربه بوجه عام ، وفى منطقة الشرق الأدنى بوجه خاص .

ذلك أن الدولة العباسية بلغت فى أوائل القرن التاسع للميلاد (القرن الثالث للهجرة) درجة واضحة من اتساع الشهرة

وازدياد النفوذ وقوة السلطان ووفرة الحرمة ، مما لم يتيسر لدولة أخرى معاصرة . وكان الخليفة العباسى يقول كلمته فى بغداد فيجاب بالطاعة والولاء فى جميع أرجاء دولته الواسعة التى التى امتدت من المحيط الى الخليج . ولم تكف جيوش الخلافة العباسية وقتئذ عن مواصلة الجهاد — وبخاصة ضد الروم أو البيزنطيين — فدأب الخلفاء العباسيون واحدا بعد آخر على ارسال الجيوش صيفا وشتاء لتوغل فى آسيا الصغرى وتستولى على المدن والحصون ثم تعود مثقلة بالغنائم والأسرى. وأدرك أباطرة القسطنطينية أنه لاقبل لهم بمواجهة جيوش الخلافة ، فدأبوا على شراء الصلح من المسلمين مقابل دفع جزية سنوية ضخمة من المال حينا أو تحمل مرارة الهزيمة وقسوة الضربات التى أنزلتها بهم الجيوش الاسلامية أحيانا .

على أن الموقف أخذ يتبدل تدريجيا منذ أخذ الخليفة المعتصم العباسى يكثر من الاعتماد على الترك ، الأمر الذى كان من أسباب تركه بغداد ونقل عاصمته الى سامرا سنة ٨٣٦ . ولم يلبث أن غدا الخلفاء العباسيون أداة سهلة فى أيدى أمراء الأتراك ، حتى غدت السلطة الفعلية فى القرن العاشر فى يد كبير أولئك الأمراء الذى اتخذ لقب « أمير الأمراء » . وزاد من ضعف الدولة العباسية عندئذ كثرة الثورات والحركات المذهبية والدينية داخل الدولة ، مثل الحركة الخرمية التى تزعمها بابك الخرمى وحركة المعتزلة ، فضلا عن نشاط الشيعة فى جوف الدولة . فاذا أضفنا الى ذلك ثورة الزنج فى جنوب العراق (٨٧٧—٨٨٣)

وثورة القرامطة قرب واسط بالعراق سنة ٨٩٠ ، استطعنا أن نكون فكرة عامة عن عوامل انحلال الخلافة العباسية ومظاهر هذا الانحلال .

وليس أدل على ضعف الخلافة العباسية وتفككها فى ذلك الدور ، من الحركات الانفصالية التى قامت فى جسم الدولة والتى أدت الى ظهور وحدات سياسية مستقلة على حساب الخلافة ، مثل الدولة السامانية (٩٧١ — ٩٩٨) والدولة الزيارية (٩٢٨ — ١٠٤٧) والدولة الغزنوية (٩٦٢ — ١١٨٦) والدولة الحمدانية (٩٢٩ — ١٠٠٣) والدولة البويهية . ويهمنا من هذه البيوت التى قامت فى المشرق على حساب الدولة العباسية ، السامانيون والبويهيون . أما السامانيون فقد غدت لهم السيطرة على الجزء الشرقى من بلاد فارس ، أعنى خراسان وبلخ وما وراء النهر فضلا عن فرغانة وخوارزم . وقد اتخذ السامانيون بخارى وسمرقند مركزين لنشاطهم ، واستمروا يحكمون تلك الأقاليم الواسعة حكما مستقلا معظم القرن العاشر . وأما البويهيون — وهم من أصل فارس أيضا — فقد سيطروا على الجزء الغربى من بلاد فارس — أعنى عراق العجم وكرمان وخوزستان — كما سيطروا على العراق العربى بما فيه بغداد بين سنتى ٩٤٥ ، ١٠٥٥ : وفى تلك الفترة اتخذ أمراء بنى بويه لقب امرة الأمراء ، وسلبوا لأنفسهم كل ما للخلفاء العباسيين من سلطان ونفوذ ، حتى صار أمير الأمراء من بنى بويه هو الحاكم الفعلى فى الدولة.

على أنه يلاحظ أن كلا من هذين البيتين — السامانيون والبويهيون — كانوا من أصل فارس ، ومن ثم وجهوا جل عنايتهم نحو الأقاليم الفارسية من الدولة العباسية ، ولم يهتموا بالأقاليم العربية كالجزيرة وبلاد الشام ومصر . والواقع أن بلاد الشام ومصر لم تكن أقل تعرضا للفوضى والانقسام من بقية أجزاء الخلافة . ذلك أن الاخشيديين استقلوا بمصر والجزء الأكبر من بلاد الشام — حتى طرابلس وبيروت شمالا — (٩٣٥ — ٩٦٩) . أما شمال الشام واقليم الموصل فقد استقل بهما الحمدانيون (٩٢٩ — ١٠٠٣) الذين ظلوا فى منازعات مستمرة مع البويهيين من ناحية والاخشيديين من ناحية أخرى . وزاد من الفوضى التى تعرضت لها بلاد الشام فى ذلك الدور انتفاضة القبائل العربية ، فسيطر العرب الجنوبيون أو اليمنيون على جنوب الشام ووسطها حيث صارت الغلبة فى فلسطين لبنى طى وفى وسط الشام لبنى كلب . أما عرب الشمال أو القيسيون فقد سيطروا على شمال الشام والجزيرة حيث ظهر من قبائلهم بنو كلاب وبنو نمير وبنو عقيل . وجميع هذه القبائل الغربية ربطتها علاقات بالقرامطة ، بل ان بنى طى وبنى كلب شاركوا فى ثورة القرامطة التى حدثت فى مستهل القرن العاشر .

أما الخلافة العباسية ذاتها فاستمرت أوضاعها فى القرن التاسع تنتقل من سىء الى أسوأ ، حتى تولى منصب الخلافة فى مدى ثمان سنوات (٨٦١ — ٨٦٩) أربع خلفاء مات منهم

اثنان مقتولان هما المعتز بالله والمهتدى بالله . وأمام ذلك الانحلال الذى أصاب الخلافة العباسية والتفكك الذى اعترى وحدة الدولة الاسلامية ازداد أباطرة الروم حزما وصلابة تجاه جيرانهم المسلمين . وبعد أن كانت الامبراطورية البيزنطية تلتزم سياسة الدفاع ضد هجمات المسلمين منذ القرن السابع للميلاد ، اذا بأباطرة القسطنطينية يتحولون فى القرن العاشر من الدفاع الى الهجوم .

على أنه فى الوقت الذى أخذ الروم يشددون هجماتهم على المسلمين فى أطراف العراق والشام ، شاءت الظروف أن تظهر على مسرح الشرق الأدنى قوة فتية أمدت الوطن الاسلامى بدماء جديدة وجعلت المسلمين يتحولون مرة أخرى من الدفاع الى الهجوم . أما هذه القوة فكانت قوة الأتراك السلاجقة الذين بسطوا سيطرتهم على الخلافة العباسية فى بغداد وقاموا بحمايتها وحماية أراضيها . وكان طبيعيا أن يحمل السلاجقة — وهم مسلمون سنيون — أمانة جهاد الروم ، فأخذوا يغيرون على أراضى الروم فى آسيا الصغرى وأنزلوا بهم عدة هزائم أضخمها الهزيمة التى أنزلها السلطان ألب أرسلان السلجوقى بالروم فى موقعة مانزكرت أو ملازكرت سنة ١٠٧١ .

وأمام تلك الكارثة لم يجد الروم بدا من الاستنجاد بغرب أوربا والبابوية ، فلبت البابوية النداء ، ومن ثم تجمعت الحملة الصليبية الأولى فى الغرب سنة ١٠٩٦ .

* * *

ظهور الصليبيين على مسرح الشرق الأدنى :

وليس هذا مجال الخوض فى جـذور الحـركة الصليبية وأسبابها ودوافعها الحقيقية ، ولكننا نكتفى هنا بالاشارة الى أنه منذ بداية حركة الفتوح العربية الاسلامية فى القرن السابع للميلاد، والدولة البيزنطية لا تكف عن طلب مساعدة الغرب الأوربى المسيحى ضد المسلمين الذين اقتطعوا أجزاء ثمينة من أراضيها . ولكن شاءت الظروف أن يعيش غرب أوربا حتى القرن الحادى عشر فى غمة العصور المظلمة ، فلم يكن لديه من الاستعداد أو الامكانيات ما يمكنه من تلبية نداء أتباع الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية فى القسطنطينية ، الأمـر الذى جعل البيزنطيين يقفون وحدهم أمام جيرانهم المسلمين ، وجعل العلاقات بين الطرفين تستمر بين مد وجزر لصالح هذا أو ذاك من الطرفين المتنازعين ، حتى كانت الكارثة التى حلت بالدولة البيزنطية وجيشها وامبراطورها على أيدى السلاجقة المسلمين فى موقعة مانزكرت سنة ١٠٧١ كما سبق أن أشرنا . وكان أن صادفت استغاثة الدولة البيزنطية عندئذ قبولا فى الغرب الأوربى الذى أخذ يفيق من سباته الطويل ، فاذا بالبابوية فى الغرب تجد فى فكرة ارسال جيوش الى الشرق فرصة ثمينة لتحقيق حلم جميل طالما تاقت الى تحقيقه هو فرض سيطرتها على الكنيسة الأرثوذكسية وتحقيق زعامة البابوية على المسيحيين جميعا فى الشرق والغرب . ولم تلبث أن قوبلت دعوة البابا للحرب الصليبية بالاستجابة فى غرب أوربا ، فرحب بها جمهور العامة بسبب الفاقة

والضيق الاقتصادى الذى كانوا يعانون منه عندئذ فى غـرب أوربا ، ورحب بها فريق كبير من الفرسان وأمراء الاقطاع لأنهم وجدوا فيها فرصة طيبة لتأسيس امارات لهم فى الشرق ؛ ورحبت بها المدن التجارية مثل بيزا والبندقية وجنوا لما رأوا فيها من تحقيق أمنية ثمينة ، هى الاستئثار بتجارة الشرق واقامة مراكز تجارية لها فى شرق البحر المتوسط ، وجمع الأموال والثروات من وراء ذلك كله .

وهكذا اتفقت مختلف الأطراف فى المجتمع الأوربى الغربى على ارسال حملة الى الشرق لتحقيق أغراض دنيوية بحتة تحت ستار زائف من الدين جعلها تنتسب الى الصليب وتعرف باسم الحروب الصليبية ، وهى فى حقيقة أمرها أبعد ما تكون عن روح المسيحية وآفاقها . وقد خرجت الحملة الصليبية الأولى من الغرب سنة ١٠٩٦ ، وكان الشطر الأول منها يتألف من الدهماء والعامة الذين لم يشاركوا فى تلك الحركة الا فرارا من الجوع والفاقة فى غرب أوربا ، والذين كانوا يجهلون أبسط مبادىء الحرب ؛ فأتوا من ضروب السلب والعـدوان على اخوانهـم المسيحيين فى شرق أوربا ما أثار الاشمئزاز من سلوكهم ، حتى اذا ما وصلوا الى آسيا الصغرى ، سهل على السلاجقة القضاء عليهم وتحويلهم الى كومة كبيرة من الأشلاء . أما الشطر الثانى من الحملة الصليبية الأولى فقد تألف من الأمراء وأتباعهم من الفرسان المسلحين ، أى أنه يمثل الشطر النظامى من الحملة .

وعلى الرغم من التنافر الذى بدا لأول وهلة بين الصليبيين

الغربيين والبيزنطيين الأرثوذكس ، وعلى الرغم من العقبات التى حرصت الامبراطورية البيزنطية على وضعها فى طريق الصليبيين من أول الأمر ؛ على الرغم من كل ذلك فقد نجحت الحملة الصليبية الأولى فى تحقيق نتائج كبيرة ونجاحا أكثر مما كان يطمع فيه الصليبيون أنفسهم . ذلك أنه لم تكد تمر سنوات قليلة حتى كان الصليبيون قد ثبتوا أقدامهم فى الوطن العربى بالشرق الأدنى، وأسسوا ثلاث امارات كبرى فى الرها وأنطاكية وطرابلس ، فضلا عن مملكة بيت المقدس الصليبية . ولم يلبث الصليبيون أن اتخذوا هذه المراكز الكبرى قواعد ينشرون منها نفوذهم على بلاد الجزيرة والشام ، فاستولوا على عديد المدن والقرى على الساحل وفى الداخل ، بالاضافة الى الحصون الكثيرة التى أقاموها وشيدوها لاحكام سيطرتهم على البلاد .

* * *

موقف المسلمين من الخطر الصليبى :

ومن الواضح أن هذه المكاسب السريعة التى حققها الصليبيون فى نهاية القرن الحادى عشر وأوائل الثانى عشر لا يرجع الفضل فيها الى قوتهم بقدر ما يرجع الى ضعف المسلمين عندئذ . ذلك أن الصليبيين أفادوا الى حد كبير من الانقسامات التى تعرض لها المسلمون فى الشرق الأدنى فى أواخر القرن الحادى عشر بين شيعة وسنة ، وعرب وترك . بل لقد بلغ من غفلة المسلمين أنهم لم يدركوا فى أول الأمر حقيقة الحركة الصليبية فأراد بعضهم أن يستغل تلك القوة الجديدة التى ظهرت على

مسرح الشرق الأدنى فى ضرب منافسيهم وخصومهم من اخوانهم المسلمين . من ذلك أنه لم يكد يفرض الصليبيون حصارا على أنطاكية ، حتى أرسل الأفضل — الوزير الفاطمى بمصر — سفارة الى الصليبيين فى أوائل سنة ١٠٩٨ ، يعرض عليهم محالفته ضد الأتراك السلاجقة ، على أن يقتسم الحليفـان الغنيمة فتكون أنطاكية للصليبيين وتكون بيت المقدس للفاطميين !!

وليس معنى ذلك أن المسلمين تقاعسوا عن صد ذلك الخطر الصليبى الغربى فى مرحلته الأولى ؛ وانما ظهرت عدة محاولات من جانب أمراء المسلمين لوقف الزحف الصليبى . من ذلك أنه حدث عندما أخـذ الصليبيون يحاصرون أنطاكية فى أواخـر سنة ١٠٩٧ أن تجمعت قرب شيزر قوة اسلامية بزعامة دقاق ملك دمشق وجناح بن ملاعب أمير حمص ، واستطاعت هذه القوة أن تتفوق على الصليبيين فى الاشتباك الذى حدث بين الطرفين قرب البارة . وكان رضوان ملك حلب يقف عندئذ موقفا سلبيا من تهديد الصليبيين لأنطاكية ، بسبب ما كان هناك من علاقة غير طيبة بين رضوان وياغى سيان حاكم أنطاكية ؛ ولكن رضوان لم يستطع المضى طويلا فى سياسته فصمم على أن يتناسى الماضى وأسرع لانقاذ أنطاكية على رأس حملة شاركه فيها سكمان بن أرتق من ديار بكر ، وأمير حماه ، فضلا عن قوات أخرى من حمص ومن الأراتقة فى اقليم الجزيرة .

واذا كانت هذه الجهود قد باءت بالفشل ، مما ترتب عليه سقوط أنطاكية فى قبضة الصليبيين فى يونية ١٠٩٨ ، الا أن ذلك

لا يعنى توقف حركة المقاومة الاسلامية . ذلك أن سقوط أنطاكية أثار موجة من الذعر فى البلدان الاسلامية المجاورة « فهرب من كان بها من المسلمين وتسلمها الأرمن » [1] . وكان كربوغا أتابك الموصل قد أعد عدته لانقاذ أنطاكية ، ولكنه أضاع كثيرا من الوقت فى محاولة فاشلة للاستيلاء على الرها من الصليبيين ؛ حتى اذا ما أدرك أنطاكية على رأس جيوشه ، كانت المدينة قد سقطت فعلا فى قبضة الصليبيين . ومع ذلك فقد لجأ كربوغا ومن انضم اليه من أمراء المسلمين — مثل دقاق بن تتش صاحب دمشق وطغتكن أتابك وأرسلان تاش صاحب سنجار وسكمان ابن أرتق وجناح الدولة حسين صاحب حمص — الى حصار الصليبيين داخل أنطاكية حتى نفدت أقواتهم وصاروا « ليس لهم ما يأكلونه ، وتقوت الأقوياء بدوابهم ، والضعفاء بالميتة وورق الشجر » [2] . ولكن حدث فى الوقت الذى انتاب اليأس الصليبيين داخل أنطاكية وشرع بعضهم يفكر فى الاستسلام والبعض الآخر يحاول التسلل والهروب ؛ حدث فى ذلك الوقت أن دب الشقاق فى صفوف المسلمين « فجرت بين الأتراك والعرب منافرة » ، وعندئذ سهل على الصليبيين انزال الهزيمة بهم ، فعاد كربوغا الى الموصل تحوطه خيبة الأمل .

وكانت حسرة المسلمين أليمة عند استيلاء الصليبيين على بيت المقدس فى يوليو سنة ١٠٩٩ ؛ لا سيما وأن المراجع المسيحية

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ص ١٣٥ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩١ هـ .

والاسلامية سواء أجمعت على أن الصليبيين أحـدثوا مذبحة وحشية فى تلك المدينة عقب استيلائهم عليها ، وأنهم اقتحموا المسجد الأقصى وذبحوا كل من احتمى به من المسلمين وعدتهم أكثر من سبعين ألفا « منهم جماعة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ، ممن فارق الأوطان وجاوروا بذلك الموضع الشريف » . ولا شك فى أن هذه الأخبار أثارت رد فعل عنيف فى العالم الاسلامى بأجمعه ، حتى روى ابن الجوزى أن قاضى دمشق ومعه بعض المستنفرين أسرعوا الى بغداد ليستثيروا الخليفة العباسى ويدفعوه دفعا الى جهاد أولئك الصليبيين المعتدين ؛ وهناك فى بغداد « قطعوا شعورهم واستغاثوا وبكوا ، وقام القاضى فى الديوان وأورد كلاما أبكى الحاضرين .. »[1] . غير أنه يبدو أن الخلافة العباسية كانت قد بلغت درجة من الضعف والانحلال عندئذ بحيث لم تحرك ساكنا ؛ وكذلك كان السلطان بركيا روق السلجوقى ماضيا فى سباته مشغولا بمشاكله الضيقة الخاصة ، وبذلك وقع التقاعد ، واكتفى المسلمون عندئذ بالبكاء والعويل وهو أضعف سلاح يلجأ اليه الانسان وقت الخطر . وقد عبر عن ذلك أحـد الشعراء المعـاصرين — هو أبو المظفـر الأبيوردى — فقال : —

وشر سـلاح المرء دمـع يفيضـه
اذا الحرب شبت نارها بالصوارم

---

(١) ابن الجوزى : مرآة الزمان ؛ حوادث سنة ٤٩٢ .

فايها بنى الاســــلام ان وراءكم
وقائع تلحــق الذرى بالمناســـم
وكيف تنام العين مــلء جفونهــا
على هفــــوات أيقظت كل نائــم
واخوانكم بالشـــام أضحى مقيلهم
ظهور المذاكى أو بطــون القشاعم
تسومهــم الروم الهــوان وأنتــم
تجرون ذيل الخفض فعل المســالم
أرى متى أمتى لا يشرعون الى العدى
رماحهــم والدين واهى الدعــائم
ويجتنبون النـــار خوفا من الردى
ولا يحســبون العــار ضربة لازم
أترضى صـــناديد الاعاريب بالأذى
ويغضى على ذل كمـــاة الأعاجـــم

واذا كانت هناك مقاومة اسلامية قد تعرض لها الصليبيون فى ذلك الدور ، فان هذه المقاومة بدت فاترة ضعيفة من جانب الفاطميين فى مصر . ذلك أن الوزير الأفضل حاول أن يحول دون استيلاء الصليبيين على بيت المقدس ، فجمع قواته وخرج من مصر ، ولكنه وصل عسقلان فى ٤ أغسطس « وقد فات الأمر » ؛ أى بعد أن استولى عليها الصليبيون بعشرين يوما . وهكذا بدأ الأفضل يدرك حقيقة أولئك الغزاة ، بعد أن اعتقد فى يوم ما أن الصليبيين سيقنعون بالاستيلاء على شمال الشام ويحرصـــون

على صداقة الفاطميين بوصفهم حلفاؤهم الطبيعيون ضد الأتراك السلاجقة . ولم يسع الأفضل عند وصوله الى عسقلان سوى أن يرسل « رسولا الى الفرنج يوبخهم على ما فعلوه !! »[1] . ثم ان الأفضل أضاع وقتا ثمينا فى عسقلان ينتظر وصول الأسطول فى البحر ، الأمر الذى مكن الصليبيين من جمع شملهم ، ثم أنزلوا الهزيمة بالقوات الفاطمية فى ١٢ أغسطس ، فهرب الوزير الأفضل الى مصر ، فى حين انتهى أمر معظم جيشه الى القتل . وكان لهذه الهزيمة أثر كبير من الناحية المعنوية على الأقل ، حتى اعتبرها بعض المؤرخين نهاية لنفوذ الفاطميين بالشام .

وهكذا استأسد الصليبيون فى بلاد الشام بوجه عام وفلسطين بوجه خاص ؛ فضلا عن نشاطهم فى اقليم الجزيرة حول امارتهم التى أسسوها بالرها . ولم يلبث أن استولى الصليبيون على اقليم الجليل وسواد طبرية ؛ ثم سقطت حيفا فى أيديهم فى أغسطس سنة ١١٠٠ . وفى العام التالى استولى بلدوين الأول — أول ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية — على أرسوف وقيسارية ، كما استولى على عكا سنة ١١٠٤ ومن الواضح أن هذه المراكز التى استولى عليها الصليبيون جعلت لهم سيادة فعلية على شواطىء فلسطين . وقد أظهر المؤرخون أسفا عميقا لعجز الفاطميين عن حماية شواطىء فلسطين وموانيها ؛ ومن ذلك ما يقوله المؤرخ أبو المحاسن عن الخليفة الآمر الفاطمى ، أنه كان

---

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر ؛ ص ٤٦٣ (مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية) .

« يتناهى فى العظمة ويتقاعد عن الجهاد .. وكان فيه تهاون فى أمر الغزو والجهاد حتى استولت الفرنج على غالب السواحل وحصونها فى أيامه . ولم ينهض لقتال الفرنج ألبتة ، وان كان قد أرسل مع الأسطول عسكر فهو كلاشىء » [1] . والواقع أن الفاطميين أرسلوا ثلاث حملات ضد الصليبيين سنة ١١٠١ ، سنة ١١٠٢ ، سنة ١١٠٥ ؛ وفى كل مرة لا يوفق الفاطميون فى اشتباكاتهم مع الصليبيين عند الرملة . وكانت حملة الفاطميين سنة ١١٠٥ آخر محاولة كبرى قام بها الفاطميون ضد الصليبيين فى ذلك الدور ؛ هذا وان استمر الفاطميون يهددون الصليبيين بين حين وآخر ؛ واتخذوا مدينة عسقلان مركزا لذلك التهديد . ومن هذا المركز أغارت القوات الفاطمية سنة ١١٠٦ على قافلة للحجاج الصليبيين بين يافا وأرسوف ؛ كما أغارت سنة ١١٠٧ على الخليل ؛ بل ان الفاطميين وصلوا سنة ١١١٠ الى أسوار بيت المقدس ذاتها . ولا أدل على ضعف تلك الهجمات من أن الصليبيين استولوا على بيروت وصيدا سنة ١١١٠ ، فى الوقت الذى كانت طرابلس قد وقعت فى أيديهم سنة ١١٠٩ .

وكانت النتيجة الطبيعية لهجمات الفاطميين على الصليبيين من ناحية ؛ وظهورهم فى صورة العاجزين عن زحزحة الصليبيين بعيدا عن مراكزهم التى احتلوها فى جنوب الشام من ناحية أخرى ، أثرها فى دفع بلدوين الأول ملك بيت المقدس الى العمل على تأمين حدود مملكته من ناحية الجنوب ، فضلا عن القيام

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ؛ ج ٥ ص ١٧٨ .

ببعض المحاولات للوقوف على مدى قوة الفاطميين فى الدفاع عن أراضيهم . وكان أن بدأ بلدوين الأول بالسيطرة على وادى عربة جنوبى البحر الميت ، ثم شيد سنة ١١١٥ حصن الشوبك ليكون مركزا يمكن الصليبيين من السيطرة على وادى عربة بأجمعه . وفى العام التالى — أى سنة ١١١٦ — خرج بلدوين فى حملة أخرى ، اخترق فيها صحراء النقب حتى وصل أيله على ساحل خليج العقبة حيث بنى قلعة حصينة للتحكم فى الطريق البرى للقوافل بين مصر والشام ، كما شيد قلعة أخرى فى جزيرة فرعون الواقعة قبالة أيلة فى خليج العقبة . وبذلك تمكن الصليبيون من مد نفوذهم الى شبه جزيرة سيناء الواسعة ، وان كان يجدر بالذكر أن رهبان دير القديسة كاترينه فى شبه جزيرة سيناء رفضوا أن يستضيفوا الملك بلدوين الأول فى ديرهم نظرا للعلاقات التى تربطهم بالفاطميين فى مصر .

وبعد أن قام الملك بلدوين بمحاولة للاستيلاء على صور سنة ١١١٦ ، عاد الى التفكير فى مهاجمة الفاطميين فى عقر دارهم ليشعرهم بقوته بعد أن أحس هو بضعفهم . ويبدو أن الملك بلدوين لم يقصد عندئذ القيام بحملة كبيرة ضد مصر ، وانما قام بمجرد حملة استكشافية ، لأنه خرج على رأس مائتين من الفرسان وأربعمائة من المشاة ، مما يدل على أنه لم يكن ينوى القيام بعمل حربى واسع النطاق . وقد استطاع بلدوين أن يعبر الصحراء الممتدة من غزة حتى العريش والفرما دون أن يتعرض

لتهديد من جانب البدو الذين خشوا خطر الصليبيين فسهلوا لهم الحصول على ما لزمهم من زاد وماء . وكان أن وصل الصليبيون فى مارس سنة ١١١٨ الى الفرما واستولوا عليها، وهى أولى المراكز الأمامية فى البلاد المصرية . وكانت دهشة الصليبيين عظيمة عندما دخلوا الفرما فوجدوها خالية بعد أن هجرها أهلها من المصريين وتركوا فيها متاعهم ، مما أمد الغزاة بقدر كبير من الغنائم . وبعد أن أحرق بلدوين جامع الفرما ومساجدها اتجه غربا نحو مصب النيل . ويروى المؤرخ ابن الأثير أن بلدوين الأول وصل الى مدينة تنيس جنوبى بحيرة المنزلة ، كما أشار المؤرخ الصليبى وليم الصورى الى أن الملك بلدوين وصل الى نهر النيل فعلا .

غير أن بلدوين كان لا يستطيع المضى أكثر من ذلك ، لصغر قوته من جهة ولمرضه من جهة أخرى ، وهو المرض الذى لم يلبث أن توفى بسببه قرب العريش فى أوائل ابريل سنة ١١١٨ . وذكر ابن الأثير أن سبب وفاة بلدوين أنه سبح فى النيل عند تنيس « فانتقض جرح كان به » ؛ فى حين ذكر غيره من المؤرخين أن وفاته كانت بسبب أكلة سمك من بحيرة المنزلة . وأشار المؤرخ أبو المحاسن أنه عند وفاة بلدوين شق أصحابه بطنه وصبروه (حنطوه) ورموا أحشاءه هناك ، فعرف ذلك المكان حتى اليوم بسبخة بردويل أو البردويل قرب بور سعيد الحالية ، واعتاد

الناس أن يرجموها الى أيام أبى المحاسن[1]. وهكذا قدر لمنطقة بور سعيد أن تكون مقبرة الغزاة فى العصور الوسطى والحديثة!!

* * *

السلاجقة والصليبيون :

ولم يكن توسع الصليبيين فى شمال الشام أقل سرعة من توسعهم فى جنوبه ، فاستولوا على طرابلس — كما سبق أن أشرنا — فى يولية سنة ١١٠٩ . ولو كانت الحكومة الفاطمية اتخذت اجراء حاسما سريعا لانقاذ طرابلس ، لأمكن لهذه المدينة الباسلة أن تستمر فى المقاومة ، ولكن الفاطميين تقاعسوا « مع قوتهم فى العساكر والأموال والأسلحة » على قول المؤرخ أبى المحاسن . وسرعان ما أعقب سقوط طرابلس فى أيدى الصليبيين استيلاؤهم على ما تبقى من المعاقل الاسلامية على شواطىء الشام — مثل بانياس وجبلة — فضلا عن بعض الحصون الداخلية مثل حصن الأكراد .

واذا كان مفروضا أن يدافع الفاطميون عن جنوب الشام وسواحله ، فان الوضع الطبيعى كان يتطلب أن يقوم السلاجقه بالدفاع عن الوطن الاسلامى فى شمال الشام واقليم الجزيرة . ولكن الظاهرة التى تسترعى الانتباه هى بلا شك جمود السلاجقة — سلاجقه فارس وأتابكيتهم فى الموصل — فى أواخر القرن الحادى عشر وأوائل القرن الثانى عشر ؛ بحيث أنهم لم يتحركوا

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥١٢ هـ
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٧١ .

للحد من توسع الفرنجة ، على الأقل فى شمال العراق والشام وشرقى آسيا الصغرى . ثم انه حدث فى مستهل القرن الثانى عشر (سنة ١١٠١) أن أصيبت حملة صليبية كبيرة — هى الحملة اللمباردية — بهزيمة ساحقة فى شمال شرق الأناضول ؛ ومع كل ذلك لم يحاول سلاجقة فارس أن يهتبلوا الفرصة لتحويل التيار فى الشرق الأدنى ضد الصليبيين وطردهم من البلاد التى اغتصبوها . ثم كيف ارتضى سلاجقه فارس لأنفسهم أن تقوم القوى التركمانية الصغيرة — مثل الأراتقه — بمحاربة امارة الرها ، دون أن يشاركوهم عبء الجهاد للقضاء على تلك القوة الصليبية الرابضة فى شمال العراق والتى تهدد سلامة الخلافة العباسية فى بغداد ؟

الواقع أن دولة سلاجقة فارس تعرضت للانقسام الشديد عقب وفاة ملكشاه ، وما أعقب تلك الوفاة من خلاف بين ولديه بركيا روق ومحمد حول تقسيم ملك أبيهما . واذا كان ذلك الخلاف قد انتهى باتفاق الأخوين سنة ١١٠٤ على أن يأخذ بركيا روق فارس وبغداد ويترك لأخيه محمد الأقاليم الغربية من الدولة — أى ديار بكر والجزيرة والموصل والشام — الأ أنه من الواضح أن سلطة كل منهما غدت اسمية الى حد كبير أمام ازدياد نفوذ الأتابكة والحكام المحليين . وليس معنى ذلك استقامة أحوال الأتابكيات ، وانما دب الفساد فيها أيضا بصورة تبعث على الأسف العميق . وان نظرة عاجلة نلقيها على أتابكية الموصل فى ذلك الدور كفيلة بأن توضح لنا أن الموقف السلبى

لتلك الأتابكية عندئذ انما يرجع الى اختلال أحوالها الداخلية اختلالا جعلها مسرحا لكثير من الفتن والثورات والمنازعات بين أمراء السلاجقة . من ذلك أن كربوغا أتابك الموصل أوصى وهو على فراش الموت سنة ١١٠٢ بأن يخلفه فى حكم الموصل أحد رجاله واسمه سنقرجه . ولكن موسى التركمانى — وهو أيضا أحد رجال كربوغا — نازع سنقرجه حكم الموصل ، واستطاع موسى هذا أن يقتل منافسه ويفوز بحكم الموصل بوصفه نائبا عن السلطان بركيا روق . ولم يكد موسى التركمانى يهنأ بذلك النصر حتى ظهر له منافس جديد فى شخص جكرمش ، الذى استولى على نصيبين وطمع فى الموصل أيضا ، مما جعل موسى يستنجد بسقمان بن أرتق ، وأعطاه حصن كيفا وعشرة آلاف دينار ثمنا لمساعدته . على أن ذلك كله لم يغن موسى التركمانى شيئا ، اذ لم يلبث أن قتل ، وبذلك أصبح جكرمش حاكم الموصل وما حولها .

ولعل هذا المثل عما كان يحدث بالموصل فى تلك الفترة يعطينا صورة واضحة عن مدى انحلال السلطة المركزية فى سلطنة سلاجقة فارس ، مما أتاح للأتابكة أن يتوارثوا مدن الدولة وأقاليمها ، ويتقاتلوا فيما بينهم وبين بعض ، وهم فى شغل بكل ذلك عن الصليبيين فى الرها وشمال الشام . ولم تغب هذه الحقيقة عن بال الصليبيين الذين رأوا « اشتغال عساكر الاسلام وملوكه بقتال بعضهم بعضا » فأسرعوا الى استغلال الفرصة بعد أن

« تفرقت عندئذ بالمسلمين الآراء واختلفت الأهـواء وتمزقت الأموال »[1] .

على أنه لا ينبغى أن يفهم من ذلك أن المسلمين فى الجزيرة وشمال الشام استكانوا تماما فى أوائل القرن الثانى عشر أمام التوسع الصليبى . من ذلك أنه حدث عندما حاول بلدوين الثانى دى بورج أمـير الرها مهاجمـة حـران سـنة ١١٠٤ بمساعدة أمـير أنطاكية ، أن هب أمراء المسلمين فى الجـزيرة لدفع ذلك العدوان . وكان احساس هؤلاء الأمراء بالخطر سببا للتوفيق بين خصمين متعاديين ، هما جكرمش أتابك الموصل وسقمان بن أرتق صـاحب ماردين وحصن كيفا ؛ « فأرسـل كل منهما لصـاحبه يدعوه الى الاجتماع معه لتلافى أمر حران ويعلمه أنه قد بذل نفسه لله تعالى وثوابه ، وكل واحـد منهما أجاب صـاحبه الى ما طلب منه » . ولم يلبث أن جمع هذان الأميران ما يقرب من عشرة آلاف محارب من الترك والعرب والأكراد ، وفى موقعة حران أو البليخ التى دارت فى مايو سنة ١١٠٤ أبيـد الجيش الصليبى ابادة تامة وقتل من الصليبيين « عشرة آلاف ما بين راجل وفارس » . وكان من بين الأسرى أمير الرها نفسه وغيره من أمراء الصليبيين [2] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٤٩٧ هـ .

(٢) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان (مجمـوعة مؤرخى الحروب الصليبية ص ٥٢٧) .

ويبدو أن انتصار جكرمش على الصليبيين لم يخفف من حدة كراهية السلطان محمد السلجوقى له ، وهو السلطان الذى غدا منفردا بحكم دولة السلاجقة بعد وفاة أخيه بركياروق سنة ١١٠٥ . وقد رفض جكرمش من ناحيته اعلان خضوعه للسلطان محمد ، الأمر الذى جعل الأخير يزحف على الموصل « بالنقابين والدبابات » ويقاتل أهل الموصل قتالا شديدا ، ولكن دون أن يظفر بغرضه . وأخيرا فكر السلطان محمد فى وسيلة لاسترجاع الموصل وديار بكر والجزيرة ، فمنح حكمها جميعا لأحد رجاله — واسمه جاولى سقاووا — وعهد اليه سنة ١١٠٦ بمحاربة الصليبيين فى أطراف العراق والشام ، وتحت هذا الستار يستطيع أن يقضى على جكرمش . وفعلا نجحت الخطة ، ولكن جاولى سقاووا أعلن استقلاله بالموصل ، الأمر الذى جعل السلطان محمد السلجوقى يعهد سنة ١١٠٨ الى أحد رجاله — وهو مودود التونكى — بطرد جاولى من الموصل ويحل محله فى حكمها . وعندما نجح شرف الدولة مودود فى مهمته وأصبح أميرا على الموصل سنة ١١٠٩ ، عهد اليه السلطان محمد فى العام التالى باستئناف الجهاد ضد الصليبيين .

ولم يلبث أن برز اسم مودود — أتابك الموصل — فى صفحه الجهاد ، فقام بعدة هجمات وحملات ضد الصليبيين جعلت منه زعيما للمسلمين فى حروبهم ضد الصليبيين ، فاستحق تقدير المعاصرين ووصفه المؤرخ أبو المحاسن بأنه « كان من خيار

الملوك دينا وشجاعة وخيرا »[1] . ذلك أن مودود لم تكد تستقيم له الأمور فى الموصل حتى أعد حملة كبيرة لمحاربة الصليبيين ، واشترك معه فى تلك الحملة سكمان القطبى أميرخلاط وميافارقين، ونجم الدين ايلغازى بن أرتق أمير ماردين . وكان أن اتجهت تلك الحملة الكبيرة لحصار الرها فى ربيع سنة ١١١٠ ، ولكنه لم يلبث أن رفع الحصار عنها واتجه صوب حران حيث انضم اليه طغتكين ومعه قوات دمشق . ويبدو أن الخطة التى وضعها مودود عندما ترك حصار الرها واتجه الى حران استهدفت استدراج الصليبيين الى أقصى مكان بعيد عن قاعدتهم فى الجزيرة ، ثم الايقاع بهم كما حدث فى موقعة البليخ سنة ١١٠٤ . وقد عبر عن ذلك ابن الأثير عندما قال ان المسلمين « رحلوا عن الرها الى حران ليطمع الفرنج ويعبروا الفرات اليهم »[2] . ولم يشأ الصليبيون أن يغامروا بأنفسهم ويتقدموا بعيدا عن قواعدهم لملاقاة المسلمين ، فضلا عما دب بين صفوف الصليبيين من خلافات جعلت بعضهم ينصرف الى الشام . أما مودود ورجاله فقد أخذوا يتلفون المزارع والضياع الصليبية ، كما هاجموا بعض القوات الصليبية وهى تعبر نهر الفرات وأنزلوا بهم خسائر جسيمة .

* * *

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ؛ ج ٥ ص ٢٠٧ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٠٥ هـ .

بذور حركة الجهاد :

على أن المسلمين لم يقنعوا بذلك ، وانما أراد الرأى العام فى العالم الاسلامى فى الشرق الأدنى القيام بعمل حاسم ضـد أولئك الصليبيين الغربيين الدخلاء ، بما يحفظ سلامة أهل البلاد الأصليين وكرامتهم . وبعبارة أخرى فان الوضع الذى أمسى فيه المسلمون فى أوائل القرن الثانى عشر وشعورهم بسوء موقفهم فى الشام وأطراف العراق أثار بينهم موجة عامة من الاستياء ، فارتفعت الأصوات تستنكر ذلك الوضع وتنادى بالجهاد . هذا الى أن سيطرة الصليبيين على كثير من المراكز والمعاقل فى أرض الجزيرة والشام قطع أوصال العالم الاسلامى فى الشرق الأدنى ، وحال دون انتقال القوافل والتجارة بين العراق والشام والحجاز ومصر ؛ وهو أمر لم يألفه المسلمون منذ حركة الفتوح العربية الاسلامية فى القرن السابع للميلاد .

ويروى ابن الأثير أن بعض أهالى حلب قصدوا عندئذ بغداد للتعبير عن استيائهم من ذلك الوضع الذى أمسى فيه المسلمون؛ وهناك « اجتمع معهم خلق كثير من الفقهاء وغيرهم وقصـدوا جامع السلطان واستغاثوا ومنعوا من الصلاة وكسروا المنبر ، فوعدهم السلطان انفاذ العسكر للجهاد » . وفى يوم الجمعة التالى قصد جمهور الغاضبين الساخطين جامع القصر بدار الخلافة فى بغداد ، حيث كرروا العملية نفسها فاقتحموا الجامع وكسروا شباك المقصورة والمنبر ؛ وعندئذ أدرك الخليفة المستظهر خطورة الموقف فأرسل الى السلطان محمد السلجوقى « يأمره بالاهتمام

بهذا الفتق ورتقه » . وكان أن أخذ السلطان يعد العدة لحملة ثانية ، وقرر أن تكون هذه الحملة الجديدة تحت قيادة ابنه مسعود والأمير مودود أتابك الموصل . ومما يسترعى النظر ما رواه ابن القلانسى من أنه حدث فى ذلك الوقت بالذات أن بلغ العداء أشده بين البيزنطيين والصليبيين الغربيين ، مما جعل الامبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين يرسل مبعوثا الى السلطان محمد السلجوقى يحضه على محاربة الفرنجة وطردهم من الشام « وترك التراخى فى أمرهم واستعمال الجد والاجتهاد فى الفتك بهم ، قبل اعضال أمرهم واستفحال شرهم ! » . وقد وصل المبعوث البيزنطى الى بغداد قبل وصول وفد حلب ، الأمر الذى جعل المسلمين فى بغداد يصيحون فى السلطان « أما تتقى الله تعالى أن يكون ملك الروم أكثر حمية منك للاسلام ، حتى قد أرسل اليك فى جهادهم !! » .

ولم يلبث أن اجتمع تحت قيادة مودود أتابك الموصل كثير من حكام الأقاليم فى دولة السلاجقة ، واتجهوا جميعا سنة ١١١١ لمهاجمة الرها التى استعصت عليهم فعبروا الفرات لمهاجمة تل باشر . وبينما المسلمون يحاصرون تل باشر جاءتهم استغاثة من رضوان صاحب حلب فتركوا تل باشر واتجهوا صوب شمال الشام . ولم يكد الجيش الاسلامى يقترب من حلب حتى فوجىء زعماؤه بموقف غريب من رضوان . ذلك أن رضوان طلب مساعدة الأتراك عندما كان هؤلاء بعيدين عند تل باشر ، ولكن اقتراب الأتراك من حلب أثار مخاوف رضوان لكثرتهم ، وبدأ

يحسب حسابا لخطرهم على سلطانه أكثر من خطر الصليبيين أنفسهم . وهكذا ظهرت المفاجأة المؤلمة وهى أن رضوان الذى كان يستنجد بالأتراك أغلق فى وجه المسلمين « أبواب البلد ولم يجتمع بهم » ، بل انه أسرع بالتحالف مع بعض القوى الصليبية القريبة للوقوف فى وجه ذلك الخطـر المشترك !! . ويروى ابن العديم أن أهل حلب لم يرضوا عن مسلك ملكهم رضوان ، فغضبوا ونادوا بالجهاد ولكن رضوان أخضع حركتهم فى سرعة واحتمى فى قلعة حلب وبذلك ظلت أبواب المدينة مغلقة سبع عشرة ليلة فى وجه القوات الاسلامية المتحالفة [1] .

وزاد موقف المسلمين سوءا أن الجيش المتحالف عنـدما انصرف عن حلب واتجه الى حوض نهر العاصى ليعمل ضـد الصليبيين ، تعرض للتصدع ، عندما قرر طغتكين صاحب دمشق أن يقف موقفا سلبيا من الحملة الاسلامية ، ورفض أن يتعاون مع اخوانه المسلمين فى أى عمل يقدمون به ضد الصليبيين ، لأنه « اطلع من الأمراء على نيات فاسدة فى حقه فخاف أن تؤخذ منه دمشق فشرع فى مهادنة الفرنج سرا » . وهكذا صدق المؤرخ ابن العديم عندما قال عن أمراء المسلمين عندئذ انهم « كانوا يريدون بقاء الفرنج ليثبت عليهم ما هم فيه » ، أى أنهم كانوا يرجون اسـتمرار بقـاء الصليبيين ليضمنوا استمرار بقائهم فى مناصبهم !! .

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب (مجموعة مؤرخى الحـروب الصليبية ج ٣ ص ٦٠٠) .

على أنه اذا كانت حملة سنة ١١١١ التى قام بها السلاجقة ضد الصليبيين قد باءت بالفشل وانتهت الى لا شيء ، فان هذه النتيجة لا ينبغى أن تقلل من قيمة جهود مودود أتابك الموصل ، وهو الرجل الذى عرف بالتقوى والورع والتشبع بفكرة الجهاد الدينى والواقع أن فشل تلك الحملة انما يرجع أولا الى عدم اخلاص رضوان ملك حلب وطغتكين أتابك دمشق وتخوفهما من قوة مودود . لذلك عاد مودود الى الموصل حزينا كاسف البال ، واكتفى مؤقتا بمراقبة حدود الجزيرة ومسالك الشام تحقيقا لرغبة الخليفة العباسى والسلطان السلجوقى .

ثم كان أن تغيرت الأوضاع فى بلاد الشام سنة ١١١٣ ، وكان ذلك عندما دخل طغتكين فى صراع مع الملك بلدوين الأول حول صور ، مما جعل طغتكين يتجه نحو مودود أتابك الموصل « فأرسل اليه يعرفه الحال ويستنجده ويحثه على سرعة الوصول اليه » (١) . والواقع أن مودود لم يكن فى حاجة الى تحريض لمواصلة الجهاد ، فعبر الفرات فى ربيع سنة ١١١٣ وتبعه بعض أمراء السلاجقة حيث اتجهوا جميعا صوب طبرية للاشتراك مع طغتكين فى حصارها . وعندما استعصت طبرية على المسلمين اتجهوا الى تدمير الممتلكات الصليبية المجاورة حتى جبل الطور. ولم يلبث أن جمع الصليبيون قواهم بزعامة بلدوين الأول ملك بيت المقدس ، وعندئذ حلت بهم الهزيمة فى موقعة الصنبرة — الى

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٠٧ .

الجنوب الغربى من بحيرة طبرية — فبلغت خسائر الصليبيين ألفا ومائتين من المشاة وثلاثين من الفرسان ، ولم ينج الملك الصليبى نفسه الا بصعوبة بالغة .

وزاد موقف الصليبيين سوءا فى ذلك الدور أن الجيش الفاطمى فى عسقلان استغل فرصة انشغال الصليبيين بمحاربة المسلمين قرب طبرية ، وخرجت القوات الفاطمية فى محاولة جريئة تدمر وتنهب فى الأراضى الصليبية حتى قارب الفاطميون أسوار بيت المقدس ذاتها . ومن الواضح أنه لو كانت هناك عندئذ خطة شاملة توحد جهود القوى الاسلامية فى الشرق الأدنى ، لأمكن للمسلمين أن يقوموا بعمل حربى ضخم يهدد كيان الصليبيين ويجعلهم بين نارين ، ولكن الانقسام بين صفوف المسلمين ، والعداء بين الفاطميين والسلاجقة ، وبين الشيعة والسنة ، حال دائما دون ذلك .

ولم يلبث أن وصل الى عكا عدد كبير من الحجاج الغربيين، قدرتهم المراجع بستة عشر ألفا ، مما بدل الموقف بين المسلمين والصليبيين ، وجعل مودود وطغتكين ينصرفان الى دمشق ، حيث أذن مودود لرجال جيشه « فى العودة والاستراحة ، ثم الاجتماع فى الربيع لمعاودة الغزاة » . أما مودود نفسه فقد بقى ومعه بعض خواصه فى دمشق فى ضيافة طغتكين (سبتمبر ١١١٣) ، وذلك لحين استئناف الجهاد ضد الصليبيين .

ولم تمض بضعة أسابيع حتى حدث حادث جديد برهن على مدى انحلال أمراء المسلمين فى ذلك الوقت . ذلك أن مودود

— بطل حركة الجهاد فى ذلك الدور — قتل فى الجامع الأموى بدمشق بيد أحد الباطنية ، وذلك عند شروعه فى تأدية صلاة الجمعة . وقد اتهم المؤرخون — مثل ابن الأثير وابن القلانسى — طغتكين بالتآمر على ضيفه وتحريض ذلك الباطنى على قتله . ونحن لا نستبعد أن يكون وجود مودود فى دمشق قد أثار مخاوف طغتكين الذى خشى أن تكون حركة الجهاد ستارا ظاهريا يخفى وراءه سلطان السلاجقة رغبته فى بسط سيطرته على دمشق . وربما كان فى تعجل طغتكين فى قطع رقبة القاتل فى الحال واحراق جثته دليلا على رغبته فى طمس معالم الجريمة والتخلص من أداتها ، فضلا عن اظهار استنكاره لها [1] . ولم يلبث أن أحس طغتكين باتهام الرأى العام الاسلامى له ، فلم يجد حليفا يطمئن اليه سوى الصليبيين . وهكذا ثبت أن أمراء الشام فى ذلك الوقت الحرج لم يقدروا المصلحة العليا للأمة ؛ وأنهم رفضوا التضحية بمصالحهم الخاصة فى سبيل الصالح العام ، مما دفعهم الى محالفة العدو الدخيل ممثلا فى الصليبيين الغربيين.

وكان أن عهد السلطان محمد السلجوقى بحكم الموصل — بعد مقتل مودود — الى حاكم جديد هو أقسنقر البرسقى ، مع تكليفه — مثل سلفه — بمواصلة الجهاد ضد الصليبيين . وفى سنة ١١١٤ قام أقسنقر بهجوم على الرها ، وكان فى صحبته ابنه عماد الدين زنكى وبعض الأمراء المجاورين . وقد ظل

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨٧ ، ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٠٧ هـ .

أقسنقر يحاصر الرها شهرين كاملين ولكن الصليبيين قاوموه « وصبروا له » على حد تعبير ابن الأثير ، مما جعل أقسنقر ينصرف عن الرها ويوجه هجماته ضد المراكز الصليبية المحيطة بالرها وسروج وسميساط . على أن السلطان محمد السلجوقى لم يغفر لأقسنقر فشله أمام الرها ، فعزله عن أتابكية الموصل وأحل محله أحد مماليكه الأتراك — ويعرف باسم جيوش بك — ؛ فى حين عهد السلطان بقيادة الحرب ضد الصليبيين الى الأمير برسق صاحب همذان ، وهو أحد القادة المعروفين بمهارتهم وشجاعتهم . (شتاء سنة ١١١٥) .

ويبدو أن سلطنة السلاجقة فى أصفهان لم تستهدف من هذه الحملة الكبيرة محاربة الصليبيين فحسب ، وانما استهدفت أيضا بسط هيمنة السلطنة السلجوقية على كافة الامارات الاسلامية فى الشام والجزيرة ؛ حيث استطاع بعض حكام المسلمين — مثل طغتكين فى دمشق وبدر الدين لؤلؤ فى حلب والأراتقة فى ديار بكر — أن يستغلوا فرصة الفوضى التى عمت البلاد نتيجة للحرب بين المسلمين والصليبيين لقطع صلتهم بالسلطنة السلجوقية فى أصفهان . بل ان بعض أولئك الأمراء — مثل ايلغازى الأرتقى — لم يترددوا فى محاربة جيوش السلطان محمد ، فى حين أن البعض الآخر — مثل طغتكين — جرؤ على قتل مودود زعيم حركة الجهاد الاسلامى وقائد جيوش السلطان . لذلك كان طبيعيا أن يفكر السلطان السلجوقى فى اعداد حملة كبيرة بقيادة برسق سنة ١١١٥

لاخضاع ذلك النفر من الأمراء أولا ، ثم محاربة أنطاكية والرها وغيرهما من القوى الصليبية بعد ذلك .

وكان أن أحس ايلغازى فى ديار بكر وطغتكين فى دمشق بالخطر المشترك ، فاتفقا على محالفة الصليبيين ، وانضم اليهما بعد قليل بدر الدين لؤلؤ الخادم « المتولى لأمر حلب » . وهكذا انقسمت الجبهة الاسلامية ، مما أدى الى هزيمة برسق فى الموقعة التى دارت بينه وبين الصليبيين عند دانيث فى سبتمبر سنة ١١١٥[١] . ولم يلبث أن توفى برسق بعد بضعة أشهر متأثرا بعار الهزيمة ؛ فى حين يبدو أن هزيمة دانيث وضعت حدا لجهود سلاطين السلاجقة لاسترداد الشام .

ولا شك فى أن اضطراب القوى الاسلامية فى الشرق الأدنى على ذلك الوجه ، أتاح فرصة طيبة للصليبيين للتدخل فى شئونها وابتلاع الأراضى الاسلامية قطعة بعد أخرى . ولم يقتصر الأمر على أن مركزا كبيرا فى وسط بلاد الشام — مثل دمشق — أصبح تحت وصاية الصليبيين ، بل ان حلب هى الأخرى فى شمال الشام صارت تحت رحمتهم . وكانت أحوال حلب قد اختلت منذ وفاة ملكها رضوان سنة ١١١٣ ، ثم مقتل ابنه آلب آرسلان فى العام التالى وقيام بدر الدين لؤلؤ البابا بالوصاية على الامارة . وعندما أحس بدر الدين لؤلؤ بضعفه وعدم قدرته على الوقوف بمفرده وسط العواصف الداخلية والخارجية

(١) ابن العديم : زبدة الحلب (مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية ، ج ٣ ص ٦٠٩) .

المحيطة به ، حالف طغتكين أتابك دمشق ؛ وإن كانت هـذه المحالفة لم تنجه من القتل سنة ١١١٧ ، وعندئذ تولى يارقتاش — وهو أرمنى الأصل — الوصاية على حلب ؛ ثم خلفه فى تلك الوصاية ابن الملحى . وقد أدت سياسة هذين الأخيرين الى وقوع حلب تحت رحمة الصليبيين فى أنطاكية منذ سنة ١١١٨ . ولكن اذا كان حكام حلب قد فضلوا الوصاية الصليبية عن الخضوع لسيطرة « أحد من الشرق » على قول ابن العديم ، فان الحلبيين أنفسهم لم يرضوا عن ذلك الوضع ، فتغلب الشعور الدينى عليهم وسلموا مدينتهم للأمير التركمانى نجم الدين ايلغازى صاحب ماردين وديار بكر . وعندما استمر روجر الأنطاكى صاحب أنطاكية فى تهديد حلب ، خرج اليه الأمير ايلغازى على رأس جيش كبير من القوى الاسلامية المتحالفة ، واستطاع أن ينزل هزيمة كبرى بالصليبيين فى موقعة البلاط — قرب أرتاح — فى صيف سنة ١١١٩ . وقد قتل فى هذه الموقعة عدد كبير من الصليبيين بينهم روجر الأنطاكى نفسه ، حتى أطلق الصليبيون على السهل الذى دارت فيه الموقعة اسم « ساحة الدم »[١] .

وكان لذلك النصر رد فعل قوى عند المسلمين والصليبيين جميعا ، لأن موقعة البلاط فى حقيقة أمرها هى التى قررت مصير حلب ، فاما أن تبقى فى قبضة المسلمين ، واما أن يسلبها

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٥٠٤ — ٥٠٦ .

الصليبيون . لذلك جاءت فرحة المسلمين بذلك النصر عظيمة ، فنظم شعراؤهم القصائد فى مدح ايلغازى ، وأرسل اليه الخليفة المسترشد بالله العباسى الخلع « وشكره على ما يفعله من غـزو الفرنج » .

وزاد من حـرج موقف الصليبيين فى ذلك الدور انصراف طغتكين أتابك دمشق عنهم بعد أن رفض بلدوين الثـانى ملك بيت المقدس الثمن الباهظ الذى طلبه طغتكين لاستمرار الحلف بين الطرفين . وكان أن اتفق طغتكين مع الوزير الأفضل الفاطمى على القيام باغارات مشتركة ضد الصليبيين ، فهاجم طغتكين طبرية ثم اتجه الى عسقلان لمقابلة القـوات الفاطمية التى أرسـلها الوزير الأفضل . على أن الأمر لم يتعد عندئذ أن رابط كل من المسلمين والصليبيين تجاه الفريق الآخر نحو ثلاثة أشهر ، ثم عاد كل فريق من حيث أتى دون أن يحدث صدام بين الطرفين .

أما ايلغازى الأرتقى فقد اسـتمر يهدد الصليبيين بين حين وآخر ، فقام بمهاجمتهم سنة ١١١٩ بالاشتراك مع طغتكين ، كما هاجمهم سنة ١١٢٠ ثم سنة ١١٢١ . على أن ايلغازى لم يلبث أن توفى فى أواخر سـنة ١١٢٢ ، فجاء ذلك نذيرا بتفكك امـارة الأراتقة ، مما أثر تأثيرا سيئا فى قوة المسلمين وجهودهم فى محاربة الصليبيين . حقيقة أن حركة الجهاد الاسلامية استمرت فى ذلك الدور فى صورة أو أخرى ؛ من ذلك وقوع بلدوين الثـانى ملك بيت المقدس أسيرا فى قبضة الأراتقة سنة ١١٢٣ عند قيامه بمحاولة لانقاذ أمير الرها من الأسر ؛ وانتهاز الفاطميين فرصـة

أسر ملك بيت المقدس وارسالهم حملة برية يساعدها الأسطول في البحر لمهاجمة يافا .. ولكن هذه الجهود التي قام بها المسلمون عندئذ كانت فردية قللت من قيمتها الانقسامات الداخلية بين صفوف حكام المسلمين . ولم تغب هـذه الانقسامات عن بال الصليبيين ، فلعبوا دورهم بمهارة فى تفرقة صفوف المسلمين عن طريق ضرب العرب بالأتراك والشيعة بالسنة لاضعافهم جميعا .

* * *

انحلال القوى الاسلامية فى الشرق الأدنى :

والواقع أن أوضاع القوى الاسلامية ، فى تلك الفترة كانت لا تبشر بالخير ، وكانت جميع الدلائل تشير الى أنه لابد من ظهور شخصية قوية فى المحيط الاسلامى توحد قوى المسـلمين فى الشرق الأدنى وتوجه طاقتهم ضد الخطر الصليبى الخارجى الذى أخذ — كالأخطبوط — ينتشر تدريجيا من شمال العراق الى دلتا النيل . فسلطنة السلاجقة أخذت فى الاضمحلال ، وبخاصة بعد وفاة السلطان محمد سنة ١١١٨ ، اذ خلفه ابنه محمود الذى كان فى الرابعة عشرة من عمره ، فترك شئون الحكم فى أيدى وزرائه ، فى حين انصرف هو الى اللهو ، مما مكن عمه سنجار شرف الدين من توجيه سياسة الدولة . وفى ذلك الدور بالذات أخذ يبدو بوضوح ضعف السلطنة السلجوقية وتدهور أحوالها ، وانعكست صورة ذلك الضعف فى العلاقة بين المسلمين والقـوى المسيحية فى الشرق الأدنى . ذلك أن سنجار وجه كل جهوده

نحو الشرق والأجزاء الشرقية من الامبراطورية ، ولم يعبأ بالشام وما كان يجرى فيه من أحداث بين المسلمين والصليبيين . كذلك فعل الفرع السلجوقى فى الأناضول ؛ اذ شغلت سلطنة الروم بالمنازعات بين أمراء السطنة بعضهم وبعض ، أو بينهم وبين بنى دانشمند حينا والبيزنطيين أحيانا ، وتركوا اخوانهم فى الشام يواجهون الصليبيين وحدهم .

وكانت الخلافة العباسية فى ذلك الوقت مجرد صورة شكلية ، دون أن يكون للخليفة العباسى أى ظل من السلطان والنفوذ . وقد انتهز بنو مزيد — وهم قبيلة عربية كانت تنتشر فى العراق غربى نهر دجلة فى المنطقة من البصرة حتى هيت — فرصة ضعف الخلافة العباسية من جهة وضعف سلطنة السلاجقة من جهة أخرى واستولت على المنطقة الواقعة حول الحلة غربى الفرات . ولم يلبث صدقه بن مزيد (١٠٨٦ — ١١٠٨) أن « عظم شأنه وعلا قدره وامتنع جاهه واتسع ، واستجار به صغار الناس وكبارهم ، فأجارهم » . وكان أن اتخذ صدقه لنفسه لقب « سيف الدولة » وأخذ يعمل لانشاء دولة لنفسه فى العراق ، مستقلة عن نفوذ السلاجقة والخلافة العباسية جميعا ، مما جعل المؤرخ ابن الأثير يطلق عليه لقب « أمير العرب » (١) . ويلاحظ أن بنى مزيد كانوا جميعا من الشيعة ، مما أثار حنق السلاجقة — وهم سنيون — عليهم . واذا كانت جيوش السلطان محمد قد

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٠١ هـ .

نجحت فى انزال الهزيمة بصدقه وقتله سنة ١١٠٨ ، فان ابنه دبيس بن صدقه لم يلبث أن اشتد عوده حتى جرؤ على مهاجمة بغداد نفسها سنة ١١٢٠ ؛ وعندئذ لم يحجم عن نهب المدينة وسلبها « وأتى بها من النهب والقتل والفساد مالم يجر مثله » . بل ان دبيس نصب مخيمه فى مواجهة قصر الخليفة العباسى المسترشد بالله ، الذى لم يجد وسيلة لدفع ذلك الخطر سوى الاستنجاد بالسلطان محمود السلجوقى . وهكذا ظل دبيس يهدد بغداد من مركزه — الحلة — حتى أمر السلطان محمد أحد رجاله — وهو آقسنقر البرسقى أتابك الموصل — بمحاربته ، ولكن الهزيمة حلت بأتابك الموصل على الضفة الشرقية للفرات سنة ١١٢٢ . وقد أدى انتصار دبيس على البرسقى الى ازدياد نفوذه ، مما جعل الخليفة العباسى يستغيث بالسلاجقة من جديد . وأخيرا حلت الهزيمة بالأمير دبيس عند المباركة — بين بغداد والكوفة — فى ربيع سنة ١١٢٣ ، فنقل دبيس نشاطه الى البصرة ثم الى قلعة جعبر فى شمال الشام ، حيث « التحق بالفرنج وحضر معهم حصار حلب وأطمعهم فى أخذها » .

ولعل فى قصة دبيس بن صدقة ما يكفى لايضاح الوضع المؤسف الذى انحدرت اليه القوى الاسلامية فى الشرق الأدنى ، فى الوقت الذى كان الصليبيون يمكنون لأنفسهم فى بلاد الشام وشمال العراق . وكان المفروض فى الخلافة العباسية عندئذ أن تتزعم القوى الاسلامية لدفع خطر الصليبيين عن البلاد الاسلامية ، ولكن ظهر أن هذه الخلافة كانت أضعف من أن تحمى

نفسها من المسلمين أنفسهم ! ولما أراد الخليفة العباسى المسترشد (١١١٨ — ١١٣٥) أن يكون له كيان سياسى مستقل عن السلطنة السلجوقية ، وطالب بانشاء جيش للخلافة خاص بها ، عارضه السلطان محمود السلجوقى ورأى أن يوقف الخليفة عند حده ، فزحف على رأس جيش كبير الى بغداد . ولم يسع الخليفة عندئذ سوى أن يخرج ومعه أفراد أسرته الى الضفة الغربية لنهر دجلة ، ومن ورائهم أهل بغداد يبكون « بكاء عظيما لم يشاهد مثله ! » . وقد استطاع عماد الدين زنكى — حاكم الموصل من قبل السلطان محمود السلجوقى — أن ينزل الهزيمة بجيوش الخليفة عند واسط . ثم دخلت جماعة من عسكر السلطان دار الخلافة ونهبوها واعتدوا على الأهالى ، فى حين اضطر الخليفة الى الخضوع فى نهاية الأمر سنة ١١٢٧ « واعتذر السلطان مما جرى وعفا عن أهل بغداد جميعهم » [١] .

واذا كان هذا هو وضع المسلمين على الجبهة الشرقية للصليبيين ، فان الخلافة الفاطمية — على الجبهة الغربية للصليبيين — لم تكن أحسن حالا . ذلك أن مقتل الوزير الأفضل فى ديسمبر سنة ١١٢١ جاء بمثابة بداية النهاية فى تاريخ الخلافة الفاطمية . ولم تظهر بعد ذلك فى الدولة شخصية قوية تستطيع أن تقوم بما قام به بدر الجمالى أو الأفضل من رعاية سياسة الدولة وتدبير أمورها . وهكذا ضمن الصليبيون بالشام قسطا من الاستقرار فى أوائل القرن الثانى عشر أمام تدهور نفوذ

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ٢٩–٣٠.

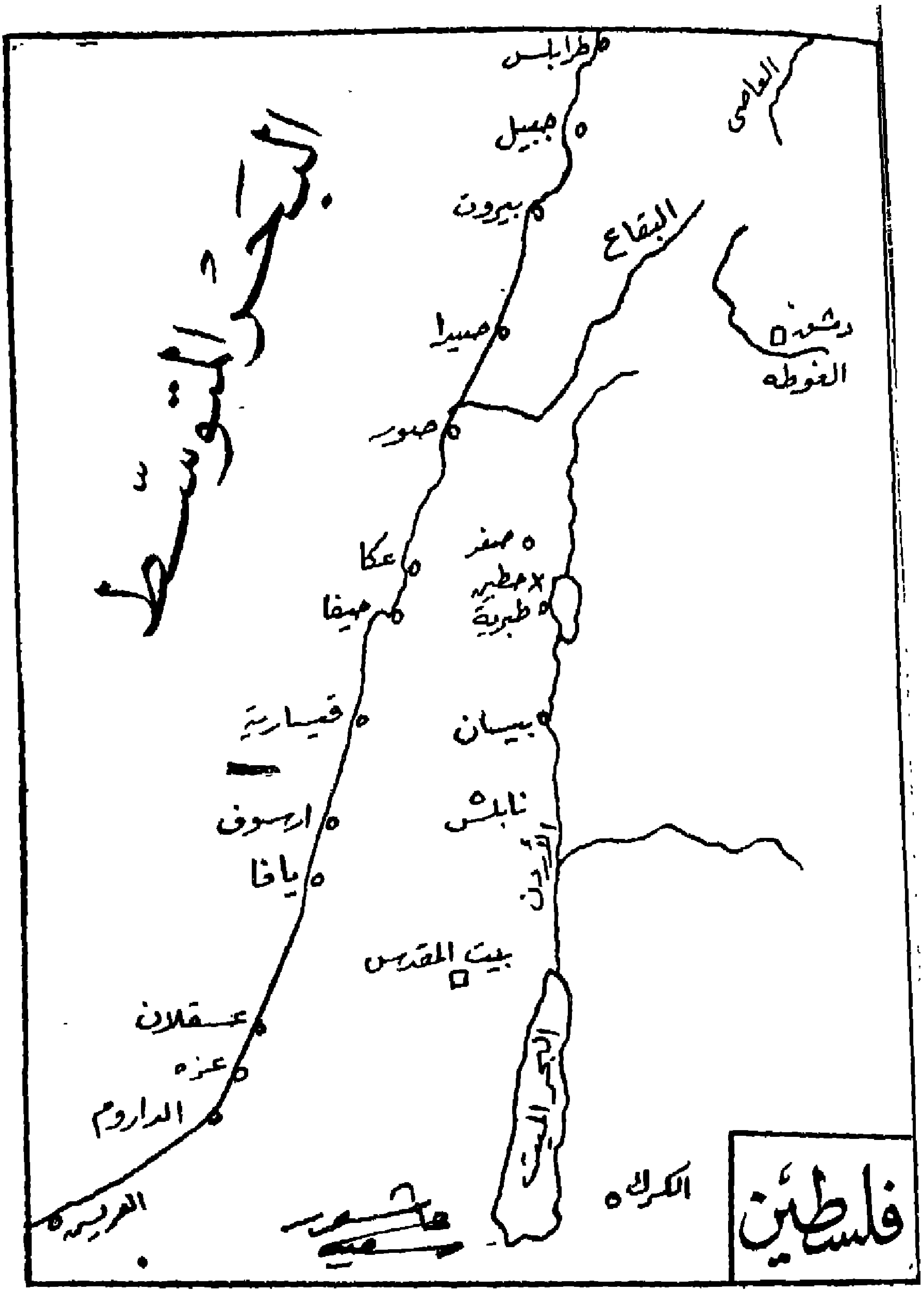

البحر المتوسط
طرابلس
جبيل
بيروت
صيدا
صور
عكا
حيفا
قيسارية
ارسوف
يافا
عسقلان
غزه
الداروم
العريش
العاصي
البقاع
دمشق
الغوطه
صفد
حطين
طبرية
بيسان
نابلس
الاردن
بيت المقدس
البحر الميت
الكرك
فلسطين

السلاجقة والخلافة العباسية فى الشرق من ناحية ، وانحلال الخلافة الفاطمية على حدودهم الغربية من ناحية أخرى .

* * *

عماد الدين زنكى :

وفى وسط ذلك الظلام الدامس الذى اكتنف المشرق العربى ؛ اذا ببصيص من النور يلوح بظهور عماد الدين زنكى على المسرح . وكان زنكى هذا ابن قسيم الدولة آقسنقر الحاجب ، وهو قائد من أبرز قادة السلطان ملكشاه السلجوقى . وقد كافأ ملكشاه قائده باعطائه حكم حلب سنة ١٠٩٢ ، ولكن آقسنقر قتل سنة ١٠٩٤ ، فنشأ ابنه زنكى نشأة هادئة بعيدة عن النفوذ والسلطان ، ودخل فى خدمة أتابكة الموصل — جاولى ثم البرسقى — حتى وصل الى حكم البصرة ؛ وعندئذ أبرز مهارة فائقة فى الأعمال التى عهد اليه بها السلطان محمود السلجوقى ، وبخاصة اخضاع الخليفة المسترشد سنة ١١٢٦ . وهكذا لفت زنكى الأنظار اليه بفضل شجاعته فتدرج فى المناصب ، حتى اختاره السلطان أتابكا على الموصل سنة ١١٢٧ « لما يعلمه من كفايته لما يليه » . وبعد أن نظم زنكى أمور الموصل ، استولى على نصيبين من الأراتقة ، ثم اتجه الى حران التى كانت دائما شبه محاصرة بالقوات الصليبية ، فاستولى عليها وفرح أهلها بذلك فرحا عظيما لأنهم وجدوا فى زنكى الرجل القادر على حمايتهم [١] . ويبدو أن زنكى كان يفكر عندئذ فى

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ١ ص ٣٤ — ٣٦ .

القيام بحركة جهاد كبرى ضد الصليبيين ، ولكنه أدرك ضرورة العمل على توحيد القوى الاسلامية فى العراق والشام قبل القيام بتلك الحركة . وأولى تلك القوى كانت حلب التى أخذ زنكى يتطلع الى ضمها فى يده .

وكانت حلب قد غرقت فى بحر عميق من الفوضى بعد وفاة الأتابك عز الدين مسعود بن البرسقى ، فتنازعت السيطرة عليها قوى السلاجقة والأراتقة ، فى الوقت الذى طمع كل من جوسلين الثانى أمير الرها وبوهيموند الثانى أمير أنطاكية فى الاستيلاء عليها . ولكن زنكى أفسد على جميع أولئك الطامعين خططهم عندما استولى على حلب فى صيف سنة ١١٢٨ ، وعندئذ استقبله الحلبيون استقبالا رائعا « وأظهروا من الفرح والسرور ما لا يعلمه الا الله تعالى » .

على أن زنكى لم يستطع أن يمضى بعيدا فى طريقه دون أن يصادف معارضة من جانب الأمراء المسلمين المحليين . فالأراتقة عز عليهم أن يستأثر زنكى بحكم حلب وأن يزداد نفوذه فى شمال الشام والعراق بصورة هددت مصالحهم ، فحاربوه ولكن الهزيمة حلت بهم . ومن جهة أخرى فان تطور الأحداث فى فارس والعراق وتدخل زنكى فيها صرفه عن ميدان الشام . ذلك أن دولة السلاجقة تعرضت لانقسام خطير عقب وفاة السلطان محمود سنة ١١٣١ . وفى النزاع الذى نشب بين اخوة السلطان الراحل ، اختار الخليفة العباسى المسترشد أن يؤيد سجلوق شاه ، فى حين خف زنكى

أتابك الموصل لمساعدة مسعود . وعندما خف زنكى لمساعدة مسعود ضد الخليفة وسجلوق شاه ، حلت الهزيمة بزنكى ، فتشجع الخليفة وزحف على الموصل . وفى الوقت الذى كانت جيوش الخليفة تحاصر الموصل استغل اسماعيل بن بورى أتابك دمشق الفرصة واستولى على حماه سنة ١١٣٣ ، كما هاجم الصليبيون حلب فى نفس الوقت .

ولم يلبث أن أخذ مجرى الأمور يتحول فى صالح زنكى بعد قليل ، ففشل الخليفة العباسى فى الاستيلاء على الموصل وارتد الى بغداد بعد أن ضاق عسكره بسبب قلة الأقوات . وبعد مقتل الخليفة المسترشد العباسى سنة ١١٣٥ ، لجأ الخلفاء العباسيون الى استرضاء زنكى والاستعانة به . وهكذا تفرغ زنكى لمنازلة خصومه من أمراء المسلمين حينا ومحاربة القوى الصليبية والبيزنطية أحيانا ، حتى استطاع أن يتوج أعماله بالاستيلاء على الرهاسنة سنة ١١٤٤ . ولا شك فى أن استيلاء زنكى على الرها جاء ضربة كبرى بالنسبة لمستقبل الكيان الصليبى بالشرق الأدنى ، لا سيما وأن الرها كانت أولى الامارات التى أسسها الصليبيون فى الشرق ، فكان استيلاء المسلمين عليها ايذانا ببداية النهاية بالنسبة للبناء الضخم الذى أقامه الصليبيون فى الشرق .

وفى الوقت الذى أخذ زنكى يخضع المدن الصليبية ويبسط سيطرته على بعض الامارات الاسلامية فى الجزيرة ، اذا بأحد خصيانه ينقض عليه ليقتله فجأة سنة ١١٤٦ ، وبذلك فقد المسلمون

بطلا كبيرا من أبطال الجهاد ، حتى لقد صاحوا فى القاتل « لقد قتلت المسلمين كلهم بقتله » [1] .

* * *

نور الدين محمود والجبهة الاسلامية المتحدة :

ولم يصادف أبناء زنكى صعوبة كبيرة فى الاحتفاظ بملك أبيهم ، فنجح نور الدين محمود بن زنكى فى تثبيت قدمه فى حلب ، فى حين تمكن أخـوه سيف الدين غازى من الاحتفاظ لنفسه بالموصل ؛ وكان الحد الفاصل بين أملاك الأخوين نهر الخابور . أما الابن الثالث لزنكى وهو نصير الدين فقد حكم حران تابعا لأخيه نور الدين ، فى حين كان الابن الرابع قطب الدين صغيرا فلبث فى رعاية أخيه غازى بالموصل .

ويهمنا من هؤلاء الأبناء نور الدين محمود الذى أظهر من الكفاية والعقل وبعد النظر والحرص على مصالح المسلمين ، ما جعل منه بطلا حقيقيا من أبطال تلك الحقبة ، رغم أنه عندما تولى حكم حلب بعد وفاة أبيه كان دون الثلاثين من عمره . وساعد على ابراز أهمية نور الدين ومكانته فى قلوب معاصريه أنه لم يتصف بما اتصف به أبوه زنكى أحيانا من قسوة وغلظة فى بعض المواقف ؛ كما أن نور الدين امتاز بميزة لها أهميتها هى قدرته على اختيار الرجال ، مما هيأ له بطانة من الأوفياء أخلصوا

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب (مجموعة مؤرخى الحـــروب الصليبية ج ٣ ص ٢٦٧)

له النصح وتعاونوا معه فى صدق وايمان . حقيقة ان نور الدين محمود كان أقل من أبيه فى موارده المالية ، لأنه لم ينعم بحكم الموصل والجزيرة مثل أبيه زنكى ؛ ولكن نور الدين محمود الذى حرم من أموال الجـزيرة ومواردها استراح أيضـا من مشاكلها ومتاعبها ، وترك أخاه سيف الدين غازى ينعم بموارد الموصل وفى الوقت نفسه يقاسى كثيرا من عديد المشاكل من جانب الأراتقة والخلافة العباسية فضلا عن سلطنة السلاجقة .

وكان على نور الدين محمـود — بوصفه الابن البكر لعماد الدين زنكى — أن يتم رسالة أبيه فى جهاد الصليبيين . هذا فضلا عن أن موقع امارة نور الدين فى حلب جعله أشـد احساسا بالخطر الصليبى وأكثر تعرضا لهجمات الصليبيين فى شمال الشام . لذلك اسـتهل نور الدين حكمه بالقيام بهجمات مباشرة ضد امارة أنطاكية ، فاستولى على عدة قلاع فى شمال الشام . وفى سنة ١١٤٧ وصلت الحملة الصليبية الثانية بزعامة لويس السابع الى الشام ، فاستغل نور الدين فشل تلك الحملة وهاجم أمير أنطاكية الصليبى وأنزل به الهزيمة سنة ١١٤٩ (١) . وفى الموقعة التى دارت بين نور الدين وأمير أنطاكية فى نفس العام قرب انب ، أحاطت قوات نور الدين احاطة تامة بالصليبيين الذين تعرضوا للابادة الشاملة ، وكان من جملة القتلى ريموند أمير أنطاكية نفسه ورينو صاحب كيسوم ومرعش ، فضلا عن

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٤٣ هـ .

على بن وفا زعيم الباطنية الحشيشية الذى كان محالفا للصليبيين ومرافقا لجيشهم . وكان فرح المسلمين بذلك النصر عظيما فتغنى شعراؤهم بشجاعة نور الدين محمود ، فى حين يروى المؤرخ الصليبى وليم الصورى أن نور الدين أرسل رأس ريموند وذراعه الأيمن فى صندوق من الفضة الى الخليفة العباسى ببغداد .

على أن حروب نور الدين محمود ضد الصليبيين جعلته يؤمن بحقيقة هامة هى أنه لا أمل فى زحزحة أولئك الدخلاء عن بلاد الشام مالم تنتظم القوى الاسلامية المبعثرة بين الفرات والنيل فى هيئة وحدة متكاملة أو جبهة قوية تقف كالبنيان المرصوص فى وجه الصليبيين . وكانت العقبة الكؤود فى سبيل هذه الوحدة هى مدينة دمشق التى لم يكتف حكامها بصم آذانهم عن الدعوة لوحدة الصف ، وانما تآمروا جهرا ضد القضية العربية الكبرى ولم يخجلوا من محالفة الصليبيين فى بيت المقدس ضد نور الدين محمود . وكان صاحب السلطة الفعلية فى دمشق هو معين الدين أنر الذى استغل صغر سن الأتابك الشرعى مجير الدين أبق ، وأخذ يوجه سياسة تلك الامارة ذات الموقع الخطير بالنسبة للمسلمين وللصليبيين جميعا فى بلاد الشام . لذلك حاول نور الدين محمود أن يكتسب ود أنر عن طريق السياسة فتزوج من ابنته وبذلك استقرت العلاقة بين الطرفين « على أجمل صفة » ، على قول ابن القلانسى [1] .

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٨ — ٢٨٩ .

على أنه يبدو أن أنر ظل يتخوف دائما من أطماع نور الدين محمود ، فرأى فى محالفة الصليبيين ضمانا كافيا للاحتفاظ بسلطانه . حقيقة أن العلاقات بين أنر والصليبيين تعرضت لنوع من الفتور والضعف عندما أغار الصليبيون على ممتلكات دمشق سنة ١١٤٧ ؛ ثم عندما انحرفت الحملة الصليبية الثانية عن محاربة نور الدين واتجهت بدلا من ذلك الى محاولة فاشلة للاستيلاء على دمشق ذاتها فى صيف سنة ١١٤٨ . ولكن حكام دمشق أثبتوا فى ذلك الدور أنهم على استعداد لأن يغفروا للصليبيين ويتناسوا لهم أخطاءهم فى سبيل الابقاء عليهم حلفاء يساعدونهم فى مقاومة نور الدين محمود . ولم تؤد وفاة معين الدين أنر سنة ١١٤٩ الى أى تغيير فى تلك السياسة التى انتهجها حكام دمشق ؛ اذ أن مجير الدين أبق الذى انفرد بحكم دمشق بعد وفاة أنر كان ضعيفا قاسيا ضيق الأفق فارتمى بين أحضان الصليبيين يطلب حمايتهم ضد اخوانه دعاة الوحدة من المسلمين ، فازدادت أطماع الصليبيين « حتى طمعوا فى دمشق واستضعفوا مجير الدين » . وهكذا انحدرت مكانة دمشق نتيجة لسياسة حكامها الخونة الذين رفضوا أن يضحوا بمصالحهم الشخصية فى سبيل الصالح العام لأمتهم ، وأعرضوا عن دعوة الوحدة ضاربين عرض الحائط بنداء الضمير ، فصار الدماشقة يدفعون ضريبة سنوية للصليبيين مقابل حمايتهم ، وصار رسل

الصليبيين يدخلون دمشق فعلا لجمع الضريبة المفروضة على أهلها من المسلمين ! (١) .

ولكن اذا كانت دمشق قد وقعت عندئذ تحت حماية الصليبيين ؛ واذا كان الخضوع لتلك الحماية أفضل — فى نظر مجير الدين أبق وأعوانه من الانفصاليين ذوى المطامع الشخصية — من الاتحاد مع نور الدين محمود ؛ فان سائر أهل دمشق — وهم الذين عرفوا دائما بنخوتهم وصدق عقيدتهم — لم يرضوا مطلقا عن ذلك الوضع الشائن . ولم يلبث خضوع مجير الدين أبق للصليبيين أن أساء الى شعور أهل دمشق وكرامتهم اساءة بالغة ، حتى فقدوا كل احترام للبيت البورى « وقلت حرمة مجير الدين عند أهل دمشق » . وكان أن استغل نور الدين محمود ذلك الشعور ودبر أموره مع فريق من أهل دمشق ، حتى تمكن من الاستيلاء على دمشق فعلا سنة ١١٥٤ ؛ وبذلك « صفت الممالك بالشام لنور الدين » على قول ابن واصل ، « وألقى الاسلام بدمشق جرانه وثبت أوتاده » ؛ على قول ابن الأثير اشارة منه الى أن دمشق فى عهد البيت البورى كانت من الناحية الواقعية تحت سيطرة الصليبيين .

ومن الواضح أن استيلاء نور الدين على دمشق كان نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الحروب الصليبية ؛ نظرا لما ترتب على

---

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر ؛ ص ١٠٦
ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ١ ص ١٢٦ .

هذه الخطـوة من وحـدة بلاد الشام الاسلامية تحت زعـامة نور الدين . فمن الرها شمالا حتى حوران جنوبا امتدت دولة اسلامية واحدة مركزها مدينة دمشق على نهر بردى . وبعبارة أخرى فان استيلاء نور الدين على دمشق حقق نوعا من التوازن بين المسـلمين والصليبيين ببلاد الشام ؛ فاذا كان الصليبيون قد سيطروا على ساحل الشام بأكمله من اسكندرونة حتى غـزة ، فان استيلاء نور الدين على دمشق جعل داخلية بلاد الشام من الفرات حتى بردى فى قبضة قوة اسلامية واحدة لا انقسام فى صفوفها ولا فرقة بين أعضائها . ثم انه لا يخفى علينا أن استيلاء نور الدين على دمشق جاء خطوة كبرى نحو تحقيق الجبهـة الاسلامية المتحدة فى الشرق الأدنى ، وهى الجبهة التى امتدت من الفـرات الى النيل والتى كان قيامها ضربة قاصمة ضـد الصليبيين . فحتى ذلك الوقت كان المسلمون فى الشرق الأدنى منقسمين الى جبهتين منفصلتين جبهة فى الجنوب — هى مصر — وجبهة فى شمال الشام والعراق . وقد استطاع الصليبيون بسبب موقف حكام دمشق الانفصاليين توجيه الضربات لكل جبهة من هاتين الجبهتين على انفراد دون أن تتمكن الجبهة الأخـرى من التدخل لنجدة زميلتها . ومصداق ذلك ما يقوله النويرى من أن نور الدين لم يستطع نجدة عسقلان عندما هاجمها الصليبيون سـنة ١١٥٣ « لأن دمشق تحول بينه وبينهم » . كذلك ذكر ابن واصل ما نصه « وكان نور الدين لما نازل العدو عسقلان

يتأسف ، اذ لا يمكنه الوصول اليهم ودفعهم عنها ، بسبب توسط دمشق بينه وبينهم » [1] .

وأخيرا ، فان استيلاء نور الدين محمود على دمشق ، أغلق الطريق الشمالى فى وجه مملكة بيت المقدس الصليبية ، ولم يبق أمام هذه المملكة — اذا أرادت أن تتوسع — سوى طريق الجنوب ، حيث كانت الدولة الفاطمية تعانى آلام الموت البطىء .

---

(١) النويرى : نهاية الارب ج ٢٥ ورقة ٨٥ (مخطوط) .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٢٦ .

الفصل الثانى

الطريق إلى مصر

الصليبيون ومصر :

كان الاتجاه الطبيعى لتوسع الصليبيين فى الربع الأول من القرن الثانى عشر للميلاد هو الاتجاه الشمالى الشرقى ، حيث لم توجد قوة اسلامية كبيرة عند أطراف الفرات تحول دون ذلك التوسع . ولكن استفحال قوة الزنكيين فى شمال العراق والشام جعل حركة التوسع الصليبى تتخذ منذ منتصف ذلك القرن اتجاها آخر ، هو الاتجاه الجنوبى الغربى على حساب مصر والفاطميين . على أن غزو مصر — وهى السياسة التى اتخذت طابعا عمليا واسع النطاق على يد عمورى الأول فيما بعد — كان لابد له من التمهيد بالاستيلاء على عسقلان ، آخر قاعدة بقيت للفاطميين فى فلسطين . وهذا ما قام به بلدوين الثالث ملك بيت المقدس .

والواقع أن الدولة الفاطمية كانت تحتضر فعلا عند منتصف القرن الثانى عشر ، بعد أن انتزع الوزراء كل ما للخليفة الفاطمى من سلطان . وعندما يئس الخلفاء الفاطميون من وزرائهم ، عين الخليفة الفاطمى الحافظ (١١٣١ — ١١٤٩) ابنه وزيرا له ،

ولكن الابن تآمر هو الآخر على أبيه « واستبد بالأمر دونه وقتل كثيرا من أمراء دولته وصادر كثيرا » ، مما جعل الأب يدس السم لابنه ليتخلص منه (سنة ١١٣٥) [1] . ولم يلبث أن توفى الخليفة الحافظ سنة ١١٤٩ ليخلفه ابنه الظافر (١١٤٩ — ١١٥٤) الذى استبد بالنفوذ فى عصره الوزير العادل بن السلار ، حتى قتل ذلك الوزير سنة ١١٥٣ . وهكذا ظلت الدولة الفاطمية تعيش أيامها الأخيرة فى جو مشبع بالمؤامرات لا يتورع الأب فيه أن يقتل ابنه ، وصار الخلفاء « اسم لا معنى » على قول المؤرخ ابن الأثير .

وكان أن ساعدت هذه العوامل بلدوين الثالث ملك بيت المقدس فى الاستيلاء على عسقلان ، فشرع فى حصارها فى أوائل سنة ١١٥٣ ، منتهزا فرصة الاضطرابات الداخلية فى مصر « واشتغالهم (الفاطميون) عن عسقلان » . وقد استمر حصار الصليبيين لعسقلان بضعة أشهر ، حاولت الحكومة الفاطمية خلالها أن تمد أهل عسقلان بالمعونة عن طريق البحر ، ولكن ذلك كله لم يحل دون دخول الصليبيين المدينة فى أغسطس سنة ١١٥٣ ، وعندئذ حولوا جامعها الكبير الى كنيسة تحمل اسم القديس بولس .

ومن الواضح أن استيلاء الصليبيين على عسقلان كان خطوة لمحاولة غزو مصر . واذا كان بلدوين الثالث قد مات قبل أن

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ؛ ج ٥ ص ٢٤٤ — ٢٤٥ .

يحقق ذلك الحلم ، فان أخاه وخليفته عمورى الأول الذى تولى عرش مملكة بيت المقدس سنة ١١٦٢ ، قرر منذ بداية حكمه أن يضع يده على مصر . وكانت هناك اتصالات تمت بين الفاطميين ونور الدين محمود بقصد انقاذ عسقلان عندما شرع الصليبيون فى الاستعداد لمحاصرتها ؛ الأمر الذى أثار مخاوف الصليبيين لأنه اذا امتد نفوذ نور الدين محمـــود فى صورة أو أخرى الى مصر فمعنى ذلك وقوع مملكة بيت المقدس الصليبية بين شقى الرحى .

وشجع الملك عمورى الأول على تنفيذ مشروعه ، استمرار تدهور أوضاع الدولة الفاطمية فى مصر . ذلك أن الخليفة الظافر الفاطمى مات مقتولا ســنة ١١٥٤ بسبب شـــذوذه الخلقى ، فاستبد بالسلطة الوزير طلائع بن رزيك طوال ســبع سنوات (١١٥٤ — ١١٦١) . وعنـــدما توفى الخليفـــة الفـــائز — ابن الظافر — وهو فى الحادية عشرة من عمره سنة ١١٦٠ ، أقام ابن رزيك فى الخلافة العاضد الذى كان « مراهقا قارب البلوغ » ، فزوجه الوزير طلائع ابنته مما مكنه من احكام سيطرته على الخليفة (١) . وهكذا استمر طلائع بن رزيك يلهو بالخلفاء الصغار الذين صاروا أداة طيعة فى يده . ويتضح ذلك من العبارة التى قالها عندما هلل أهل القاهرة للخليفة الجديد ، فتعجب منهم طلائع وقال « كأنى بهؤلاء الجهلة وهم يقولون ما مات الأول حتى استخلف هـــذا ، وما علموا أننى كنت من ساعة أستعرضـــهم

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٤٩ هـ .

استعراض الغنم !! » . وأخيرا أحس الخليفة العاضد والأمراء بثقل ذلك الكابوس ، فدبروا مؤامرة لقتل ابن رزيك وتمت المؤامرة بنجاح فى سبتمبر سنة ١١٦١ .

وقد خلف ابن رزيك فى الوزارة ابنه العادل الذى لقب بمجد الاسلام ، ولكنه لم يظل فى الوزارة سوى خمسة أشهر ، قتله بعدها شاور حاكم الصعيد ، وتولى بدله فى الوزارة فى يناير سنة ١١٦٣ . على أن شاور « عامل العاضد بأفعال قبيحة ، وأساء السيرة فى الرعية ، وأخذ أمر مصر فى وزارته فى ادبار » . ولذلك خرج عليه أبو الأشبال ضرغام بن عامر الذى استطاع أن ينتصر على شاور ويطرده من مصر سنة ١١٦٣ . ولم يلبث ضرغام أن بغى بدوره وارتكب كثيرا من المظالم وأعمال الاضطهاد « وقتل كثيرا من أمـراء المصريين لتخلو له البلاد من منازع » ؛ فعم الخوف والاستياء جميع الناس فى مصر ، وكان ذلك فى الوقت الذى أخذ عمورى الأول ملك بيت المقدس يفكر فى غزو مصر .

وقد ذكر بعض المؤرخين الصليبيين — مثل وليم الصورى وميخائيل السريانى — أن بلدوين الثالث ملك بيت المقدس كان قد هدد بغزو مصر سنة ١١٦٠ منتهزا فرصة الفوضى التى عمتها عقب مقتل الخليفة الفائز ، ولكن الحكومة الفاطمية استطاعت أن تثنيه عن عزمه مقابل تعهدها بدفع جزية سنوية مقدارها مائة وستون ألف دينار للصليبيين . وقد احتج الملك عمورى الأول بعدم وفاء الفاطميين بتعهدهم وغزا الدلتا سنة ١١٦٣ حتى وصل

الى بلبيس وحاصرها . ولكن ضرغام استغل فرصة فيضان النيل وامتلاء الترع والأراضى بالمياه ليجبر عمورى على الانسحاب والعودة الى فلسطين .

ومع أن حملة عمورى الأول على مصر قد فشلت ، الا أنها كانت ذات فائدة كبيرة له وللصليبيين . ذلك أنها أطلعتهم على مدى ضعف مصر وعظم ثروتها وسهولة الاستيلاء عليها ، مما شجع الملك عمورى على القيام بغزوة كبرى تمكنه من وضع يده على مصر . ومن ناحية أخرى فان جرأة عمورى الأول فى مهاجمة مصر أثارت مخاوف نور الدين محمود الذى أسرع بالقيام بعدة هجمات على الصليبيين بالشام ليجبر عمورى على الانسحاب من مصر . وهكذا بدت مصر فى أواخر الدولة الفاطمية فى صورة الفريسة السهلة ، وصار على نور الدين محمود أن يدخل فى سباق سريع مع الصليبيين حول الفوز بمصر ، وعلى نتيجة هذا السباق أصبح يتوقف مصير الصليبيين ومستقبلهم فى بلاد الشام .

وفى تلك. الأثناء كان شاور قد لجأ الى بلاط نور الدين محمود فى الشام ، وأخذ يستنجد به ضد خصمه ضرغام ؛ « وأطمعه فى الديار المصرية ، وقال له : أكون نائبك بها ، وأقنع بما تعين لى من الضياع والباقى لك ! » . كذلك تعهد شاور لنور الدين — اذا ساعده الأخير فى العودة الى الوزارة بمصر — أن يدفع له ثلث دخل البلاد « ويتصرف على أمره ونهيه

واختياره » [1] . ويبدو أن نور الدين محمـــود تردد كثيرا فى المغامرة بارسال حملة الى مصر ، خوفا من أن يتورط فى ذلك المشروع وهو لا يزال أمام أعداء أقوياء فى بلاد الشام . ولكن تخوف نور الدين من استيلاء الصليبيين على مصر ، وتقديره مدى أهمية مصر فى بناء الجبهة الاسلامية المتحدة ، جعله يسرع بالتفكير جـــديا فى الاقدام على تلك الخطـــوة . وأخيرا استخار نور الدين القرآن وأنفذ حملته الأولى الى مصر سنة ١١٦٤ . أما قائد تلك الحملة فكان أحد رجال نور الدين المقربين واسمه أسد الدين شيركوه ؛ وصحب شيركوه فى حملته ابن أخ له فى السابعة والعشرين من عمره ، اسمه صلاح الدين بن أيوب .

* * *

ظهور صلاح الدين :

وقد اختلفت المصادر فى تحديد أصل شيركوه هذا وأخيه أيوب والد صلاح الدين ؛ فذكر ابن الأثير أن أصلهم من الأكراد وأنهم فخذ من الهذبانية ، فى حين أنكر جماعة من ملوك بنى أيوب نسبتهم الى الأكراد وقالوا « انما نحن عرب ، نزلنا عند الأكراد وتزوجنا منهم » . وبعض من قالوا بهذا الأصـــل العربى نسبوا الأيوبيين الى بنى أمية . ويبدو من دراســـة موطن الأيوبيين الأصلى ونشأتهم وسيرتهم بعد ذلك أنهم أكراد الجنس ، وأن نسبتهم الى جد عربى ليست الا مسألة طارئة جدت بعد قيام

---

(١) أبو شامه : كتاب الروضتين ؛ ج ١ ص ١٣٠

دولتهم واقامة ملكهم . ويؤيد هذا الرأى ما يرويه ابن خلكان عن شيخه وأستاذه بهاء الدين بن شداد — كاتب سيرة صلاح الدين — اذ ذكر أنه سمع شيخه بهاء الدين يحكى عن السلطان صلاح الدين أنه عندما سمع هذا النسب العربى أنكره ، وقال « ليس لهذا أصل أصلا » . أما المقريزى فيعلق على هذا النسب العربى بقوله « هذه أقوال الفقهاء لهم ممن أراد الحظ لديهم لما صار الملك اليهم » (١) . ومهما يكن من أمر ، فاننا لسنا بحاجة الى تكرار ما سبق أن ذكرناه فى مقدمة كتابنا عن الظاهر بيبرس الذى صدر فى هذه السلسلة ؛ من أن العروبة فى ذلك الوقت لم تعد عروبة الدم والجنس والأصل ، وانما أضحت عروبة الأحاسيس والمشاعر والحضارة .

وكان أسد الدين شيركوه وأخوه نجم الدين أيوب من أهل مدينة دوين قرب خلاط من مدن أرمينية ، ثم شاءت الظروف أن قصدا العراق حيث حظيا عند مجاهد الدين بهروز الخادم الذى كان يلى شحنكية بغداد ، أى ينوب عن سلطان السلاجقة فيها . ولم يلبث مجاهد الدين أن عهد الى نجم الدين أيوب بالولاية على تكريت فأقام بها ومعه أخوه شيركوه مدة من الزمن . وشاءت الظروف فى الوقت الذى قام نجم الدين أيوب بحكم تكريت أن نشبت الحرب بين عماد الدين زنكى أتابك الموصل والخليفة العباسى المسترشد ، فحلت الهزيمة بزنكى عند

(١) انظر ماكتبه الدكتور جمال الدين الشيال فى : —
ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٦ حاشية ٥ .

تكريت سنة ١١٣٢ ، وعندئذ أسرع نجم الدين أيوب بتقديم المعونة الى زنكى فساعده على الفرار والعبور الى الضفة الأخرى لنهر دجلة بأن أقام له السفن التى ساعدته وأصحابه على الفرار . ويروى ابن واصل ان « هذا أول المعرفة بين عماد الدين زنكى وبين نجم الدين أيوب وأخيه أسد الدين شيركوه ، ومبدأ سعادتهما ، ولكل شيء سبب » . كما يروى أبو الفدا « وكان هذا الفعل من نجم الدين أيوب سببا للاتصال بعماد الدين حتى ملك بنو أيوب البلاد » (١) .

على أن نجم الدين أيوب لم يطل بقاؤه فى تكريت بعد ذلك ، اذ عزله مجاهد الدين عنها بسبب مساعدته لزنكى ؛ وقيل ان أسد الدين شيركوه قتل انسانا بتكريت ظلما ، فعزل مجاهد الدين نجم الدين أيوب لذلك ؛ كما قيل ان نجم الدين أيوب رمى مملوكا من مماليك مجاهد الدين فقتله . ومهما يكن من أمر ، فان نجم الدين أيوب صحب أخاه أسد الدين شيركوه وغادروا تكريت فى نفس الليلة التى ولد فيها صلاح الدين « فتشاءموا به وتطيروا منه » . ولكن البعض هون عليهم وقال لهم « لعل فيه الخيرة وما تعلمون ! » . ومهما يكن من أمر ، فان نجم الدين أيوب صحب أخاه وأسرتيهما وتوجها الى الموصل حيث رحب بهما عماد الدين زنكى « وأحسن اليهما وقربهما ،

(١) ابو الفدا : المختصر ؛ حوادث سنة ٥٢٧ هـ .

ورعى لهما خدمتهما له ، وبالغ فى اكرامهما ، وأقطعهما اقطاعات جليلة ، وترقت أحوالهما عنده » .

ولما فتح عماد الدين زنكى بعلبك عين نجم الدين أيوب واليا عليها ، فاستمر فى ولايته الى أن قتل عماد الدين زنكى وخلفه ولداه نور الدين محمود فى حلب وسيف الدين غازى فى الموصل . ويقال ان نجم الدين أيوب أحس بصعوبة موقفه فى بعلبك لا سيما وأن مجير الدين أبق صاحب دمشق اشتد طمعه فى بعلبك وراسل نجم الدين فعلا فى تسليمها . وكان أن طلب نجم الدين أيوب من الأمير سيف الدين غازى أن يتسلم منه بعلبك ، ولكن سيف الدين أبطأ فى الرد بسبب مشاغله ، الأمر الذى جعل نجم الدين يسلم بعلبك الى صاحب دمشق خوفا من أن يناله أذى . وبعد ذلك انتقل نجم الدين أيوب الى دمشق حيث كافأه صاحبها باعطائه اقطاعا جليلا . أما أسد الدين شيركوه فقد دخل فى خدمة نور الدين محمود صاحب حلب « وصار من أخص أصحابه ومقدما على سائر أمرائه ، لما عرفه من شهامته وشجاعته ، واقدامه فى الحرب على ما لا يقدم عليه غيره ، ولم يزل حاله ينمو عنده الى أن أقطعه مدينتى حمص والرحبة » [1] .

ثم كان أن أخذ نور الدين محمود يعمل على انشاء الجبهة الاسلامية المتحدة ، وتطلع الى ضم دمشق لتكتمل وحدة المسلمين

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ١٠
وانظر كذلك ترجمة حيـاة صلاح الدين يوسف فى : ابن خلكان ، وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٣٩ وما بعدها .

فى بلاد الشام ، وعندئذ فكر فى الاستعانة بنجم الدين أيوب المقيم فى دمشق لتسهيل تنفيذ مشروعه . ويروى ابن واصل أن نور الدين محمود أمر أسد الدين شيركوه بمكاتبة أخيه نجم الدين أيوب حتى يساعد سياسة نور الدين فى دمشق . وفعلا ساعد نجم الدين فى تسليم دمشق لنور الدين ، الأمر الذى زاد من تقدير نور الدين محمود لأسد الدين شيركوه وأخيه نجم الدين أيوب ، حتى « صارت منزلتهما عنده فى أعلا الرتب » . واذا كان ابن واصل قد ذكر أن أسد الدين شيركوه صار مقدم جيوش نور الدين ؛ فان النويرى ذكر أن مكانة نجم الدين أيوب فاقت مكانة أخيه أسد الدين شيركوه عند نور الدين ، فكان « لا يجلس عنده أمير من غير أن يأمره بالجلوس ، الا نجم الدين أيوب . وأما من عداه كأسد الدين شيركوه وغيره فانهم كانوا يقفون حتى يأمرهم بالجلوس ! »(١) .

* * *

ضم مصر الى الجبهة الاسلامية المتحدة :

وأخيرا جاء دور مصر — كما سبق أن ذكرنا — فعهد نور الدين محمود الى قائده شيركوه بالخروج على رأس حملة سنة ١١٦٤ لمساندة شاور ضد ضرغام من ناحية ، وحماية مصر من أطماع الصليبيين من جهة أخرى . وكان أن صدع شيركوه للأمر فقاد جيش نور الدين الى مصر وصحبته ابن أخيه

(١) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٥ ورقة ١٨٠ (مخطوط) .

صلاح الدين وشاور . وعندما علم ضرغام بالخبر استنجد بالصليبيين ، وتعهد لعمورى — مقابل مساعدته — بأن يعقد معه معاهدة تصبح مصر بمقتضاها تابعة للملك الصليبى . على أن مهارة شيركوه وسرعته في اجتياز الصحراء رغم تقدم سنه ، جعلته يكسب قصب السبق ، فوصل الى الدلتا قبل الصليبيين ، وانتصر عند تل بسطا على جيش أرسله ضرغام ، بحيث لم يكد يحل أول مايو سنة ١١٦٤ الا كان شيركوه قد وصل على رأس جيشه الى أسوار القاهرة . ولم يلبث أن وجد ضرغام نفسه وحيدا بعد أن تخلى عنه رجاله وعامة الناس فضلا عن الخليفة ، فقتل أثناء محاولته الفرار وتولى شاور الوزارة .

وقد وصف المؤرخ أبو المحاسن شاور بأنه كان « خبيثا سفاكا للدماء » ، فأساء معاملة الناس ، وتناسى وعوده المعسولة لنور الدين ، بل سرعان ما « ظهر منه امارات الغدر بأسد الدين شيركوه » ؛ فرفض أن يدفع لشيركوه المال المتفق عليه وطلب منه الخروج من مصر (١) . ولكن شيركوه رد على موقف شاور باحتلال بلبيس والشرقية ، مما جعل شاور يفعل مثل سلفه ضرغام ؛ فاستنجد بالصليبيين ، ووعد عمورى الأول بمبلغ كبير من المال مقابل مساعدته ضد شيركوه . وهكذا عاد عمورى الأول على رأس جيشه الى مصر مرة أخرى . وكان شيركوه عندئذ فى بلبيس ، فحاصره الصليبيون من ناحية وشاور من ناحية أخرى . وأخيرا تم الاتفاق على أن يغادر شيركوه وعمورى الأول جميعا

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ؛ ج ٤ ص ٣٤٧ .

أرض مصر ؛ وحدث ذلك فعلا فى أواخر سنة ١١٦٤ بعد أن تعهد شاور بدفع ثلاثين ألف دينار لشيركوه . وربما كان الملك الصليبى أكثر تلهفا على تلك الاتفاقية بعد أن اشتدت هجمات نور الدين على ممتلكات الصليبيين أثناء غيابه ، مما استدعى سرعة عودته الى بلاد الشام على وجه السرعة .

والملاحظ أن أخبار حملة شيركوه الأولى على مصر وردت فى المراجع فى ايجاز شديد ، بحيث لا نستطيع أن نتبين فيها الدور الفعلى الذى قام به صلاح الدين الى جانب عمه شيركوه . وكل ما هنالك هو أن المؤرخ ابن شداد كاتب سيرة صلاح الدين يذكر لنا أن صلاح الدين كان موضع ثقة عمه ، وأن شيركوه «كان لا يفصل أمرا ولا يقرر حالا الا بمشورته ورأيه « لما لاح له من آثار الاقبال والسعادة والفكرة الصحيحة واقتران النصر بحركاته وسكناته » . ومهما يكن فى عبارة ابن شداد من مبالغة قصد بها التنويه بمواهب صلاح الدين فى ذلك الدور المبكر من حياته ؛ فلا شك فى أن خروج صلاح الدين الى مصر فى صحبة عمه سنة ١١٦٤ كان فى حد ذاته تجربة كبرى ، هى التجربة الأولى من نوعها بالنسبة له ، مما ترك أثرا خطيرا فى مستقبل حياته .

والواقع ان نور الدين والصليبيين خرجوا جميعا من تجربتهم العملية فى أرض مصر بفكرة واضحة عن ثروة هذه البلاد وضعفها ، فضلا عن أهميتها لكل فريق فى مناوءة خصمه . ويذكر ابن شداد أن شيركوه غادر مصر « فأقام فى الشام مدبرا لأمره مفكرا فى كيفية رجوعه الى البلاد المصرية ، محدثا بذلك نفسه » .

أما ابن الأثير فيقول ان شيركوه لم يستطع عقب عودته الى بلاد الشام أن ينسى مصر ، فظل « بعد عوده منها لا يزال يتحدث بها ويقصدها ، وكان عنده من الحرص على ذلك كثير » . فى حين يقول المؤرخ أبو المحاسن ان شيركوه غادر مصر « وهو فى غاية من القهر » . وهكذا يبدو أنه لو ترك الأمر لشيركوه لعاد الى مصر سنة ١١٦٥ أو سنة ١١٦٦ ، ولكن نور الدين محمود كان يخشى أن يقوم بمحاولة جديدة ضد مصر فى هاتين السنتين فيشتت جهوده ويقسم قواته فى الوقت الذى كان الموقف فى بلاد الشام يستدعى قدرا كبيرا من اليقظة والانتباه .

ومن ناحية نور الدين يلاحظ ان الطمع فى ثروة مصر أو الخوف من أن يستفيد منها الصليبيون حربيا وماديا لم تكن الدوافع الوحيدة لاهتمامه بأمر مصر ، وانما كان هناك — بالاضافة الى ما سبق — دافع آخر مذهبى له أهميته فى توحيد الجبهة الاسلامية . ذلك أن الخلافة الفاطمية فى مصر كانت عندئذ مصدرا من مصادر الفرقة فى العالم الاسلامى ، لأن قيامها فى القاهرة كان كفيلا ببقاء المذهب الشيعى حيا فى مصر ، فى الوقت الذى ساد المذهب السنى الشام ومعظم العراق . ويحتمل أن تكون قد دارت اتصالات بهذا الشأن بين نور الدين وقائده شيركوه من ناحية والخليفة العباسى من ناحية أخرى ، وذلك قبل أن يعهد نور الدين الى شيركوه بمهمة غزو مصر سنة ١١٦٧ . وثمة أسباب أخرى ذكرها المؤرخ أبو المحاسن جعلت نور الدين يرسل شيركوه للمرة الثانية الى مصر ، أهمها

أن الخليفة العاضد الفاطمى أرسل الى نور الدين يستنجده ضد شاور ، ويعلمه ان شاور « قد استبد بالأمر وظلم وسفك الدم » . ولم يكن نور الدين فى حاجة الى مزيد من التحريض ضد شاور ، اذ كان « فى قلب نور الدين من شاور حزازة لكونه غدر بأسد الدين شيركوه ، واستنجد عليه بالفرنج » .

وكان أن غادرت الحملة النورية الثانية دمشق فى يناير سنة ١١٦٧ فى طريقها الى مصر بقيادة شيركوه ، وبصحبته أيضا ابن أخيه صلاح الدين ، وفى ذلك قال الشاعر عرقله الدمشقى يمدح صلاح الدين (١) : —

رب كما ملكتها يوسف الـ صديق من أولاد يعقوب
يملكها فى عصرنا يوسف الـ صادق من أولاد أيوب

وعندما أدرك شيركوه الدلتا عمل حسابا لاستنجاد شاور بالصليبيين فوجد أنه ليس من الحكمة مهاجمة القاهرة ، واختار أن يعبر النيل عند أطفيح الى الجيزة ، حيث عسكر فى مواجهة الفسطاط على الضفة الغربية للنيل . وقد صح ما توقعه شيركوه ، اذ استنجد شاور بعمورى الأول ملك بيت المقدس ، الذى أسرع ليغزو مصر للمرة الثالثة . وقد أراد الصليبيون أن يعقدوا اتفاقية مع الفاطميين تضمن لهم أجرهم قبل أن يقوموا بمحاربة شيركوه ، فتعهد لهم شاور بدفع أربعمائة ألف دينار فى حالة بقائهم حتى طرد شيركوه من مصر ، بشرط دفع نصف هذا

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ١ ص ١٤٩ .

المبلغ فورا . وكان أن رحب الصليبيون بتلك الاتفاقية التي جعلت منهم حماة مصر والخلافة الفاطمية ، واستعدوا لعبور النيل للاشتراك مع الفاطميين فى مهاجمة شيركوه على الضفة الغربية . ويبدو أن شيركوه أدرك عندئذ حرج موقفه ، فاتجه — وصحبته صلاح الدين — الى الصعيد ، حيث لحق بهما الصليبيون وشاور . وقرب الأشمونين فى المنيا دارت معركة البابين فى مارس سنة ١١٦٧ واشترك فى المعركة صلاح الدين . وقد هزم الصليبيون فى تلك المعركة ، وان كان انتصار شيركوه غير حاسم ؛ فى حين عاد عمورى ليعسكر مع جيشه قرب الفسطاط على الضفة الغربية للنيل . . .

أما شيركوه ، فقد آثر أن يتجه شمالا على الضفة الغربية للنيل ليحتل الاسكندرية ، فى الوقت الذى ظل الصليبيون قابعين أمام الفسطاط . واذا كان عسف شاور وجوره لم يمكنا أهل القاهرة من التعبير عن استيائهم لتحالف حكامهم مع الصليبيين ، فانه كان من الصعب أن يقبل أهل الاسكندرية ذلك الوضع ؛ فضلا عن أن بعد السكندريين عن العاصمة وملامستهم الخطر الصليبى عن طريق البحر ، جعلهم أكثر احساسا بالخطر وأكثر حرية فى التعبير عن شعورهم . لذلك لم يكد شيركوه يقترب من الاسكندرية حتى « تلقاه أهلها طائعين » ، وفتحوا له أبواب مدينتهم ليدخلها فى أمن وهدوء . على أنه يبدو أن شيركوه خشى أن يحصره الصليبيون وجميع قواته داخل الاسكندرية ، وقال « أنا لا يمكننى أن أحصر نفسى » ؛ فترك ابن أخيه نائبا عنه

فى الاسكندرية ، واتجه هو على رأس الجزء الأكبر من قواته عائدا الى الصعيد « فاستولى عليه وأقام يجمع أمواله »[1] .

وفى الوقت الذى أوغل شيركوه فى الصعيد حتى قوص وحاصرها ، ساء موقف صلاح الدين وأهل الاسكندرية ، بعد أن أسرع عمورى لحصار صلاح الدين الذى لم يكن معه داخل المدينة سوى ألف جندى . وكان أن اشتد الحصار وقل الطعام داخل الاسكندرية ، ومع ذلك فقد « صبر أهلها على ذلك » . وعندما رأى صلاح الدين اصرار الصليبيين على حصار الاسكندرية وخشى عاقبة ذلك الحصار ، أرسل الى عمه يطلب النجدة العاجلة ، فاضطر شيركوه الى العودة شمالا فى أواخر يونيو سنة ١١٦٧ . وفى الطريق أدرك شيركوه صعوبة الاستيلاء على مصر ، فأرسل الى الصليبيين يطلب عقد الصلح ، وتم الاتفاق — مثل المرة السابقة — على تبادل الأسرى ، وعلى أن يترك الجانبان مصر لينعم بها شاور من جديد[2] . على أن عمورى الأول لم يترك مصر الا بعد أن ثبت الحماية الصليبية على شاور والخلافة الفاطمية ؛ وأهم مظاهر تلك الحماية دفع جزية سنوية قدرها مائة ألف دينار للصليبيين ، وبقاء قوة من فرسان الصليبيين تحمى أبواب القاهرة ، فضلا عن اقامة مندوب عن الملك الصليبى (شحنة) فى القاهرة يشارك فى شئون الحكم[3]

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ١٤٥

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ؛ ص ٦٦ .

(٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ١٣٤

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ٣٤٩ .

على أنه اذا كان عموری الأول قد غادر مصر مضطرا سنة ١١٦٧ ، فليس معنى ذلك أنه صرف النظر عن فكرة الاستيلاء على هذه البلاد . ويذكر أبو المحاسن أن الصليبيين عندما أتوا الى مصر فى المرات السابقة « اطلعوا على عوراتها وطمعوا فيها » . ولم يلبث عمورى الأول أن وجد نفسه مضطرا للعمل مرة أخرى لاقتناص مصر ، لا سيما بعد أن انقلبت سياسة شاور ضد الصليبيين . حقيقة ان شاور كان هو البادىء دائما بطلب مساعدة الصليبيين ، ولكنه أخذ يتخوف أخيرا عندما وجد أن هذه المساعدة تحولت الى حماية . هذا الى أن الضريبة السنوية التى فرضها عمورى الأول على شاور — وهى مائة ألف دينار — أثقلت كاهل ميزانية الدولة الفاطمية ، فى الوقت الذى ضعفت تلك الدولة ونضبت مواردها . ثم ان وجود مندوب عن الصليبيين — أو شحنة — فى القاهرة يشارك فى شئون الحكم ، ووجود حامية صليبية تحرس أبواب القاهرة ، كل ذلك أزعج الفكر الاسلامى المعاصر . وقد ذكر ابن الأثير أن أولئك الصليبيين الذين استعان بهم شاور أنزلوا الضرر بأهل البلاد « وحكموا على المسلمين حكما جائرا وركبوهم بالأذى » . وهكذا لم يجد شاور مفرا — أمام شعور الاستياء العام فى القاهرة — أن يقلب سياسته رأسا على عقب ، فاتصل بنور الدين طالبا المساعدة للتخلص من الحماية الصليبية . وقد أرسل شاور ابنه — الملك شجاع — الى نور الدين « ينهى محبته وولاءه

ويسأله الدخول فى طاعته » مما ترتب عليه عقد اتفاقية بين الطرفين . كذلك حاول شاور تأكيد هذه الرابطة الجديدة عن طريق المصاهرة ، فيتزوج الكامل شجاع من أخت صلاح الدين أو يتزوج صلاح الدين من ابنة شاور [1] .

واذا كان الملك عمورى نفسه قد رأى ضرورة التحفظ تجاه المسألة المصرية ؛ فان غالبية أمراء الصليبيين لم يشاركوه الرأى « وقالوا ان مصر لا مانع لها ولا حافظ » . وبناء على ذلك خرج عمورى الأول على رأس جيشه للمرة الرابعة قاصدا مصر . وعندما قاومت بلبيس الصليبيين وأغلقت أبوابها فى وجه عمورى ؛ حاصرها واقتحمها عنوة « وقتل من أهلها خلقا عظيما وخرب أكثرها وأحرق جل دورها » . وفى الوقت الذى اقترب عمورى من القاهرة وصل الأسطول الصليبى فى البحر الى تنيس ولكنه لم يستطع التقدم فى النيل جنوبا بسبب العقبات التى وضعها المصريون فى مجرى النيل . أما شاور فقد أشعل النار فى الفسطاط من ناحية ، كما دفع مبلغا كبيرا من المال للملك الصليبى لصرفه عن القاهرة من ناحية أخرى . وكان ذلك فى الوقت الذى سمع الملك عمورى بأن شيركوه فى طريقه فعلا الى مصر على رأس جيش كبير من المسلمين .

ويقال ان الخليفة الفاطمى عندما رأى الخطر المحيط ببلاده أرسل الى نور الدين يعرض عليه « ثلث بلاد مصر » اذا هو

---

(١) ابو شامة : كتاب الروضتين ؛ ج ١ ص ١٧٠ .

أنقذه من الصليبيين . والواقع ان نور الدين كان لا يمكنه أن يترك مصر تقع فى قبضة الصليبيين ، فلم يكد يسمع بغزوة عمورى الأخيرة لها حتى « أسرع بتجهيز العساكر خوفا على مصر » . كذلك يذكر أبو شامة أن نور الدين ضاق ذرعا بنفاق شاور وأدرك أنه « يلعب بهم تارة وبالافرنج أخرى ! » . وعلى هذا الأساس خرجت حملة نور الدين الثالثة الى مصر سنة ١١٦٨ ، بزعامة شيركوه الذى اصطحب معه أيضا تلك المرة ابن أخيه صلاح الدين.

وهنا نتوقف قليلا أمام ظاهرة تحرص المراجع المعاصرة على ابرازها ، هى تمنع صلاح الدين عن المجىء الى مصر فى الحملتين السابقتين وفى هذه الحملة الثالثة بوجه خاص . من ذلك ما يرويه ابن الأثير من أن صلاح الدين قال لعمه عندما دعاه للمجىء فى صحبته الى مصر فى المرة الثالثة « والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت اليها ، فلقد قاسيت بالاسكندرية وغيرها ما لا أنساه أبدا » [1] . كذلك يروى أبو المحاسن أن نور الدين قال لصلاح الدين « أخرج مع عمك أسد الدين » ؛ فامتنع صلاح الدين وقال « يكفى ما لقيناه من شدائد فى تلك المرة » ؛ فأجبره نور الدين على الخروج [2] . أما ابن شداد فيروى عن صلاح الدين أنه قال بنفسه « كنت أكره للخروج فى هذه الواقعة ، وما خرجت مع عمى باختيارى » . وفى رأينا أن المؤرخين انما

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٦٤ هـ
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ؛ ج ٥ ص ٣٥٠ .

قصدوا من تلك الاشارات ايضاح أهمية الدور الذى يلعبه القدر والنصيب المكتوب ؛ وكيف أن نور الدين ألح على صلاح الدين فى الحضور الى مصر دون أن يدرى أن صلاح الدين هذا سيكون منافسه فى المستقبل ، وأنه سيستغل ثروة مصر للوقوف فى وجهه ، وأنه سيرثه فى دولته . كذلك كيف أتى صلاح الدين الى مصر كارها دون أن يدرى أنه على موعد مع القدر ، وأن نجمه لن يلبث أن يتألق فى تلك البلاد . ويؤكد القاضى ابن شداد هذا المعنى الأخير عندما يعقب على تمنع صلاح الدين عن الحضور الى مصر بالآية الكريمة : « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم » (١) .

وسواء حضر صلاح الدين مع عمه شيركوه راضيا أم كارها ؛ فالمهم أنه وصل الى مصر سالما فى أواخر سنة ١١٦٨ . وقد فرح أهل مصر بشيركوه فرحا عظيما واستقبلوه استقبال البطل المخلص عند وصوله الى القاهرة . وعندما رأى عمورى الأول التفاف أهل مصر حول شيركوه وترحيبهم به بوصفه مدافعا عن الاسلام ، لم يستطع البقاء فى البلاد واضطر الى أن يسحب رجاله وينصرفوا « عائدين الى بلادهم بخفى حنين ، خايبين مما أملوه » . أما شيركوه فقد عسكرت قواته عند أرض اللوق على باب القاهرة ، فاستدعاه الخليفة العاضد الفاطمى الى القصر ، وخلع عليه خلعة الوزارة ولقبه بالمنصور ، وأخذ أرباب الدولة يترددون الى خدمته فى كل يوم . وكان من الطبيعى أن يحقد

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ؛ ص ٦٧ .

شاور على شيركوه ، وبخاصة بعد أن ظهر تأييد الخليفة العاضد الفاطمى لشيركوه وميله اليه ؛ فأرسل شاور مرة أخرى الى الصليبيين يستدعيهم لمساعدته ويقول لهم « يكون مجيئكم فى دمياط فى البحر والبر » . بل ان شاور دبر مؤامرة للقبض على شيركوه وأمرائه أثناء وليمة يدعوهم اليها ، ولما عارضه ابنه الكامل فى ذلك رد شاور على ابنه قائلا « لئن لم نفعل هذا لنقتلن كلنا » .

وكان شاور قد تعهد بدفع ثلث أموال البلاد لشيركوه ؛ فلما أرسل الأخير يطلب منه الوفاء بوعده أخذ يماطل فى انتظار وصول الصليبيين لنجدته . وأخيرا اجتمع « أعيان الدولة بمصر » عند شيركوه وقالوا له « شاور فساد العباد والبلاد ، وقد كاتب الفرنج ، وهو يكون سبب هلاك الاسلام » وطالبوا بقتله . وهكذا انتهى الأمر بقتل شاور وولده الكامل فى يناير سنة ١١٦٩ ؛ وقيل ان الخليفة العاضد الفاطمى شارك فى المؤامرة التى عصفت بشاور . وبعد ذلك دخل شيركوه وصلاح الدين القاهرة ظافرين حيث أباحوا للناس نهب قصر شاور .

* * *

الوزير صلاح الدين :

وشاءت المقادير أن يموت شيركوه بعد شهرين — أى فى مارس سنة ١١٦٩ — وعندئذ خلفه صلاح الدين ليجنى ثمرة جهده . ذلك أن الخليفة العاضد ولى الوزارة لصلاح الدين وهو

فى الحادية والثلاثين من عمره . وهنا أيضا تحرص بعض المراجع على الاشارة الى تمنع صلاح الدين يوسف عن قبول منصب الوزارة ، ولكنه « ألزم به ، وأحضر الى القصر ، وخلعت عليه الوزارة » . ويعلق أبو المحاسن على تمنع صلاح الدين عن قبول منصب لوزارة بقوله « وان الله ليعجب من قوم يقادون الى الجنة بسلاسل !! » . ويبدو أن قيام صلاح الدين فى منصب الوزارة لم يتم دون معارضة أو منافسة من جانب كبار الأمراء النورية . ذلك أن جيش شيركوه فى مصر كان يضم جماعة من أكابر أمراء نور الدين ، مثل عين الدولة الياروقى وقطب الدين خسرو وسيف الدين على بن أحمد المشطوب وشهاب الدين الحارمى خال صلاح الدين .. وجميع هؤلاء تطلعوا الى الوزارة عقب وفاة شيركوه . ولكن الخليفة العاضد الفاطمى أصر على اختيار صلاح الدين بالذات للوزارة ، وربما ظن العاضد الفاطمى أن صغر سن صلاح الدين وعدم خبرته ستجعل منه أداة سهلة فى يد الخليفة ، يستغلها فى القضاء على بقية أعوان شيركوه من القادة العتاة . ويذكر ابن الأثير أن أصحاب الخليفة العاضد قالوا له : « ليس فى الجماعة أضعف ولا أصغر سنا من يوسف (صلاح الدين) ، والرأى أن يولى (الوزارة) فانه لا يخرج من تحت حكمنا » (١) .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٦٤ هـ
التاريخ الباهر ؛ ص ١٤٢

... ولكن صلاح الدين لم يكد يتولى الوزارة حتى خيب ظن الخليفة الفاطمى ، اذ شرع فى استمالة قلوب الناس اليه ، وبذل من الأموال ما كان أسد الدين شيركوه قد جمعه « فمال الناس اليه وأجبوه ... وضعف أمر العاضد » . ثم ان صلاح الدين أخضع مماليك شيركوه ، وسيطر سيطرة تامة على الجند ، بعد أن « أحسن لجميع العسكر الشامى والمصرى فأحبوه وأطاعوه » . وكان ذلك فى الوقت الذى أمده نور الدين بقوة جديدة من العسكر ، فيها شمس الدين توران شاه بن أيوب ، أخو صلاح الدين .

وبفضل هذه الوسائل تمكن صلاح الدين من القضاء على قوة الجند السودان الذين كانوا آخر سلاح اعتمد عليه الخليفة العاضد الفاطمى . ويقال ان رئيس بلاط قصر الخليفة — وكان نوبيا خصيا اسمه مؤتمن الخلافة — استاء من صلاح الدين عندما « ثقلت وطأته على أهل القصر » فدبر مؤامرة للخلاص منه ، وحاول أن يتصل بعمورى الأول والصليبيين « والتقوى بهم على صلاح الدين » . ولكن رسالة مؤتمن الخلافة الى الملك عمورى وقعت فى يد صلاح الدين ، فرأى أن يستأصل الفتنة من جذورها ، ويقضى على أية محاولة للعودة الى أساليب ضرغام وشاور وألاعيبهم ، فقتل مؤتمن الخلافة فورا فى أغسطس سنة ١١٦٩ . ثم لجأ صلاح الدين الى ابعاد جميع الخدم (الخصيان) من السودان عن قصر الخلافة الفاطمية « واستعمل

على الجميع بهاء الدين قراقوش وهو خصى أبيض ، وكان لا يجرى فى القصر صغير ولا كبير الا بأمره وحكمه » .

ولم يلبث أن غضب السودان الذين بمصر لقتل مؤتمن الخلافة « حمية للجنسية ولأنه كان يتعصب لهم » ؛ كما عز عليهم استبعادهم وضياع نفوذهم . وعندما تفاقمت ثورتهم فى الفسطاط وتكاثرت أعدادهم حتى بلغوا خمسين ألفا ، لجأ صلاح الدين الى اشعال النار فى محلتهم التى اعتصموا فيها بالفسطاط ، فطلبوا الأمان فى أواخر أغسطس سنة ١١٦٩ ، وانتقلوا الى الجيزة على الضفة الغربية للنيل ، ولكن صلاح الدين أرسل اليهم أخاه تورانشاه بن أيوب فى طائفة من العسكر « فأبادهم بالسيف » (١) .

أما الخليفة العاضد فقد ظن فى أول الأمر أن السودان سينتصرون ، فأمر « من بالقصر أن يقذفوا العساكر الشامية بالنشاب والحجارة » ؛ وعندئذ هدد تورانشاه باشعال النار فى قصر العاضد واحراق منظرة الخليفة . وكان أن غير الخليفة موقفه بسرعة ، ففتح باب المنظرة وخرج منه زعيم الخلافة وقال « أمير المؤمنين يسلم على شمس الدولة (تورانشاه) ويقول دونكم العبيد الكلاب اخرجوهم من بلادكم !! » . وكان السودان يعتمدون على تأييد العاضد ، فلما رأوا تغير موقف الخليفة منهم « فت فى أعضادهم فجبنوا وتخاذلوا وأدبروا » .

كذلك فعل صلاح الدين بحرس الخليفة الفاطمى من

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ١ ص ١٧٦ — ١٧٧ .

الأرمن ، اذ أشعل النار فى ثكناتهم وقضى عليهم حتى لا يعطيهم فرصة للقيام بمثل ما قام به السودان. وهكذا قضى صلاح الدين على عناصر الخيانة فى مصر ، وأدب القوى التى هددت سلطانه واعترضت طريق مشروعه الكبير فى جهاد الصليبيين ؛ ولم يبق أمامه الا كبار الاقطاعيين وملاك الأراضى الذين يدفعهم الحرص على ممتلكاتهم وضياعهم الواسعة الى مساندة الفساد ، والعمل على عدم تغيير الأوضاع القائمة ، فتخلص صلاح الدين من هؤلاء أيضا وأحل محلهم فى أراضيهم جماعة من رجاله من أهل الشام .

وهنا نلاحظ أن صلاح الدين قام بأعماله السابقة فى تلك المرحلة بوصفه نائبا عن نور الدين ، لا باسم الخليفة الفاطمى بوصفه وزيرا له . ويؤكد المؤرخ ابن واصل هذه الحقيقة فيقول ان صلاح الدين كان عندئذ « لا يتصرف الا عن أمره » يقصد أمر نور الدين . وقد أدت هذه السياسة الى احتفاظ صلاح الدين حتى ذلك الوقت على الأقل بعطف نور الدين وعدم اثارة مخاوفه أو حسده » نتيجة للخطوات السريعة التى دعم بها سلطانه فى مصر ، حتى أعطاه نور الدين لقب أمير ولقبه « الأمير الاسفهسلار » . والواقع ان صلاح الدين كان لا يمكنه أن يستغنى عن معونة نور الدين فى ذلك الدور المبكر من حياته العملية ، لا سيما وان الموقف أمامه كان — كما سبق أن رأينا — مليئا بالصعاب داخل مصر ، فى حين كان الصليبيون يتحفزون على الحدود الشرقية للبلاد .

فزع الصليبيين من الوحدة الاسلامية :

ذلك أن نجاح نور الدين فى ضم مصر الى دولته ، خلق فى محيط الصليبيين بالشام جوا جديدا من القلق والرعب ، بعد أن أحسوا أنهم وقعوا بين شقى الرحى ، وأن القوات الصليبية أحاطت بمملكة بيت المقدس الصليبية من الشمال الشرقى والجنوب الغربى . ويعبر المؤرخون المسلمون عن ذلك الوضع الجديد تعبيرا دقيقا ، فيقول ابن الأثير « كان افرنج الساحل لما ملك أسد الدين (شيركوه) مصر قد خافوا وأيقنوا بالهلاك .. وانهم خائفون على بيت المقدس » . أما ابن واصل فيقول « ولما ملك صلاح الدين الديار المصرية .. أيقن الفرنج بالهلاك » . هذا الى أن سيطرة نور الدين محمود — وقائده صلاح الدين — على القواعد البحرية فى شمال مصر — مثل الاسكندرية ودمياط وغيرهما من موانى الدلتا — من شأنها أن تسلب الصليبيين سيادتهم البحرية ، وتجعل هذه السيادة للمسلمين فى الجزء الشرقى من حوض البحر المتوسط .

ولم يلبث الشعور بالفزع والقلق على المستقبل أن دفع عمورى الأول ملك بيت المقدس الى ارسال سفارة الى الغرب الأوربى لتطلب من امبراطور ألمانيا وملوك فرنسا وانجلترا وصقلية وغيرهم من كبار الحكام الاسراع بالقيام بحملة صليبية جديدة لانقاذ اخوانهم الصليبيين فى الشرق . وجدير بالذكر أن تلك الاستغاثة لم تخف على المؤرخين المسلمين ، فقال ابن الأثير انه

الصليبيين بالشام « كاتبوا الفرنج الذين بالأندلس وصقلية وغيرهما يستمدونهم ويعرفونهم بما تجدد من ملك مصر وأنهم خائفون على البيت المقدس » ، أما ابن واصل فيقول انهم « كاتبوا فرنج صقلية وغيرهم واستمدوهم واستنصروهم لدين النصرانية » [1] . على أن الأوضاع السياسية فى غرب أوربا عندئذ ، لا سيما ما يتعلق منها بالنزاع بين البابوية والامبراطورية حالت دون تحقيق رغبة الملك عمورى الأول وشركاه . وبذلك لم يبق أمام الصليبيين بالشام سوى الاتجاه الى الدولة البيزنطية وطرق أبواب القسطنطينية طالبين مساعدتها .

وكان أن لبى الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين النداء ، فأعد أسطولا كبيرا غادر مياه الدردنيل فى يوليو سنة ١١٦٩ متجها الى قبرص ، حيث انضمت اليه بعض الوحدات الاضافية ، ثم اتجهت العمارة البيزنطية نحو صور ومنها الى عكا لرسم الخطة اللازمة لغزو مصر بالاشتراك مع الصليبيين . أما الملك عمورى فقد أراد أن يكتسب تأييد كافة القوى الصليبية ببلاد الشام لتنفيذ مشروعه الخاص بغزو مصر ، ولذلك أصدر مرسوما هاما فى أكتوبر سنة ١١٦٨ يقضى بمنح الاسبتارية جزءا هاما من ايراد مصر ، ونصيبا كبيرا من دخل أهم المدن المصرية مثل الفسطاط وتنيس ودمياط والمحلة والاسكندرية وقوص وأطفيح وأسوان والفيوم .. مما يدل عى عزم الملك عمورى على

---

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ١٤٣
ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ١٨٠ .

الاستيلاء على مصر من ناحية وعلى اعتقاده فى امكان تحقيق ذلك من ناحية أخرى (١)

وفى الوقت الذى أقلع الأسطول البيزنطى صوب دمياط ، زحف الصليبيون برا فى ١٦ أكتوبر سنة ١١٦٩ من عسقلان الى الفرما ومنها الى دمياط « ومعهم المنجنيقات والدبابات وآلات الحصار وغير ذلك » . واذا كان الصليبيون قد نصبوا معسكرهم أمام دمياط ، الا أن الأسطول البيزنطى لم يستطع دخول الميناء بسبب المآصر ، وهى السلاسل الحديدية الممتدة بعرض النيل فى الميناء لتمنع دخول سفن الأعداء .

أما صلاح الدين فقد أسرع عندما علم بهجوم الصليبيين الى تحصين بلبيس والقاهرة والاسكندرية ، ظنا منه أن الحملة الصليبية فى تلك المرة ستقتفى أثر الحملات السابقة . فلما اتجهت الحملة الى دمياط وجد صلاح الدين نفسه فى موقف حرج ، لا سيما وأنه ظل يخشى باستمرار خطر مؤامرة أو ثورة فى الداخل عقب قيامه باقصاء الخصيان عن القصر الفاطمى وقتله الجند السودان . وقد عبر صلاح الدين عن موقفه فى الرسالة التى أرسلها الى نور الدين ، وقال فيها « انى ان تأخرت عن دمياط ملكها الفرنج وان سرت اليها خلفنى المصريون فى أهلها بالشر ، وخرجوا عن طاعتى وساروا فى اثرى والفرنج أمامى » . ومع

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧١١ .

ذلك فان صلاح الدين لم ييأس ولم يستسلم ، فأرسل يطلب النجدة من نور الدين « فسير نور الدين العساكر اليه ارسالا يتلو بعضها بعضا » . وفى الوقت نفسه كان تقى الدين عمر — ابن أخى صلاح الدين — ، وشهاب الدين — خاله — ، قد دخلا دمياط فواصل صلاح الدين ارسال الامدادات والنجدات اليهما عن طريق النيل « وأمدهما بالسلاح والمال والذخائر » [1] .

وهكذا كان حصار الصليبيين للمدينة غير تام . وتشير المراجع الصليبية الى أن أهل دمياط استغلوا ظاهرة جريان تيار النيل من الجنوب الى الشمال وأطلقوا على سطح الماء أوانى فخارية بها مواد مشتعلة ، كانت تصطدم بسفن الأسطول البيزنطى فتنزل به أبلغ الضرر ، مما اضطر الأسطول الى الابتعاد عن لسان النيل وعن المدينة . ولم تلبث القوات البيزنطية أن أحست بالجوع بعد أن نفد تموينها ، فاقترح القائد البيزنطى على عمورى الأول القيام بهجوم شامل على دمياط ، ولكن الملك الصليبى عارض بعد أن أحس بازدياد قوات صلاح الدين داخل المدينة ، وأنه « حشر فيها كل من عنده وأمدهم بالأموال والسلاح والذخائر » .

وأخيرا وجد الصليبيون أن انتظارهم طال أمام دمياط دون جدوى ، فى الوقت الذى هاجم نور الدين ممتلكاتهم وبلادهم فى الشام ، والذى كانوا يحسبون فيه دائما حسابا لهجوم صلاح الدين عليهم من الخلف . ولذلك قرروا رفع الحصار عن

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ؛ ص ١٨٠ — ١٨١ .

دمياط وعادوا الى عسقلان خائبين بعد أن فشلوا فى غزو مصر ، ليجدوا نور الدين قد عبث ببلادهم فى الشام ونهبها ؛ حتى شبههم ابن الأثير بالنعامة التى خرجت تطلب قرنين فرجعت بلا أذنين !!! (١) .

أما السفن البيزنطية فقد انسحبت هى الأخرى ، ولم يستطع بحارتها السيطرة عليها أو التحكم فيها بسبب ما كانوا يعانونه من جوع وارهاق ، فغرق كثير منها ، وظلت الأمواج تقذف جثث بحارتها على الشاطىء طوال عدة أيام تالية .

ولا شك فى أن فشل تلك الحملة الصليبية البيزنطية أدى الى تدعيم مركز صلاح الدين فى مصر ، وجعل الخلافة الفاطمية تفقد الأمل الأخير فى التخلص من قبضته القوية . أما نور الدين فلم يبق أمامه سوى البحث عن وسيلة لتقوية الاتصال بين القاهرة ودمشق ، لأن سيطرة الصليبيين على الأردن ووادى عربة — بما فيه من حصون مثل الكرك والشوبك وغيرهما — أتاحت للصليبيين امكانيات التحكم فى صحراء النقب بين البحر الميت والبحر الأحمر ، حيث كانت أيله على خليج العقبة خاضعة لهم . وهكذا صار طريق الاتصال البرى مقطوعا بين مصر وبلاد الشام الاسلامية ، أو بعبارة أخرى بين صلاح الدين ونور الدين ، فى الوقت الذى أخذ الصليبيون يعتدون على القوافل المتنقلة بين الحجاز ومصر والشام . وليس غريبا ما نسمعه من أن نور الدين

---

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر ؛ ص ١٤٤ .

لجأ فى أبريل سنة ١١٧٠ الى مهاجمة حصن الكرك ليسمح لقافلة بقيادة نجم الدين أيوب — والد صلاح الدين — بالعبور الى مصر .

وفى الوقت الذى كان صلاح الدين يعمل على توطيد مركزه فى مصر دأب نور الدين محمود على مهاجمة الصليبيين فى الشام من ناحية ، وعلى السعى لاتمام الجبهة الاسلامية فى الشرق الأدنى من ناحية أخرى . وقد حدث فى سبتمبر سنة ١١٧٠ أن توفى قطب الدين مودود أتابك الموصل وأخو نور الدين ؛ فانتهز نور الدين فرصة الخلاف الذى نشب بين ولدى أخيه واستولى على الموصل فى أوائل سنة ١١٧١ ، وبذلك صارت الجبهة الاسلامية تمتد فعلا من الفرات الى النيل وتربط بين الموصل وحلب ودمشق والقاهرة برباط وثيق . ولا أدل على قوة نور الدين فى العالم الاسلامى عندئذ من أن الخليفة العباسى المستضىء أرسل اليه خلعة تكريما له واعترافا بقدره .

* * *

نهاية الخلافة الفاطمية :

ولم يكن صلاح الدين فى ذلك الدور أقل نشاطا فى العمل فى هذين الميدانين : ميدان جهاد الصليبيين وميدان توحيد قوى المسلمين . ففى الميدان الأول نسمع أن صلاح الدين خرج من مصر فى أوائل ديسمبر سنة ١١٧٠ لمهاجمة قلاع الصليبيين على شواطىء فلسطين ، فبدأ بحصار قلعة الداروم (الدارون

ـ دير البلح) جنوبى غزة ، ثم حاول الاستيلاء على غزة نفسها . ولكن صلاح الدين لم يستطع تنفيذ غرضه بسبب المساعدة العاجلة التى قدمها عمورى الأول ملك بيت المقدس الذى أتى بنفسه للدفاع عن شواطىء فلسطين ضد هجمات صلاح الدين . ولم يلبث صلاح الدين أن انسحب عائدا الى مصر ، وان كان ابن الأثير يذكر أن صلاح الدين لم يعد الى مصر عندئذ الا بعد أن أنزل هزيمة بالصليبيين حتى أن الملك عمورى أفلت من الأسر بصعوبة . ثم ان صلاح الدين لم يترك شاطىء فلسطين عائدا الى مصر الا ليستعد لضربة جديدة يوجهها ضد الصليبيين . ذلك أنه بنى عددا كبيرا من السفن ، حملت أجزاؤها مفككة على ظهور الجمال عبر سيناء حتى البحر الأحمر ، وهناك جمعت أجزاؤها وركبت واستخدمها صلاح الدين فى مهاجمة أيله بحرا فى الوقت الذى هاجمتها القوات البرية برا (نهاية ديسمبر ١١٧٠) . ولم تلبث أن سقطت أيله فى قبضة صلاح الدين فاقتيد أفراد حاميتها أسرى الى القاهرة [١] .

أما من ناحية جهود صلاح الدين فى توحيد قوى المسلمين فى ذلك الدور المبكر من تاريخه ، فان أول ما اتجه اليه صلاح الدين كان ازالة الشقاق المذهبى بين المسلمين فى الشرق الأدنى عن طريق القضاء على الخلافة الفاطمية الشيعية . والواقع

---

(١) للوقوف على التفصيلات انظر :
سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ٧١٨ .

ان بقاء الخلافة الفاطمية فى مصر كان يمثل مشكلة خطيرة بالنسبة لنور الدين ، وهو الحاكم السنى الذى ازدادت علاقته بالخلافة العباسية رسوخا عقب فرض سيطرته على الموصل سنة ١١٧١ ؛ فكان لابد من ايجاد حل سريع حاسم لتحديد وضع الخلافة الفاطمية فى ظل قوة كبرى تعتنق المذهب السنى . ومن ناحية أخرى فان صلاح الدين فى مصر لم يكن أقل تحمسا للمذهب السنى من سيده نور الدين بالشام ؛ فقد عرف عن صلاح الدين أنه كان شافعيا حريصا على مذهبه ؛ فأخذ يعمل — منذ أن استتبت له الأمور فى مصر — على تدعيم المذهب الشافعى فى البلاد بكافة الوسائل ؛ والخليفة الفاطمى فى قصره يسمع ويرى .!! من ذلك ما لجأ اليه صلاح الدين من تحويل دار المعونة ودار العدل فى الفسطاط الى مدارس للشافعية ، فضلا عن مدرسة للمالكية بناها صلاح الدين فى مكان يعرف بدار الغزل ، وهى المدرسة التى عرفت فيما بعد باسم المدرسة القمحية . كذلك أحل صلاح الدين القضاة الشافعية محل قضاة الشيعة « فى جميع البلاد » (١) .

ومع ذلك فقد ظل صلاح الدين متخوفا من الاقدام على الخطوة الكبرى الخاصة باسقاط الخلافة الفاطمية والغائها ؛ فى الوقت الذى كان الخليفة الفاطمى العاضد لا يمتلك من القوة

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ١ ص ١٩٨
المقريزى : المواعظ ، ج ٤ ص ١٩٣
أبو المحاسن : النجوم ؛ ج ٥ ص ٣٥٨

ما يمكنه من التخلص من صلاح الدين . ولا يستبعد أن يكون صلاح الدين نفسه قد حرص فى ذلك الدور بالذات على بقاء الخلافة الفاطمية قائمة فى صورتها الرمزية ، وذلك بعد أن أحس بتغير شعور سيده نور الدين نحوه ، وحسده له على ما حققه من مكانة لنفسه فى مصر ؛ فضلا عن تخوف نور الدين من مشروعات صلاح الدين المقبلة فى ميدان الاستقلال بمصر . لذلك أراد صلاح الدين أن يستبقى الخلافة الفاطمية لتكون بمثابة سلاح يستطيع أن يستعمله عند الحاجة اذا تأزم الموقف بينه وبين نور الدين . وقد عبر ابن الأثير عن هذا الرأى عندما قال « وكان صلاح الدين يكره قطع الخطبة لهم (للعلويين) ويريد بقاءهم » خوفا من نور الدين ؛ فانه كان يخافه أن يدخل الى الديار المصرية يأخذها منه ، فكان يريد أن يكون العاضد (الخليفة الفاطمى) معه حتى ان قصده نور الدين امتنع به وبأهل مصر عليه ! » . هذا وان كانت كراهية ابن الأثير لصلاح الدين تجعلنا نقترب فى حذر مما يصدره هذا المؤرخ من أحكام شخصية لا تخلو من تطرف ضد صلاح الدين (١) .

على أنه مما يؤيد وجهة نظر ابن الأثير فى موضوع موقف صلاح الدين من الغاء الخلافة الفاطمية ؛ ما هو ثابت فى التاريخ فعلا من أن صلاح الدين أخذ يماطل سيده نور الدين عندما طلب منه القضاء على الخلافة الفاطمية تحقيقا لوحدة العقيدة فى العالم

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٦٧ هـ .

الإسلامي ، فاعتذر صلاح الدين « من وثوب أهل مصر وامتناعهم من الإجابة الى ذلك لميلهم الى العلوية » ولكن نور الدين لم يستطع صبرا فأرسل انذارا نهائيا فى صيف سنة ١١٧١ الى صلاح الدين يأمره باحلال اسم الخليفة العباسى المستضىء محل اسم الخليفة العاضد فى خطبة الجمعة « وأرسل اليه يلزمه ذلك الزاما لا فسحة فيه ! » . وهكذا وجد صلاح الدين نفسه بين نارين : الوقوع فى أزمة مع نور الدين و التعرض لثورة الشيعة فى مصر . ولم يكن صلاح الدين فى ذلك الوقت مستعدا للدخول فى نزاع صريح مباشر مع سيده نور الدين ، فاختار أن يلبى رغبته لا سيما وأن الخلافة الفاطمية وأتباعها من الشيعة فى مصر لم تعد لهم قوة حقيقية يعتمدون عليها بعد مقتل الجند السودان .

وأخيرا تم الانقلاب ، فدعى فى القاهرة فى أول جمعة سنة ٥٦٧ هـ (سبتمبر ١١٧١) للخليفة العباسى المستضىء أمير المؤمنين ، وبذلك حدث التحول من المذهب الشيعى الى المذهب السنى فى هدوء « ولم ينتطح فيه عنزان » ، على قول ابن الأثير . وقد توفى الخليفة العاضد — آخر الخلفاء الفاطميين — بعد ذلك الانقلاب بثلاثة أيام دون أن يسمع بزوال دولته وسقوط خلافته ، اذ منع صلاح الدين رجاله من ازعاجه بذلك الخبر أثناء مرضه « فاذا عوفى فهو يعلم ، وان توفى فلا ينبغى أن تفجعه بهذه الحادثة قبل موته » . ويقال ان صلاح الدين عندما علم بوفاة الخليفة

العاضد الفاطمى لدم ندما شديدا على أنه تعجل فى قطع خطبته وقال « ليتنى صبرت حتى يموت !! » [1] .

ومهما يكن من أمر ، فان صلاح الدين دأب على العمل لازالة معالم الدولة الفاطمية « وقطع دابرها ومحو آثارها » . ومن ذلك ما يرويه المقريزى أنه نزع المناطق الغضة التى كانت بمحاريب جوامع القاهرة ، والتى كانت تحمل أسماء الخلفاء الفاطميين . وقد ذكر ابن واصل أن الخطبة قطعت للعباسيين من مصر سنة ٣٥٨ هـ ، وأنها عادت سنة ٥٦٧ هـ ، فكانت مدة انقطاعها من مصر نحوا من مائتى سنة وتسع سنين . ولم تلبث أن أقيمت الاحتفالات فى بغداد تعبيرا عن شعور الفرح بذلك النصر الضخم الذى تحقق للخلافة العباسية ، فأسرع الخليفة العباسى المستضىء الى ارسال الخلع الى نور الدين وصلاح الدين ، ومعها الأعلام والرايات السود شعار العباسيين .

* * *

صلاح الدين ونور الدين :

ولم تلبث الوحشة أن دبت بين صلاح الدين ونور الدين عقب اسقاط الخلافة الفاطمية سنة ١١٧١ ، بسبب تحديد العلاقة بين الأول والثانى ، أو تحديد الخيوط التى تربط صلاح الدين بسيدة نور الدين . فحتى ذلك الوقت كان صلاح الدين يباشر سلطانه الفعلى فى مصر بوصفه وزيرا شرعيا للخليفة العاضد

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ٣٥٦ .

الفاطمى ؛ فضلا عن أنه كان ينفذ التعليمات الصادرة اليه من سيده نور الدين بوصفه نائبا عنه وقائدا لقواته فى مصر . ولكن بسقوط الخلافة الفاطمية ووفاة الخليفة العاضد « صفا الوقت لصلاح الدين » على قول أبى المحاسن ؛ وصار يخطب باسمه على منابر مصر بعد الخليفة العباسى والملك العادل نور الدين محمود .

ولعله من الواضح أنه كان لزاما على صلاح الدين فى ذلك الدور أن يحدد موقفه من نور الدين ويختار لنفسه أحد طريقين ، فاما أن يظل على ولائه لنور الدين بوصفه نائبا عنه فى مصر ؛ وفى هذه الحالة عليه أن يتقبل فى أية لحظة قرار نقله واحلال من يحل محله فى حكم مصر ؛ واما أن يستقل عن نور الدين ويخرج عن طاعته ويجعل من نفسه ملكا على مصر مما يعرضه لنقمة نور الدين وهجمات جيوشه . وليس هناك من شك فى أن صلاح الدين الذى خبر أحوال مصر وأدرك أهميتها ومدى ثروتها ؛ عز عليه أن يتخلى عنها ويحرم منها لمجرد الحرص على ولائه لنور الدين . وتشير الشواهد كلها الى أنه أخذ يمكن لنفسه فى مصر ويستعد لما عساه يتعرض له اذا تطورت العلاقات بينه وبين نور الدين تطورا سيئا . من ذلك أن صلاح الدين زار الاسكندرية وتفقد تحصيناتها كما أخذ يفكر فى الاستيلاء على برقة طمعا فى ثروتها [1] .

---

(١) المقريزى : السلوك ؛ ج ١ ص ٤٨ .

ويضرب لنا ابن الأثير مثلا لحالة الوحشة التى سادت العلاقات بين صلاح الدين ونور الدين بعد وفاة الخليفة العاضد الفاطمى ؛ فيقول ان صلاح الدين خرج من مصر فى أواخر سبتمبر سنة ١١٧١ بناء على أوامر صدرت اليه من نور الدين لمهاجمة حصن الشوبك فى وادى عربة . ولم تستطع حامية الحصن الثبات فى المقاومة ، فطلبت اعطائها مهلة عشرة أيام للتسليم . ولكن صلاح الدين لم يلبث — وهو أمام الشوبك — أن علم بمسير نور الدين اليه لمساعدته ؛ وعندئذ تخوف صلاح الدين من نوايا سيده نور الدين ، وأدرك أنه من المخاطرة أن يبقى أمام الشوبك لحين حضور نور الدين اليه ؛ اذ ربما استغل نور الدين الفرصة وقبض على صلاح الدين وعزله من منصبه بعد أن تضخم نفوذه فى مصر . ويبدو أن أصحاب صلاح الدين وخواصه هم الذين « خوفوه من الاجتماع بنور الدين » وقالوا له انه اذا تم الاجتماع فحينئذ « يكون هو المتحكم فيك ان شاء تركك وان شاء عزلك ! » . لذلك أسرع صلاح لدين بالانسحاب الى مصر قبل وصول نور الدين فى أواخر أكتوبر سنة ١١٧١ ، معتذرا بأنه لابد له من الاسراع بمساعدة أخيه الذى يحارب بقايا أتباع الفاطميين بالصعيد ، وبأن ثورة العلويين تنذر بالانفجار فى القاهرة مما تطلب سرعة عودته (١) .

---

(١) ابن الأثير : الكامل : حوادث سنة ٥٦٧ هـ . ، التاريخ الباهر ، ص ١٥٨ .

على أن مثل هذا السلوك لم يكن له سند قوى يبرره ، فاستاء نور الدين من مسلك نائبه فى مصر « وعظم عليه ذلك .. ولم يقبل عذره » . وكان أن أخذ نور الدين يستعد للزحف على مصر لتأديب صلاح الدين الذى أسرع بعقد اجتماع من أهل بيته وأمرائه لبحث الموقف على عجل والاتفاق على خطة لمواجهة نور الدين . وقد بدأ الكلام فى ذلك الاجتماع بعض الشبان المتحمسين — مثل المظفر تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين — الذى اندفع قائلا « اذا جاء (نور الدين) قاتلناه وصددناه عن البلاد » ؛ وانضم الى تقى الدين فى الرأى بعض الحاضرين . ولكن والد صلاح الدين — وهو الشيخ نجم الدين أيوب — تدخل فى الحال ، فشتم أولئك المتهورين وأنكر عليهم تفكيرهم ، ثم اتجه نحو صلاح الدين وقال « أنا أبوك ، وهذا شهاب الدين الحارمى خالك ، أتظن فى هؤلاء من يحبك ويريد لك الخير أكثر منا ؟ » . قال صلاح الدين « لا » . فقال والده نجم الدين أيوب « لو رأيت أنا وخالك هذا السلطان نور الدين لم يمكننا الا أن نترجل له ونقبل الأرض بين يديه ، ولو أمرنا بضرب عنقك بالسيف لفعلنا !! فاذا كنا نحن هكذا فكيف يكون غيرنا ؟ وهذه البلاد له ، وقد أقامك فيها نائبا عنه ، فاذا أراد عزلك فأى حاجة الى المجىء ؟ يأمرك بكتاب مع نجاب حتى تقصد خدمته ويولى البلاد من يريد » . وبعد ذلك التفت نجم الدين الى جموع الحاضرين وقال لهم « قوموا عنا ؛ فنحن مماليك نور الدين وعبيده يفعل بنا ما يريد !! » فتفرق الجميع ، وبادر بعضهم

بالكتابة الى نور الدين بما حدث . وعندما خلا نجم الدين بابنه صلاح الدين قال له : « أنت جاهل قليل المعرفة !! تجمع هذا الجمع الكثير وتطلعهم على ما فى نفسك ! ؟ فاذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد جعلك من أهم أموره وأولاها بالقصد . ولو قصدك لم تر معك من هذا العسكر أحدا ، وكانوا يسلمونك اليه . وأما الآن بعد هذا المجلس سيكتبون اليه يعرفونه قولى ! » ثم طلب نجم الدين من ولده صلاح الدين أن يكتب الى نور الدين يعرب له عن ولائه ، ففعل ذلك . كذلك خرج صلاح الدين بنفسه فى العام التالى — سنة ١١٧٣ — لغزو الكرك والشوبك وغيرهما من الحصون الصليبية القريبة لاثبات حسن نيته لسيده نور الدين . بل لقد بالغ صلاح الدين — عملا بنصيحة والده — فأرسل هدية ثمينة من الحيوانات النادرة والأقمشة والمصنوعات والعطر . هذا وان كان ابن واصل يذكر أن نور الدين لم تعجبه الهدية واستقلها « ولم تقع منه بموقع » . ويبدو أن نور الدين كان سمع أخبارا مبالغ فيها عن ثروة الفاطميين وما استولى عليه صلاح الدين من قصورهم ، حتى أنه أرسل أحد رجاله « مطالبا لصلاح الدين بالحساب عن جميع ما أخذه من قصور الخلفاء » (١) .

ومهما يكن من أمر ، فقد نجحت خطة الشيخ نجم الدين

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ٢٢٢ — ٢٢٤
المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٩ — ٥٢

أيوب ، فاطمئن نور الدين من ناحية صلاح الدين « وترك قصته واشتغل بغيره ، فكان الأمر كما ظنه أيوب » . على أن صلاح الدين — رغم ذلك — لم يتقاعس عن حماية مكاسبه التى حققها فى مصر ، ولم يشأ أن يتخلى عن مطامعه ، وانما فضل أن يستعد لما عساه يحدث فى المستقبل . وشارك صلاح الدين فى رأيه بعض أفراد أسرته الذين أتوا الى جانبه فى مصر ، حتى استقر رأيهم على « تحصيل مملكة يقصدونها ويتملكونها تكون عدة لهم اذا أخرجهم نور الدين من مصر ساروا اليها وأقاموا بها » . وربما كان ذلك هو السر فى أن صلاح الدين أرسل أخاه شمس الدولة توران شاه ابن أيوب فى أواخر سنة ١١٧٣ لفتح بلاد النوبة حتى تصبح مأوى للأيوبيين فى حالة دخول نور الدين مصر وتغلبه على صلاح الدين . ولكن تقرير توران شاه عن بلاد النوبة أظهر لصلاح الدين أنها بلاد فقيرة « قليلة الجدوى » ؛ فأرسل صلاح الدين أخاه توران شاه الى اليمن سنة ١١٧٤ حيث أخضعها وأدخلها تحت سيادة بنى أيوب [1] .

ويبالغ ابن الأثير ، فيذكر ان صلاح الدين حرص فى ذلك الدور أيضا على عدم التوسع فى حرب الصليبيين ليظلوا ستارا يفصل بينه وبين نور الدين ، فقال ان صلاح الدين « كان يعتقد أن نور الدين متى زال الفرنج عن طريقه أخذ البلاد منه ، فكان

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٠٨ — ٢٠٩ ، ٢١٦ — ٢١٧ .

يحتمى بهم عليه ولا يؤثر استئصالهم » [1] واذا كان صلاح الدين قد قام بغزو أراضى الصليبيين فى الكرك والشوبك سنة ١١٧٣ بناء على نصيحة والده ، فان تلك الغزوة لم تطل ؛ بل على العكس أدت الى تجدد الخلاف بينه وبين نور الدين . ذلك أن صلاح الدين لم يكد يشرع فى حصار الكرك ، حتى عاد وتخوف أن يغدر به نور الدين الذى كان هو الآخر قد اقترب فعلا من الكرك . وهكذا تحجج صلاح الدين بمرض أبيه نجم الدين أيوب — الذى كان صلاح الدين قد استخلفه فى مصر — « وأنه يخاف أن يحدث عليه حادث الموت فتخرج البلاد عن أيديهم » ؛ فأسرع فورا بالعودة الى مصر دون أن ينتظر وصول سيده نور الدين . والواقع ان نجم الدين أيوب توفى فعلا قبل عودة صلاح الدين الى القاهرة ، ولكن وفاته كانت بسبب سقوطه من فوق فرسه [2] . أما عن نور الدين محمود فيبدو أنه أيقن يقينا لا يشوبه أدنى شك فى اتجاهات صلاح الدين ونواياه ، فقرر نهائيا غزو مصر والقضاء عليه « وشرع يتجهز للدخول الى مصر لأخذها من صلاح الدين » . ولكن شاءت الأقدار أن تترك صلاح الدين حرا فى تخطيط مستقبله ومستقبل الوطن العربى فى الشرق الأدنى ، فتوفى نور الدين سنة ١١٧٤ قبل أن يحقق غرضه ، وبذلك ترك الميدان خاليا أمام أطماع صلاح الدين .

* * *

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ١٦١ .
(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ؛ ص ٧٦ .

صلاح الدين يوطد نفوذه فى مصر

على أن المتاعب التى أقلقت بال صلاح الدين فى مصر فى ذلك الدور لم تأت فقط من جانب مخاوفه من سيده نور الدين ، وانما ثمة متاعب داخلية فى مصر هددت نفوذ صلاح الدين فى مصر فى ذلك الدور وأوشكت أن تعصف به وبالبذور الأولى لدولته . ذلك أنه لم يكن معنى القضاء على قوة السودان ثم سقوط الخلافة الفاطمية ووفاة الخليفة العاضد .. لم يكن معنى ذلك كله استقرار الأوضاع فى داخلية مصر نهائيا لصلاح الدين . فاذا كانت الخلافة الفاطمية فى ظاهر أمرها قد ماتت موتا صامتا ، الا أن الوضع الجديد فى البلاد أغضب المخلصين من الشيعة فى مصر . هذا بالاضافة الى أتباع النظام القديم والمستفيدين منه ؛ وجلهم من الانتهازيين الذين عز عليهم أن ينقضى زمن الفوضى وأن يسيطر على البلاد رجل قوى مثل صلاح الدين .

ولم تلبث أن دبرت مؤامرة فى القاهرة (مارس — أبريل ١١٧٤) اشتركت فى حبك أطرافها جميع العناصر الناقمة على الوضع الجديد بقصد احياء الخلافة الفاطمية « واقامة الدعوة العلوية وردها الى ما كانت عليه » . وكان على رأس هذه المؤامرة الشاعر عمارة اليمنى الذى وصفه المؤرخ ابن واصل بأنه كان « شديد التعصب لهم » أى للفاطميين على الرغم من أنه كان سنيا شافعيا « ولم يكن على مذهبهم » ؛ وفسر ذلك بأنه وفد عليهم من اليمن فأحسنوا اليه وصار « صنيعة الاحسان » [١] .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ١ ص ٢١٢ .

وبالاضافة الى عمارة اليمنى ، يذكر التاريخ عدة أسـماء ممن خططوا لتلك المؤامرة ، منهم عبد الصـمد الكاتب والقاضى العوريسى داعى دعاة الشيعة ، وابن عبد القوى ، فضلا عن عدد آخر كبير من أتباع الدولة الفاطمية من الموظفين وبقايا الجنـد السودان وخدم القصر الفاطمى وغيرهم .

وعنـدما أدرك المتآمرون أنهم فى حاجة الى مساندة قوة خارجية لضمان نجاح مؤامرتهم ، أقدموا على الاتصال بالحشيشية الباطنية من ناحية وبالصليبيين من ناحية أخرى . وكان أن أرسل المتآمرون الى شيخ الجبل مقدم الاسماعيلية بالشام يقولون له « ان الدعوة واحدة والكلمة جامعة » ؛ ويطلبون منه ايفـاد « من يقم على الملوك غيلة » لقتل صلاح الدين . أما الخطة التى وضعها المتآمرون فقد قضت بأن يقوم الصليبيون بغزو مصر ، فى الوقت الذى يشعلون الثورة فى القاهرة والفسطاط ، وبذلك يقع صلاح الدين بين نارين ، ويسهل القضاء عليه .

ولم يكتف المتآمرون بالاتصـال بعمـورى الأول ملك بيت المقدس ، وانما اتصلوا أيضا بوليم الثانى النـورمانى ملك صقلية ، حتى يهاجم أسطوله الاسكندرية فى الوقت الذى يدهم الصليبيون مصر من ناحية الشرق . وقد تم الاتفاق بين المتآمرين من ناحية وملكى بيت المقدس وصقلية من ناحية أخرى على جميع تلك التفاصيل ، بحيث « لم يبق الا رحيل الفرنج » على قول

ابن الأثير [1] . واختار المتآمرون فرصة غياب توران شاه فى اليمن موعدا لتنفيذ مؤامرتهم ، حتى لا يحل محل أخيه فى حالة مقتله ، كما عينوا أعضاء الجهاز الحكومى الجديد « وعينوا الخليفة والوزير وتقاسموا الدور والأملاك » ؛ بحيث غدا كل شيء معدا للتنفيذ .

وقبل البدء فى تنفيذ المؤامرة ، أرسل عمورى الأول رسولا الى القاهرة يحمل فى ظاهر الأمر تحيات الملك الصليبى لصلاح الدين ، ولكنه فى حقيقة أمره أتى ليرسم الترتيبات النهائية مع المتآمرين قبل التنفيذ . وفى الوقت نفسه استجاب وليم الثانى ملك صقلية لدعوة المتآمرين ، فأعد أسطولا ضخما من ستمائة سفينة تحمل قرابة ثلاثين ألف رجل للمشاركة فى غزو مصر .

ولكن الخيانة لم تلبث أن انكشفت وتم احباط المؤامرة فى اللحظة الأخيرة . ذلك أن المتآمرين أشركوا معهم فى سرهم الفقيه الواعظ زين الدين على بن نجا ، فقام هذا الفقيه باطلاع صلاح الدين على جميع حلقات المؤامرة أولا بأول . وفى الوقت نفسه وصل المبعوث الذى أرسله عمورى الأول الى القاهرة محملا بالهدايا وعبارات الود لصلاح الدين ، فانكشف أمره بعد أن راقبه صلاح الدين عن طريق بعض أقباط مصر . ولم يكد صلاح الدين يتأكد من تفصيلات المؤامرة حتى قبض على المتآمرين فورا وصلب زعماءهم الشاعر عمارة اليمنى وعبد الصمد

---

(1) ابن الأثير : الكامل : حوادث سنة ٥٦٩ هـ .

الكاتب والعوريس القاضى فى آبريل سنة ١١٧٤ ، فى حين اختفى آخر الأمراء الفاطميين وهو ابن الخليفة العاضد [١] .

ولم يلبث صلاح الدين أن وجه جهوده بسرعة لاخماد ثورة أخرى قامت فى أسوان على حدود النوبة ، أشعلها أحـد القادة الفاطميين واسمه كنز الدولة (الكنز) الذى جمع حوله فى أسوان بعض العناصر من الشيعة والجند السودان وغيرهم ، وأوهمهم « أنه يملك البلاد ويعيد الدولة العبيدية (الفاطمية) المصرية » ، وزحف بهم على قوص . ولكن الحملة التى أرسلها صلاح الدين بقيادة أخيه العادل سيف الدين استطاعت فى سبتمبر سنة ١١٧٤ أن تقضى على أولئك الجند السودان قضاء مبرما « فاستأصل شأفتهم وأخمد ثائرتهم » [٢] .

أما عمورى الأول ملك بيت المقدس ، فلم يكد يعلم بانكشاف سر المؤامرة فى القاهرة وفشل الخطة الموضوعة لغزو مصر ، حتى توفى فى بيت المقـدس وسـط جـو من خيبة الأمل فى صيف سنة ١١٧٤ . ولم يلبث أن وصل أسطول صقلية الذى أرسله وليم النورمانى الى مياه الاسكندرية فى أواخر يوليو ليجد أن كل شىء قد انتهى ، وأن فشل المؤامرة من جهة ووفاة عمورى الأول من جهة أخرى جعلت غزو مصر غير ذى موضوع . ومـع

(١) المرجع السابق ، ابن واصل : مفـرج الكـروب ؛ ج ١ ص ٢٤٧ .

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٧٩ ؛ المقـريزى : السلوك ؛ ج ١ ص ٥٧ ـ ٥٨

ذلك فان الأسطول النورمانى الذى وصل أمام الاسكندرية فى ٢٨ يوليو سنة ١١٧٤ نجح فى انزال قواته على الشاطىء ؛ كما دمر بعض السفن التجارية الراسية فى ميناء الاسكندرية . وقد حاول النورمان اقتحام الاسكندرية وشددوا هجماتهم عليها ، ولكن المسلمين ثبتوا لهم وأحرقوا بعضا من سفنهم ؛ فى الوقت الذى قدم صلاح الدين مسرعا ومعه جيشه ، فهاجم النورمان وأغرق بعض سفنهم وأحرق خيامهم وأنزل بهم الهزيمة . وهكذا « بقى العدو بين قتل وغرق وأسر » ؛ فاضطر النورمان الى الاقلاع بسفنهم فورا « وعادوا خائبين خاسرين » (١) .

وهكذا نستطيع أن نقرر أن صلاح الدين استطاع أن يفرغ من مشاكله الداخلية فى مصر وأن يدعم نفوذه تماما فى هذه البلاد فى خريف سنة ١١٧٤ ؛ ولم يبق بعد ذلك سوى أن يوجه صلاح الدين جهوده ضد الصليبيين بالشام . غير أن صلاح الدين كان أعقل من أن يدخل معركة فاصلة ضد الصليبيين قبل أن يدعم الوحدة الاسلامية فى الشرق الأدنى .

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ؛ ج ١ ص ٢٣٥ .

الفصل الثالث

تدعيم الوحدة

لم يكن عجبا أن يعتقد صلاح الدين بعد هذا التوفيق الذى أصابه فى مصر أنه هو الوارث الحقيقى لدولة نور الدين وسياسته فى توحيد المسلمين فى الشرق الأدنى من ناحية وفى جهاد الصليبيين من ناحية أخرى . ولكن اذا كان صلاح الدين قد افترض فى نفسه أنه الوارث الروحى للدولة النورية ، فان هذا كان يعنى أيضا أنه الوارث لجميع المشاكل التى ترتبت على سياسة نور الدين الواسعة ، سواء فى الميدان الاسلامى أو فى الميدان الصليبى . وقد أدرك صلاح الدين أن عليه أن يبدأ أولا بتدعيم الوحدة الاسلامية ، ولكن دون أن يهمل الجانب الصليبى اهمالا تاما حتى لا يستغل الصليبيون انصرافه الى المشاكل الداخلية فى الوطن الاسلامى فى التوسع والعدوان . وهكذا يمكن القول أنه فى نهاية سنة ١١٧٤ انتهى الدور المصرى فى تاريخ صلاح الدين ، وبدأ دور جديد هو دور تدعيم الوحدة الاسلامية الذى امتد حتى سنة ١١٨٧ ؛ مع عدم اغفال ما قام به صلاح الدين أثناء هذا الدور الأخير من حروب ضد الصليبيين ؛

كانت لهـا أهميتها بالنسـبة لدور الجهـاد الأكبر الذى بدأ سنة ١١٨٧ .

والواقع ان وفاة نور الدين محمود فى قلعة دمشق فى منتصف مايو سنة ١١٧٤ أثارت مشكلة كبيرة ، هى تقسيم دولته الواسعة بين ورثته ، مما هـدد الوحدة الاسـلامية التى أجهد نفسه فى بنائها . وكان الوريث الأول لنور الدين — الذى ورثه فى ملك حلب ودمشق — هو ابنه الملك الصالح اسماعيل الذى لم يتجاوز سنه عند وفاة أبيه الحادية عشرة . على أنه وجد للملك الصالح اسماعيل هـذا ابن عم — هـو سيف الدين غـازى الثـانى ابن قطب الدين مودود بن زنكى — أتابك الموصل الذى « فرح بوفاة عمه نور الدين ، وأظهر الفسق ، وأمر باعادة المكوس ، وتظاهر بالمنكرات » (١) . ولا أدل على قصر تفكير سيف الدين هذا من أنه بدلا من أن يعمل عـلى الاحتفاظ بوحـدة الدولة النورية ، لجأ الى تفتيتها ؛ فلم يكد يعلم بوفاة عمه حتى أسرع الى احتلال نصيبين والخابور وحران والرها وسروج والرقة وغيرها من الأماكن التى كانت تابعة لنور الدين فى الجزيرة .

ثم ان النزاع لم يلبث أن نشب كذلك بين أقوى اثنين من أمراء نور الدين ، هما شمس الدين على بن الداية ، والأمـير شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم . وكان النزاع بين هذين الأميرين بسبب الوصاية على الملك الصـالح

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ٢ ص ٩ .

اسماعيل بن نور الدين ؛ فاحتل ابن الداية قلعة حلب بوصفها مركز الدولة النورية ، فى حين تحفظ ابن المقدم على شخص الملك الصالح اسماعيل فى دمشق .

أما صلاح الدين فقد صار لا سلطان لأحد عليه بعد وفاة نور الدين محمود . وقد أشار القاضى كمال الدين الشهرزورى على الأمير ابن المقدم وعلى بقية الأمراء بالرجوع الى رأى صلاح الدين فى مصر لحل مشاكلهم والانقياد له ؛ وقال لهم « المصلحة أن يشاور (صلاح الدين) فى الذى نفعله ولا نخرجه من بيننا فيخرج عن طاعتنا ويجعل ذلك حجة علينا ؛ وهو أقوى منا لانفراده بملك ديار مصر » . ولكنهم أبوا أن يأخذوا بهذا الرأى وخافوا تدخل صلاح الدين . والواقع انه كان من الممكن أن يتدخل صلاح الدين فى شئون الشام عقب وفاة نور الدين مباشرة ، لولا وصول الأسطول النورمانى الى الاسكندرية — كما سبق أن أشرنا — مما أخره بعض الوقت ؛ فاكتفى بأن أرسل الى دمشق معلنا حقه فى الوصاية على الصالح اسماعيل وأملاك نور الدين ، وقال انه « لو لم يعجل عليه (نور الدين) الموت ؛ لم يعهد الى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته سواى » (١) .

وقد حاول عمورى الأول ملك بيت المقدس أن يستغل تلك الظروف التى أضحت فيها دولة نور الدين ليستولى على

---

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر ؛ ص ١٦٣ .

بانياس ، ولكن المدينة صمدت لحصاره أسبوعين ، فى الوقت الذى خرج الأمير ابن المقدم على رأس الجيش الدمشقى للدفاع عنها . على أن ابن المقدم رفض أن يحارب الصليبيين « وراسلهم ولاطفهم » ؛ واكتفى بأن عرض عليهم ترك بانياس مقابل مبلغ كبير من المال واطلاق سراح أسرى الصليبيين فى دمشق ، ثم محالفة الصليبيين ضد صلاح الدين وأطماعه . ولم ينس ابن المقدم فى عرضه هذا أن يلوح للصليبيين بأنه سيضطر الى الاستعانة بسيف الدين فى الموصل وصلاح الدين فى مصر ان لم يتركوا حصار بانياس ، مما يعرضهم للخطر من كل ناحية . كذلك لفت ابن المقدم نظر الصليبيين الى أن صلاح الدين كان يخشى المجىء الى الشام خوفا من الاصطدام مع نور الدين ، ولكن « الآن زال ذلك الخوف ، واذا طالبناه الى بلادكم لا يمتنع » ويبدو أن هذا الانذار كان له أثره فى نفوس الصليبيين ، فوافق عمورى على عقد الصلح ورفع الحصار عن بانياس ، وارتد عائدا الى بيت المقدس . ويروى أبو شامة أنه عندما علم صلاح الدين بسلوك ابن المقدم استاء « واستصغر أمر أهل الشام وعام ضعفهم » . ثم ان صلاح الدين أدرك أن الاتفاق والصلح مع الصليبيين انما موجهان ضده ، فأرسل الى الملك الصالح اسماعيل وأمراء بلاطه « يقبح لهم ما فعلوه » (١) . وهكذا أدى تفكك دولة نور الدين الى اتاحة الفرصة لعمورى ليستغل دمشق فى ضرب بقية القوى الاسلامية فى الشرق الأدنى . على أن

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ٢ ص ٨ .

عمورى لم يستطع المضى فى تلك السياسة بسبب وفاته فى يوليو سنة ١١٧٤ ، مما أضاع على الصليبيين فرصة طيبة لاستغلال الانقسامات التى حدثت بين أمراء الدولة النورية عقب وفاة نور الدين .

وقد زاد من حدة هذه الانقسامات أنها لم تقتصر على ما كان هناك من أطماع سيف الدين غازى الثانى أتابك الموصل ، أو ما نشأ من تنافس بين ابن المقدم فى دمشق وابن الداية فى حلب ؛ بل ظهر أيضا طرف جديد فى النزاع هو سعد الدين كمشتكين الخادم ، وهو أحد أمراء نور الدين . وقد نجح هذا الأمير فى نقل الملك الصالح اسماعيل من دمشق الى حلب بوصفها القاعدة الرئيسية للدولة (صيف ١١٧٤) . ثم قبض سعد الدين كمشتكين على شمس الدين ابن الداية واعتقله وانفرد هو « بأتابكيه الملك الصالح اسماعيل واستبد بتدبير أموره » .

ولا شك فى أن ذلك الموقف الجديد أثار مخاوف ابن المقدم وبقية الأمراء فى دمشق ، فاستنجدوا بسيف الدين غازى الثانى أتابك الموصل ، وعرضوا عليه تسليمه دمشق . وشاءت الأقدار أن يتراخى سيف الدين فى تلبية تلك الاستغاثة ، مما جعل ابن المقدم وشركاه يتخذون خطوة ذات أثر حاسم فى تاريخ الحروب الصليبية وفى تاريخ الشرق الأدنى فى ذلك العصر ، فدعوا صلاح الدين نفسه ليتسلم دمشق [١] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٧٠ هـ .

ملك مصر والشام :

ولن تكن تلك الدعوة فى حد ذاتها غريبة على صلاح الدين أو مفاجئة له ، وهو الرجل الذى أخذ يعد نفسه منذ وفاة سيده نور الدين للقيام بالوصاية على دولته وسياسته ، وحجته فى ذلك أن « الملك الصالح صبى لا يستقل بالأمر ولا ينهض بأعباء الملك » . وقد أرسل صلاح الدين — عندما علم باختلال الأمور فى الدولة النورية — الى أمراء نور الدين بالشام يقول لهم « لو أن نور الدين علم أن فيكم من يقوم مقامى أو يثق اليه مثل ثقته بى ، لسلم اليه مصر التى هى أعظم ممالكه وولاياته . وأراكم قد تفردتم بمولاى وابن مولاى دونى ؛ وسوف أصل الى خدمته وأجازى كلا منكم على سوء صنيعه فى ترك الذب عن بلاده !! » .

وكان أن خرج صلاح الدين الى الشام على رأس سبعمائة فارس ، بعد أن استخلف على ديار مصر أخاه الملك العادل ؛ فوصل دمشق فى أواخر نوفمبر سنة ١١٧٤ دون أن يصطدم — لحسن حظه — بالصليبيين أثناء الطريق . وهنا نؤكد أن خروج صلاح الدين الى الشام سنة ١١٧٤ لم يكن لمجرد الرغبة فى تحقيق أطماع ومكاسب شخصية ؛ وانما ظهر الاتجاه واضحا فى سياسته الخاصة بتحقيق الوحدة الاسلامية والقضاء على عوامل الفرقة التى ظهرت فى الدولة النورية ، بقصد مواجهة الصليبيين صفا واحدا متراصا . وتدل على ذلك التصريحات التى صرح بها صلاح الدين عند خروجه الى الشام ، اذ قال ما نصه « لو استمرت

ولاية هؤلاء القوم تفرقت الكلمة وطمع الكفار فى البلاد » . كذلك قال « انا لا نؤثر للاسلام وأهـله الا ما جمع شـملهم وألف كلمتهم » (١) .

ومهما يكن من أمر ، فان صلاح الدين استقبل فى دمشق استقبالا طيبا ، وقضى ليلة وصوله فى دار أبيه ، المعروفة بدار العقيقى . وفى الصباح التالى فتح له ابن المقدم أبواب قلعة المدينة وسلمها اياه . ولكن يلاحظ أنه اذا كان صلاح الدين قد استولى على دمشق « من غير مدافع » ؛ واذا كان الدماشقة قد رحبوا بصلاح الدين كرها فى الحلبيين ونكاية فيهم ؛ الا أن صلاح الدين ظل فى ذلك الدور متظاهرا بولائه للصالح اسماعيل بن نور الدين ، وقال « أنا مملوك الصالح ، وما جئت الا لأنصره وأخدمه وأعد البلاد التى أخذت منـه اليه . وكان يخطب له فى بلاده كلها .. والخطبة والسكة (النقود) باسمه » (٢) كذلك أعلن صلاح الدين أنه ما حضر الى الشام الا لحماية الصالح من خطر الصليبيين ، ولاسترداد أملاك الصالح التى استولى عليها أتابك الموصل فى الجزيرة . وتحت هذا الستار — ستار رد حقوق الصالح اسماعيل والدفاع عنه « وتربيته وتدبير دولته » — أخذ صـلاح الدين ينفذ سياسته فى اعادة الجبهة الاسلامية الى سابق عهـدها ، بحيث تمتد من شمال العراق الى الشام فمصر ؛ ليتمكن بعد ذلك من توجيه حركة الجهاد ضد الصليبيين ، والمسلمون أشـد

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ٢ ص ١٨ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٧٠ هـ .

ما يكونون وحدة وتماسكا . ثم ان صـــلاح الدين اســتمال الدماشقة بتوزيع الأموال والهبات « فأنفق فى الناس مالا جزيلا ، وأمر فنودى باطابة النفوس وازالة المكوس ، وابطال ما أحدث بعد نور الدين من القبائح والمنكرات والضرائب » (١) . وبعد أن عين صلاح الدين أخاه سيف الاسلام طغتكين بن أيوب حاكما على دمشق باسم الصالح اسماعيل ، اتجه ليعاقب كمشتكين فى حلب .

وقد بدأ صــلاح الدين بالاســتيلاء على مدينة حمص فى ١٠ ديسمبر سنة ١١٧٤ من حكامها النوريين ، ثم على مدينة حماه فى ٢٨ من ذلك الشهر ؛ وبذلك لم ينته شهر ديسمبر الا وكان صلاح الدين واقفا على مشارف حلب نفسها . ولكن حلب قاومت ورفضت الاستسلام لصلاح الدين ؛ وفى الوقت نفسه لم يتردد أصحاب السلطان فيها فى الاستعانة بالباطنية والصليبيين . ولم يلبث سنان — مقدم الاسماعيلية الباطنية — أن أرسل الى معســكر صلاح الدين جماعة من الفدائيين لقتله . وعندما اقترب أولئك الفداوية من صلاح الدين وأوشكوا على تنفيذ مؤامرتهم ، انكشف أمرهم . وعنــدئذ أرسل الحلبيون الى ريموند الثالث أمير طرابلس الصليبى يطلبون منه المساعدة ويعدونه بثمن مغر اذا هو نجح فى تخليص حلب من حصار صلاح الدين . ويذكر ابن الأثير أن أمراء حلب طلبــوا من أمير طرابلس الصليبى أن

(١) المقريزى : السلوك ؛ ج ١ ص ٥٨ .

يهاجم بعض المراكز التى بيد صلاح الدين حتى يضطروه الى رفع الحصار عن حلب [1] .

وكان ريموند الثالث أمير طرابلس — والوصى أيضا على عرش مملكة بيت المقدس — يدرك تماما أهمية تحالف الصليبيين مع حلب ، كما أدرك خطورة قيام وحدة اسلامية تجمع بين القاهرة ودمشق وحلب . لذلك أسرع ريموند الثالث الى نجدة حلب ، وتظاهر بالقيام بدور حامى الصالح اسماعيل بن نور الدين . ويقول المؤرخ الصليبى وليم الصورى ان ريموند الثالث قام بذلك الدور عندئذ لا حبا للصالح اسماعيل ولا خدمة لحلب وأهلها ، وانما نكاية فى صلاح الدين ولكى يسد طريق الوحدة فى وجهه . وبعبارة أخرى فان الصليبيين أدركوا أن استقلال حلب وبقاءها فى قبضة البيت الزنكى ، هو الضمان الوحيد لمنع قيام وحدة اسلامية ، تمتد من النيل الى الفرات . ويروى صاحب كتاب الروضتين أن ريموند الثالث حاول الالتجاء الى الوسائل السياسية ومفاوضة صلاح الدين حول مسألة حلب ؛ فأرسل اليه يرغبه فى الصلح ، ويلوح له بأن « الفرنج قد تعاضدوا وصاروا يدا واحدة » . ولكن صلاح الدين لم يخش التهديد ورد قائلا « لست ممن يرهب بتأليب الفرنج » . ثم رد صلاح الدين

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ص ٢٤٠
ابن الأثير : الكامل ، حوادث ٥٧٠ هـ .

على الأمير الصليبى ردا عمليا بأن أرسل قواته للاغارة على امارة أنطاكية الصليبية « فغنموا غنيمة حسنة وعادوا » [1] .

لذلك لم يجد ريموند وسيلة لصرف صلاح الدين عن حلب سوى مهاجمة حمص التى كان صلاح الدين قد استولى عليها منذ أمد قريب . وفعلا نجحت الخطة ، فاضطر صلاح الدين فى أوائل فبراير سنة ١١٧٥ الى ترك حلب والاسراع لنجدة حمص ؛ وفى الحال انصرف ريموند الثالث الى حصن الأكراد بعد أن حقق غرضه . وقد عبر صلاح الدين عن ذلك الموقف فى خطاب له أرسله الى أخيه العادل ، وجاء فيه ان الحلبيين « قد استنجدوا بصلبانهم واستصالوا على الاسلام بعدوانهم » . أما كمشتكين حاكم حلب فقد عبر عن اعترافه بالجميل للصليبيين باطلاق سراح من كان فى قلعة حلب من أسرى الصليبيين وعلى رأسهم الفارس رينو دى شاتيون (أرناط) صاحب الدور الشهير مع صلاح الدين .

على أنه ثمة أهمية خاصة لهجوم صلاح الدين على حلب ، هى أن الزنكيين أدركوا أخيرا خطر صلاح الدين على كيانهم ، وضرورة اتحادهم لمواجهة ذلك الخطر المشترك . لذلك أرسل سيف الدين غازى الثانى — أتابك الموصل — جيشا الى الشام فى ربيع سنة ١١٧٥ بقيادة أخيه عز الدين . وبعد أن انضم الجيش الحلبى الى ذلك الجيش زحف الجميع على حماه ، وعندئذ عرض صلاح الدين على الزنكيين أن يترك لهم حمص وحماه

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ؛ ج ١ ص ٢٣٩ .

على أن يقنع هو بدمشق « نائبا عن الملك الصالح منتميا اليه » [1] .

ولكن الزنكيين كانوا يأملون فى استرداد دمشق عقب عودة صلاح الدين الى مصر ، فرفضوا ذلك العرض . وهكذا دارت معركة بين الجانبين عند قرون حماه فى أواخر ابريل سنة ١١٧٥ انتهت بانتصار صلاح الدين « وغنم كل ما معهم » ولم يضع صلاح الدين ثمرة انتصاره ، وانما زحف مباشرة على حلب حيث قطع الخطبة للصالح اسماعيل وأزال اسمه عن السكة ، فبعث أهل الصالح يلتمسون منه الصلح ، فأجابهم الى ذلك . أما شروط الصلح فقد قضت بأن « يكون له ما بيده من بلاد الشام ولهم ما بأيديهم منها » ؛ ثم استزاد صلاح الدين منهم المعرة وكفر طاب ، كما استولى على بعرين بعد ذلك . ولم يلبث أن ساعد الانتصار الذى أحرزه صلاح الدين فى قرون حماه على كشف النقاب عن حقيقة موقفه ، فلم يكتف بقطع الخطبة للصالح اسماعيل وازالة اسمه عن السكة ، وانما تلقب صلاح الدين أيضا بلقب مصر والشام . وهنا نلاحظ أن صلاح الدين لم يتخذ مطلقا فى حياته لقب « سلطان » ، هذا وان كان بعض المؤرخين مثل ابن شداد وابن واصل قد حرصوا على اضفاء هذا اللقب عليه [2] .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ٢ ص ٣٢

(٢) انظر :
سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ؛ ج ٢ ص ٧٤٦ .

ومهما يكن من أمر ، فان وضع صلاح لدين ازداد رسوخا بعد أن أقر الخليفة العباسى فى بغداد ذلك الوضع الجديد ، وأرسل اليه الخلع فوصلته فى شهر مايو وهو بحماه .

* * *

صلاح الدين بين ثلاث قوى :

على أنه اذا كان الصالح اسماعيل قد قبل — بحكم صغر سنه — سياسة الأمر الواقع ؛ فان ابن عمه سيف الدين غازى ابن مودود — أتابك الموصل — لم يستطع السكوت عما فعله صلاح الدين . لذلك أرسل غازى الى الحلبيين يعتب عليهم « ووبخهم ونسبهم الى العجلة فى ذلك (الصلح مع صلاح الدين) والى الضعف » ؛ كما حرضهم على نقض الصلح ومحاربة صلاح الدين . كذلك أرسل غازى سفارة الى ريموند الثالث صاحب طرابلس والوصى على مملكة بيت المقدس ، يطلب محالفته ومساعدته فى الخطوة التالية التى سيقوم بها الزنكيون ضد صلاح الدين . ولكى يثبت سيف الدين غازى حسن نواياه أرسل الى ريموند جميع من لديه من أسرى الصليبيين (مايو ١١٧٥) ، وبذلك عادت سياسة أنر الخاصة بالتحالف مع الصليبيين — الى الظهور ، مما هدد الجبهة الاسلامية تهديدا خطيرا .

والواقع ان الصليبيين لم يكفوا من جانبهم عن مهاجمة صلاح الدين فى ذلك الدور ، وان كانت هجماتهم ضعيفة الأثر

محدودة النطاق بسبب اضطراب أحوالهم الداخلية . من ذلك ما قام به بلدوين الرابع — ملك بيت المقدس الصغير — من غزو اقليم دمشق سنة ١١٧٥ ، مستغلا فرصة انشغال صلاح الدين فى شمال الشام . ومع ذلك فقد تذرع صلاح الدين بالصبر تجاه الصليبيين ، وجدد فى أغسطس سنة ١١٧٥ الهدنة التى عقدها مع مملكة بيت المقدس ، وذلك حتى لا يحارب فى جبهتين فى وقت واحد ، الزنكيين فى الشمال والشرق والصليبيين فى الجنوب والغرب .

وفى تلك الأثناء كان الزنكيون قد استعدوا وحشدوا كل قواهم للقيام بمحاولة أخيرة لطرد صلاح الدين من دمشق . ولم يلبث سيف الدين غازى أن جمع فى ربيع سنة ١١٧٦ أمراء الجزيرة وديار بكر ، ثم انضم اليهم كمشتكين على رأس القوات الحلبية ، وزحف الجميع على دمشق . ومع أن الأخبار بلغت صلاح الدين أن الحلبيين والمواصلة وحلفاءهم يبلغون عشرين ألف فارس ، الا أن صلاح الدين لم ييأس واستدعى فى الحال عسكره من مصر ؛ ثم تمكن من انزال هزيمة ساحقة بالحلفاء عند تل السلطان — على الطريق بين حلب وحماه — فى أواخر أبريل سنة ١١٧٦ (١) . وفى تلك الموقعة هلك من الحلبيين والمواصلة جماعة كثيرة ؛ واستولى صلاح الدين على « أموال وذخائر وفرش وأطعمة وتحف تجل عن الوصف » . ثم أتبع صلاح الدين

---

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٨٥ — ٨٦ .

ذلك النصر بقطع طريق المواصلات بين حلب والموصل ، فاستولى على قلعتى بزاعه ومنبج الى الشمال الشرقى من حلب . ولكى يحكم صلاح الدين حصاره حول حلب استولى أيضا على قلعة عزاز فى يونية سنة ١١٧٦ ، ثم شرع فى حصار حلب مرة أخرى . على أن صلاح الدين لم يلبث أن قبل الصلح أمام عناد حلب واصرار أهلها على عدم التسليم له . وتروى المراجع أنه عقب عقد الصلح ، جاءت أخت الصالح اسماعيل — وهى طفلة — لتزور صلاح الدين فى معسكره ، فتلطف معها وسألها عن الهدية التى تطلبها فأجابته « قلعة عزاز » ؛ وعندئذ رد صلاح الدين القلعة فورا لأخيها الصالح اسماعيل بن نور الدين .

أما الباطنية فلم يكونوا أقل من الصليبيين ذعرا لوحدة بلاد الشام ، وأخذوا يحاولون المرة تلو المرة قتل صلاح الدين . واذا كانت محاولتهم الأولى فى هذا الصدد قد باءت بالفشل ، فانهم لم يلبثوا أن أعادوا الكرة فى صيف سنة ١١٧٦ ، اذ تسلل أحد الفدائيين من الحشيشية الى معسكر صلاح الدين أثناء حصاره عزاز ، وطعنه بسكين فى رأسه فجرحه ؛ ولكن شاء حسن الحظ أن تكون الطعنات غير قاتلة ، وقتل الفدائى وزميلاه . وكان لابد لصلاح الدين من أن يثأر لنفسه من تلك الطائفة الهدامة ، فلم يكد يفرغ من عقد الصلح مع الحلبيين حتى اتجه لحصار مصياف « بلد الباطنية ، ليقابلهم على ما فعلوه من الوثوب عليه » . وكان أن نصب صلاح الدين المجانيق على حصن

مصياف (مصياب) « وأوسعهم قتلا وأسرا ، وساق أبقارهم وخرب ديارهم » ؛ حتى شفع فيهم صاحب حماه وهو شهاب الدين محمود الحارمى ، خال صلاح الدين . وقد فسر ابن واصل هذه الشفاعة فى ضوء رباط الجيرة بين شهاب الدين والباطنية ، فى حين يروى ابن الأثير أن راشد الدين سنان مقدم الباطنية أرسل الى شهاب الدين الحارمى يطلب منه أن يشفع فيهم ، ويقول له « ان لم تفعل قتلناك وجميع أهل صلاح الدين ! » . ويبدو أن هذه الرسالة أثارت الرعب فى قلب شهاب الدين ، الذى أسرع الى صلاح الدين وأقنعه برفع الحصار عن حصن مصياف [1] .

وفى تلك الأثناء لم يتقاعس الصليبيون عن مهاجمة صلاح الدين . فعندما شرع صلاح الدين فى حصار حلب عقب انتصاره على الزنكيين فى موقعة تل السلطان فى صيف سنة ١١٧٦ ، قام بلدوين الرابع — رغم صغر سنه ومرضه — بمحاولة لمنع صلاح الدين من الاستيلاء على حلب ؛ فأغار — بالاشتراك مع ريموند الثالث — على اقليم البقاع . وقد خرج شمس الدولة توران شاه — أخو صلاح الدين ونائبه فى دمشق — لرد الصليبيين عن بعلبك ، فأوقع بهم الهزيمة عند عين الجر . ولم يلبث أن ارتد الصليبيون بعد ذلك بسرعة عندما علموا باقتراب صلاح الدين . على أن صلاح الدين لم يشأ

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ١ ص ٤٧
ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٧٠ هـ .

أن يتعقبهم ،وانما فضل العودة الى مصر ، تاركا أخاه توران شاه فى دمشق ، فوصل القاهرة فى نهاية ديسمبر سنة ١١٧٦ .

وجدير بالذكر أنه قبل أن يعود صلاح الدين الى مصر فى تلك السنة ، لجأ الى الزواج من عصمة الدين خاتون ابنة معين الدين أنر وأرملة نور الدين محمود . وقد أشارت المراجع الى أن صلاح الدين اتخذ هذه الخطوة « حفظا لحرمتها وصيانتها وعصمتها » (١) . غير أننا نرى أن صلاح الدين انما قصد من الزواج من أرملة سيده نور الدين أن يمكن لنفسه ، حتى يظهر فى صورة وريث نور الدين محمود من ناحية ، وليقوى الرابطة بين شخصه وبيت نور الدين من ناحية أخرى ، مما يدعم مركزه ويمكنه من تحقيق مشاريعه فى المستقبل . ولم يكن صلاح الدين مبتدعا فى ذلك الزواج السياسى ، اذ سبق أن تزوج عماد الدين زنكى من صفوة الملك زمرد خاتون أرملة بورى أتابك دمشق سنة ١١٣٨ ، لأنه « ظن أنه يملك البلاد بالاتصال بها » (٢) .

وخلاصة القول ، ان صلاح الدين أخذ فى ذلك الدور يبذل كل ما فى وسعه لمقاومة الزنكيين والباطنية والصليبيين ، وهى القوى الثلاث التى تحالفت ضده لتحول دون تحقيق الوحدة الاسلامية بين العراق والشام ومصر ، مما يهدد الحلفاء الثلاثة جميعا .

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ص ٢٦٣ — ٢٦٤
(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ؛ ج ٢ ص ٧٥٠ .

صلاح الدين فى مصر :

عاد صلاح الدين الى القاهرة فى أواخر سنة ١١٧٦ ليقضى فى مصر بضعة أشهر قبل أن يعود الى الشام لمواجهة أخطار الصليبيين من ناحية واستئناف بناء الجبهة الاسلامية من ناحية أخرى . وتدل أعمال صلاح الدين فى ذلك الدور على أنه كان يتوقع خطرا جسيما ، مما جعله يمعن فى اتخاذ الاجراءات الدفاعية لحماية مصر والقاهرة مما يهددهما من أخطار . وقد فسر بعض الكتاب اهتمام صلاح الدين بتحصين القاهرة بوجه خاص ومصر بوجه عام فى ذلك الدور فى ضوء تخوف صلاح الدين من ثورة جديدة يقوم بها أتباع الفاطميين وشيعتهم فى مصر . ولكن يبدو لنا أن هذا الرأى بعيد عن الحقيقة ، وأن الرأى الأصح والأسلم هو أن صلاح الدين كان يتوقع خطرا خارجيا على مصر من جانب الصليبيين على وجه الخصوص .

والواقع ان صلاح الدين لم يكن مبالغا فى مخاوفه وظنونه ، لأن أنباء انتصارات صلاح الدين فى الشام فى الميدانين الاسلامى والصليبى ، وأخبار جهوده فى توحيد الجبهة الاسلامية وربط مصر والشام برباط قوى متين ، هذه الأخبار كلها أثارت مخاوف الصليبيين فى الشرق ودعاة الحروب الصليبية فى الغرب . وكان ان قدمت الى الشام سنة ١١٧٧ حملة صليبية صغيرة على رأسها فيلب الألزاسى كونت فلاندرز ، كما أرسل الامبراطور البيزنطى سفارة الى بيت المقدس تعرض على ملكها بلدوين الرابع احياء فكرة القيام بحملة صليبية مشتركة لغزو مصر . ولكى يكسب

الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين عرضه صفة جدية ، أرسل الى عكا أسطولا من سبعين سفينة تحمل قوة كبيرة من المحاربين استعدادا لغزو مصر .

ومهما يقال من أن الحملة الصليبية الفلمنكية باءت بالفشل وأن مشروع الحملة الصليبية البيزنطية على مصر سنة ١١٧٧ انتهى الى لا شيء ، فان الحقيقة التى تهمنا هى أن أخبار تلك المشاريع الصليبية ضد مصر كانت تصل من قريب أو بعيد الى صلاح الدين الذى أحس بضخامة المسئولية الملقاة على عاتقه ، وبأنه مطالب باتخاذ الاجراءات الوقائية للدفاع عن مصر عند تعرضها للخطر الصليبى المنتظر . وهذا هو السر فى سلسلة التحصينات التى نهض بها صلاح الدين فى ذلك الدور والتى تعبر عن مخاوفه من ناحية وعبقريته الحربية من ناحية أخرى .

ومن ناحية أخرى فانه لا يخفى علينا أن صلاح الدين كان بصدد القيام بعملية جهاد واسعة ضد الصليبيين بالشام ، وكان عندما عاد الى مصر فى أواخر سنة ١١٧٦ يعلم تماما أن المعركة المقبلة بينه وبين الصليبيين بالشام قد تطول ويطول معها بقاؤه بأرض الشام . فكيف يكون الحال لو تعرضت مصر فى تلك الأثناء لخطر حملة صليبية تأتى من غرب أوربا أو من القسطنطينية ؟ اذا لابد من أن يطمئن صلاح الدين على مصير مصر قبل أن يلقى بكل قواه فى معركة الجهاد ضد الصليبيين بالشام ؛ ولا أقل من أن يقوم بعمل بعض التحصينات فى مصر من نوع تلك التحصينات

التى شاهد صلاح الدين نماذج طيبة منها بالشام . ذلك أن صلاح الدين لابد وأن استرعت انتباهه أثناء عملياته الحربية بالشام ضد القوى الاسلامية والمسيحية سواء ، أن كل مدينة وبلدة لها قلعتها المحكمة القوية التحصين ، التى تصمد فى وجه الأعداء فيكون صمودها سببا لانقاذ المدينة أو البلدة من السقوط . وكان السؤال الطبيعى الذى لابد وأن راود تفكير صلاح الدين هو : ألا تستحق القاهرة وهى عاصمة البلاد المصرية ، أن تكون لها قلعة تصبح مركزا للدفاع عن البلاد والعباد ؟

وكان أن شرع صلاح الدين فورا فى بناء قلعة حصينة على جبل المقطم ، وهى القلعة التى عرفت باسم قلعة الجبل . وتتضح عبقرية صلاح الدين فى اختيار المكان الاستراتيجى الممتاز لتلك القلعة ، فهى تقع على أبرز صخور جبل المقطم عند القاهرة بحيث تهيمن على القاهرة هيمنة كاملة وتشرف عليها اشرافا تاما ، مما يمكنها من صد أى عدوان داخلى أو خارجى يقع عليها . وقد وضع صلاح الدين تصميم القلعة بحيث يكون البئر الخاص بها داخل أسوارها ليضمن لمن بداخل القلعة موردا ثابتا من المياه فى حالة تعرضها لحصار طويل ؛ ووصف ابن عبد الظاهر هذه البئر بأنها « من عجائب الأبنية تدور بالبقر من أعلاها فتنقل الماء من نقالة فى وسطها ، وتدور أبقار فى وسطها تنقل الماء من أسفلها ؛ ولها طريق الى الماء ينزل البقر الى معينها فى مجاز ؛ وجميع ذلك حجر منحوت ليس فيه بناء ، وقيل ان أرضها مسامته أرض

بركة الفيل وماؤها عذب »[1] ثم ان صلاح الدين أحاط قلعته بخندق عميق ، وقد شاهد الرحالة ابن جبير القلعة والخندق عندما زار مصر سنة ١١٨٣ فوصف القلعة بأنها «حصن حصين المنعة» ووصف الخندق بأنه « ينقر بالمعاول نقرا فى الصخر ، عجبا من العجائب الباقية الآثار » وقال ان المسخرين فى تلك الأعمال انما هم من أسارى الروم ، وربما قصد بالروم الصليبيين[2] .

ولم يكتف صلاح الدين بذلك ، وانما شرع فى بناء سور ضخم حول القاهرة ومصر ، واستعمل فى بنائه الحجر الجيرى المأخوذ من الأهرام ؛ وقيل ان بهاء الدين قراقوش الذى وكل اليه الاشراف على بناء القلعة والسور هدم بعض الأهرام الصغيرة فى منطقة الجيزة لاستغلال أحجارها فى تنفيذ مشاريعه ، ولكن يغلب على الظن أنه جمع الأحجار المتساقطة فى منطقة الأهرام واستغلها فى بناء السور . وقد استمر بهاء الدين قراقوش فى تلك الأعمال التحصينية حتى أتمها بعد سنوات طويلة ؛ وكان آخر ما قام به بناء حائط كبير خارج القاهرة على طريق الاسكندرية الصحراوى ، بقصد حماية العاصمة من أى هجوم صليبى يأتى عن طريق الاسكندرية . على أن بهاء الدين قراقوش راعى فى تصميم هذا الحائط أن يضم نحوا من أربعين قنطرة ،

---

(١) عن قلعة الجبل بالتفصيل انظر : ــ
نظير حسان سعداوى : التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين الأيوبى ص ٨٦ وما بعدها .

(٢) رحلة ابن جبير ، ص ٢٠ .

مما أتاح فرصة لاستغلال الماء المحجوز أمام الحائط فى رى أراضى الجيزة . هذا وان كان الرحالة ابن جبير يقول انه صلاح الدين بنى الحائط والقناطر « اعدادا لحادثة تطرأ من عدو يدهم جهة ثغر (الاسكندرية) عند فيض النيل وانغمار الأرض به ، وامتناع سلوك العساكر بسببه ، فأعد ذلك مسلكا فى كل وقت ان احتيج الى ذلك »[1] .

ومما يؤيد تخوف صلاح الدين فى ذلك الدور من تعرض مصر لهجوم صليبى من ناحية البحر أنه غادر القاهرة فى شعبان سنة ٥٧٢ هـ (فبراير ١١٧٧) لتفقد تحصينات دمياط والاسكندرية . وقد قصد صلاح الدين دمياط أولا حيث قضى يومين استعرض خلالهما ما جلبه أسطوله من غنائم الشام ؛ ثم واصل سيره بعد ذلك قاصدا الاسكندرية . وهناك فى الاسكندرية صام صلاح الدين بعض أيام رمضان وتفقد الأسطول وأمر باصلاح سفنه المتآكلة وخصص لذلك كل ما يلزم من أخشاب وحدايد ومؤن ، فضلا عن الرجال والمقاتلين .

* * *

صلاح الدين ومملكة بيت المقدس :

ولكن يبدو أن صلاح الدين أدرك فى ذلك الوقت فشل المشروع الصليبى للهجوم على مصر ، فآثر أن يتجه هو الى الشام ليهاجم مملكة بيت المقدس فى الوقت الذى كان جيش تلك

---

(١) رحلة ابن جبير ، ص ٢٢ .

المملكة موجودا فى شمال الشام ليشارك فيلب الألزاسى فى هجماته الفاشلة على حماه وحارم .

وكانت حركة صلاح الدين خاطفة سريعة ، ليكسب الوقت قبل عودة الجيوش الصليبية من الشمال ؛ فغادر العريش لينقض فى أواخر نوفمبر سنة ١١٧٧ على المراكز الصليبية على شاطىء فلسطين الجنوبى مثل الداروم وغزة . ولما وجد أن الداوية فى غزة استعدوا لهجومه وحصنوا قلعتهم ، اتجه بسرعة نحو عسقلان . ولم يلبث أن تحرج موقف مملكة بيت المقدس الصليبية بشكل واضح ، اذ لم يكن فيها عندئذ الا خمسمائة فارس . ومع ذلك ، فقد أظهر ملكها بلدوين الرابع همة كبيرة — رغم ظروفه الخاصة والعامة — ؛ فخرج الى عسقلان ومعه ما أمكنه جمعه من القادرين على حمل السلاح ، فضلا عن رجال الدين يحملون صليب الصلبوت . ولكن بلدوين الرابع ارتكب غلطة كبرى عندما تسرع فى دخول عسقلان ؛ لأن صلاح الدين حصره هو وقواته داخل أسوار المدينة ، ومن ثم أصبحت بقية مملكة بيت المقدس الصليبية دون ملك أو جيش . وهكذا أخذت جيوش صلاح الدين تغير على المدن والمعاقل الصليبية القريبة « ولما رأوا أن الفرنج خامدون انبسطوا واسترسلوا وتوسط السلطان البلاد » ، فأحرق المسلمون الرملة وهاجموا اللد ، حتى وصل الجيش الأيوبى الى الجهات الواقعة بين أرسوف ونابلس (١) .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ٢ ص ٥٩
ابن الأثير : الكامل ، حوادث ٥٥٩ هـ

وفى الوقت الذى شغل المسلمون بالغنائم « وانبسطوا وساحوا فى الأرض آمنين مطمئنين » استطاع بلدوين الرابع أن يشق طريقه الى خارج عسقلان بعد أن تأكد من ابتعاد صلاح الدين . وسرعان ما اجتمعت حول ملك بيت المقدس فلول الصليبيين وحاميات المدن الصليبية القريبة ، وباغتوا قوات صلاح الدين . ولم تلبث أن حلت الهزيمة بالمسلمين عند تل الصافية ، واستطاع صلاح الدين نفسه النجاة بصعوبة وعاد الى مصر فى حالة سيئة ، فوصل القاهرة فى ٨ ديسمبر سنة ١١٧٧ « وحلف لا تضرب له نوبة حتى يكسر الفرنج » [١] . أما بلدوين الرابع ملك بيت المقدس ، فانه بعد أن وزع الغنائم على رجاله قام بمطاردة بقايا القوات الاسلامية حتى عسقلان ، ثم قفل راجعا الى بيت المقدس حيث استقبل استقبال الأبطال .

ولا شك فى أن انتصار الصليبيين فى موقعة تل الصافية دعم مركزهم وأعاد الثقة الى نفوسهم ، فأخذوا يهاجمون المسلمين فى شمال الشام ، ويدعمون مراكزهم فى جنوبه . من ذلك ما يرويه ابن الأثير من هجوم الصليبيين على اقليم حماه ثم على منطقة شيزر فى صيف سنة ١١٧٨ ، حيث « نهبوا وخربوا القرى وأحرقوا وأسروا وقتلوا » . أما فى الجنوب فقد شرع بلدوين الرابع فى تحصين مملكته ضد أى هجوم منتظر عن طريق دمشق ، فشيد قلعة جديدة قرب بانياس عند بيت يعقوب بمكان يعرف

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ؛ ج ١ ص ٥٧٣ .

بمخاضة الأحزان » وهى القلعة التى صار اسمها فى نهاية القرن الثالث عشر حصن جسر بنات يعقوب [1] ؛ والتى تمتعت بأهمية كبرى لوقوعها على الطريق بين طبرية وصفد من ناحية ودمشق من ناحية أخرى . وقد بدأ فى تشييد ذلك الحصن فى أكتوبر سنة ١١٧٨ ، ووصف أبو شامة عرض حائطه بأنه زاد على عشر أذرع « وقطعت له عظام الحجارة كل قص منها من سبع أذرع الى ما فوقها وما دونها ، وعدتها تزيد على عشرين ألف حجر » . وقد تخوف أمراء صلاح الدين من بناء ذلك الحصن وذكروا له أنه « متى أحكم ذلك الحصن تحكم من الثغر الاسلامى الوهن وغلق الرهن » [2] .

ولكن صلاح الدين — الذى عاد الى الشام فى ربيع سنة ١١٧٨ — لم يحاول وقف بناء الحصن المذكور ، وقال « اذا أتموه نزلنا عليه وهدمناه الى الأساس » . وربما شغل صلاح الدين عندئذ بحصار بعلبك التى أراد أخذها من ابن المقدم لاعطائها لأخيه توران شاه . وهكذا تمكن الصليبيون من تشييد حصن بيت الأحزان ، وعهد بلدوين الرابع الى فرسان الداوية بالدفاع عنه ، ليتخذونه مركزا « لقطع الطرقات على قوافل المسلمين » . وعندما أدرك صلاح الدين مدى الخطر الذى

---

(١) سمى ذلك الموضع عند بيت يعقوب باسم بيت الأحزان أو مخاضة الأحزان لاعتقاد الناس أن يعقوب اعتاد الانفراد فيه والبكاء على يوسف .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١١ — ١٣ .

حاق بالمسلمين نتيجة لبنـــاء ذلك الحصن ، طلب من الصليبيين هـدمه ولكنهم طلبوا النفقات التى بذلوها فى تشييده ؛ فعرض صلاح الدين عليهم ستين ألف دينار مقابل هدمه ، ثم رفع المبلغ الى مائة ألف دينار ، ولكنهم رفضوا ذلك .

ثم حدث أن اعتدى الصليبيون على بعض الدماشقة الذين خرجوا فى أبريل سنة ١١٧٩ لرعى مواشيهم فى المراعى القريبة من بانياس ، مما أدى الى اشتباك بين الصليبيين بقيادة بلدوين الرابع وهمفـرى صاحب حصن بانياس من ناحية ، والقـوات الاســلامية بقيادة عـز الدين فرخ شاه (فرخشاه) ابن أخى صلاح الدين من ناحية أخرى . وكان أن خرج صــلاح الدين — الذى كان بدمشق عنــدئذ — لمساعدة ابن أخيه ، فدارت معركة انتصرت فيها قوات صلاح الدين ، ونجا الملك الصليبى بصعوبة بعد أن أصيب اصابات خطيرة ، فى حين أصيب الأمير همفرى اصابة أدت الى وفاته بعد عـدة أيام فى حصن هونين . ويقول ابن الأثير عن مقتل همفرى هذا « وقتل من مقدميهم جماعة منهم هنفرى ، وما أدراك ما هنفرى ، به كان يضرب المثل فى الشجاعة والرأى فى الحرب ، وكان بلاء صبه الله على المسلمين فأراحهم الله من شره » (١) .

ولم يلبث صلاح الدين عقب ذلك النصر أن شرع مباشرة فى حصار حصن بيت الأحزان فى أواخر مايو سنة ١١٧٩ ، ثم

---

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٧٤ هـ .

انصرف عنه بعد قليل « وعاد بالغنائم والأسرى » . وقد اتخذ صلاح الدين معسكره عند تل القاضى غربى بانياس ، وعهد الى ابن أخيه تقى الدين عمر بمراقبة الصليبيين عند حماة خوفا من اعتداء بوهيموند الثالث أمير أنطاكية . كذلك عهد الى ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه بالدفاع عن جبهة حمص ضد ريموند الثالث أمير طرابلس ، فى حين أرسل صلاح الدين الى أخيه العادل فى مصر يطلب منه ارسال المدد . وكان صلاح الدين « يركب كل يوم بحجة الصيد ويجرد العساكر وقبائل العرب الى صيدا وبيروت حتى يحصدوا غلات العدو » [1] .

وأخيرا وجد بلدوين الرابع أنه لابد من وضع حد لاغارات صلاح الدين ، فجمع قواته وخرج لمنازلته . وفى ١٠ يونية سنة ١١٧٩ دارت موقعه قرب تل القاضى فى سهل مرج العيون بين المسلمين بقيادة صلاح الدين والصليبيين بقيادة الملك بلدوين الرابع ، فانتصر صلاح الدين انتصارا حاسما ، وأسر كثيرا من أعيان الصليبيين ، ولم ينج الملك بلدوين نفسه الا بصعوبة . وكان فى وسع صلاح الدين أن يتبع انتصاره فى مرج العيون بمهاجمة طبرية وبيت المقدس ، كما فعل فيما بعد عقب انتصاره فى حطين . ولكن يلاحظ أن ملك بيت المقدس نجا من الأسر فى موقعة مرج العيون ، وما دام الملك طليقا فى مملكته ، فان عناصر المقاومة لن تلبث أن تتجمع حوله ، مما يجعل مهمة صلاح الدين

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ٢ ص ٧٤ .

عسيرة . هذا فى الوقت الذى وصلت الى مملكة بيت المقـدس سنة ١١٧٩ مجموعة قوية من الفرسان الفرنسيين للحج ، وعلى راسهم هنرى الثانى دى شامبنى ، مما بث فى الصليبيين بالشام عزيمة جديدة وأحيى روحهم المعنوية . لذلك اكتفى صلاح الدين عقب انتصاره بمهاجمة حصن الأحزان ، ونجح فى فتحه فى أواخر أغسطس سنة ١١٧٩ ، وذلك « بعد قتال وحصار ، فغنم منهم مائة ألف قطعة حديد من أنواع الأسلحة وشيئا كثيرا من الأقوات وغيرها ، وأسر نحو السبعمائة وضرب الحصن حتى سوى به الأرض » (١) . ويروى أبو شامة أن صلاح الدين أشعل النيران فى حطام حصن بيت الأحزان ، وأن الصليبيين فى طبرية شاهدوا ألسنة اللهيب والدخان المتصاعدة منه .

ولم يلبث أن أخذ صلاح الدين يتابع انتصاراته فى سرعة مذهلة ؛ بحيث لم يستطع الصليبيون ملاحقته . ذلك أنه لم يكتف بعد تدميره حصن الأحزان بالاغارة على مناطق صـور وصـيدا وبيروت ؛ بل استطاع أسطوله أن يخرج من الموانى المصرية فى أكتوبر سنة ١١٧٩ ليهاجم عكا ذاتها ، وهى المدينة التى أطلق عليها أبو شـامة اسم « قسطنطينة الفرنج » (٢) . ولم يسع الملك بلدوين الرابع ازاء الضربات القوية التى أخذ صـلاح الدين يوجهها ضـد الصليبيين سوى أن يطلب عقـد الهدنة ، فوافق

---

(١) المقريزى : السلوك ؛ ج ١ ص ٦٧ .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ؛ ج ٢ ص ١٤ .

صلاح الدين على ذلك فى مايو سنة ١١٨٠ . على أنه يلاحظ أن هذه الهدنة عقدت بين صلاح الدين ومملكة بيت المقدس وحدها ، مما جعل صلاح الدين فى حل من مهاجمة الصليبيين فى شمال الشام ، وبخاصة امارة طرابلس . وفى الوقت نفسه عاد الأسطول المصرى الى مياه الشام فى يونية سنة ١١٨٠ ، فهاجم أنطرطوس وأنزل بها كثيرا من الخسائر ، مما اضطر ريموند الثالث أمير طرابلس الى عقد هدنة مشابهة مع صلاح الدين .

وبعد ذلك رأى صلاح الدين أن يوقف هجماته مؤقتا ضد الصليبيين ، ولا سيما بعدما أشيع من أخبار عن محاولات لتجديد التحالف بينهم وبين البيزنطيين . هذا بالاضافة الى أن صلاح الدين نفسه كان فى حاجة الى فترة هدوء مع الصليبيين ليقوم بحملة ضد قلج أرسلان صاحب قونية وحملة أخرى ضد أرمينيا الصغرى . على أن المتأمل فى تلك الحروب يستطيع أن يدرك فى سهولة أن صلاح الدين لم يشأ أن يضيع فيها كثيرا من الجهد ، وربما ادخر طاقته فى ذلك الدور ليستغلها فى توحيد القوى الاسلامية فى شمال الشام والعراق . وهنا تبدو لنا حكمة صلاح الدين وبعد نظره ، اذ رأى أن الاستيلاء على حلب يجب أن يسبق أية محاولة للاستيلاء على بيت المقدس ، وأنه من الخطأ أن يعرض نفسه لهجوم الصليبيين أثناء قيامه بمهاجمة حلب ، ولذلك أتاحت له الهدنة التى عقدها مع مملكة بيت المقدس وطرابلس فرصة طيبة لتحقيق سياسته تجاه حلب والموصل ، فضلا عن رعاية أمور مصر ، مع عدم اغفال جانب الصليبيين .

صلاح الدين وتحصين مصر : (١١٨١ – ١١٨٢) :

وبعد أن شغل صلاح الدين لفترة قصيرة بشئون الجزيرة وأرمينيا الصغرى ، عاد الى دمشق حيث سمع بوفاة أخيه تورانشاه بالاسكندرية ؛ فاستناب ابن أخيه عز الدين فرخشاه على الشام ؛ وأسرع الى القاهرة حيث تلقاه الجيش والأمراء والأعيان فى يناير سنة ١١٨١ . وكان صلاح الدين يعلم تماما أن مشاكل الوحدة الاسلامية من ناحية ومشاكل الجهاد من ناحية أخرى لن تمكنه من البقاء طويلا فى مصر ؛ ولذلك حاول أن ينجز أكبر قدر من الأعمال خلال المدة القصيرة التى قضاها فى مصر ، وكأنه فى سباق مع الزمن .

ويبدو أن صلاح الدين عاد الى مصر فى تلك المرة — فى أوائل سنة ١١٨١ — وقد أحس بمكانته وأهمية مركزه ، فأخذ ينظم مراسيم الحكم وشعاراته حتى لقد وصفه المقريزى بأنه أخذ يستبد بالسلطنة (١) . من ذلك أن صلاح الدين رتب نوب الطبلخاناه بدار الوزارة التى أقام بها ، بحيث أصبحت فى كل يوم ثلاث مرات . ومن ناحية أخرى فقد اهتم صلاح الدين بتقوية جبهته الداخلية عن طريق القضاء على الخونة — وبخاصة من العربان — الذين بلغه أنهم يتعاملون مع الصليبيين ويصدرون اليهم الغلال . ومن هؤلاء عربان الشرقية الذين أصدر صلاح الدين أوامره بالحوطة على ممتلكاتهم ، كما أصدر أمره بالحوطة على اقطاع جذام وثعلبه فى شمال الدلتا .

(١) المقريزى : المواعظ ؛ ج ٣ ص ٣٧٩ .

وكان صلاح الدين فى تلك الأثناء يباشر نشاطه الدبلوماسى على أوسع نطاق ويستعد للمستقبل القريب عن طريق عقد الاتفاقيات مع القوى العديدة فى الشرق الأدنى التى يمكن أن تؤثر فى مصائر معاركه المقبلة ضد خصومه بالشام . من ذلك أن صلاح الدين استقبل فى خريف سنة ١١٨١ سفارة من قبل ألكسيوس الثانى كومنين امبراطور الدولة البيزنطية ، وانتهت مهمة هذه السفارة بتوقيع صلح بين الطرفين أطلق البيزنطيون بمقتضاه مائة وثمانين أسيرا من المسلمين . وقد استطاع صلاح الدين بتلك المعاهدة أن يضمن عدم مساعدة الصليبيين اذا قام بهجوم ضدهم بالشام ، أو عدم اشتراك الأسطول البيزنطى مع الصليبيين بالشام فى أى مشروع هجومى على مصر ، مثلما حدث من قبل . وفى الوقت نفسه لم يغب عن بال صلاح الدين وهو فى مصر أن يكتب للخليفة العباسى فى بغداد يسأله ولاية حلب ؛ وذلك ليكسب مشروعه المقبل بخصوص ضم حلب وتوحيد الجبهة الاسلامية صفة شرعية (١) .

على أنه من الواضح أن صلاح الدين كان يخشى فى ذلك الدور هجوم جديد على مصر من جانب الصليبيين . وزاد من شكوك صلاح الدين ما سمعه من تحركات أرناط صاحب حصن الكرك فى البحر الأحمر ، وما قامت به السفن الصليبية عندئذ

---

(١) المقريزى : السلوك ؛ ج ١ ص ٧٢ ، ٧٧ .

من عدوان مكشوف على شواطىء مصر الشمالية وأسرها بعض سفن التجار المسلمين . لذلك أسرع صلاح الدين فى استكمال الانشاءات الدفاعية والتحصينات التى بدأها والتى سبق أن أشرنا اليها . ولم يكد صلاح الدين يعلم أن السفن الصليبية اعتدت على ميناء تنيس فى صيف سنة ١١٨١ ، حتى انتدب أحد رجاله لعمارة قلعتها وتجديد حصونها وآلاتها ، وقرر لتجديد سورها القديم مبلغ ثلاثة آلاف دينار . أما دمياط فقد أمر صلاح الدين بترميم سورها واصلاح ما تهدم منه وترتيب المقاتلة على برجها واصلاح المآصر أو السلاسل الحديدية التى كانت تسد مدخل النيل من ناحية دمياط . وقد بلغ سور دمياط بعد ترميمه أربعة آلاف وستمائة وثلاثين ذراعا ، وصار عرضه من السعة بحيث يمشى عليه خمسة من الخيل . ويذكر المقريزى ان صلاح أنفق على تحصين دمياط ألف ألف دينار .

وكذلك كانت الاسكندرية موضع عناية صلاح الدين فى ذلك الدور ، فزارها للمرة الثالثة فى فبراير سنة ١١٨٢ وسلك فى الوصول اليها طريق البحيرة ، حتى اذا ما وصلها خيم بظاهرها عند عامود السوارى . وكان ذلك العامود قبيل مجىء صلاح الدين محوطا بنحو أربعمائة عامود ، فأمر صلاح الدين واليه قراجا بكسرها ورميها فى البحر لتسد الطريق فى وجه سفن العدو اذا حاول الاغارة على الاسكندرية . وقد زار الرحالة ابن جبير الاسكندرية فى العام التالى مباشرة ، فشهد بعناية

صلاح الدين بالثغر ، ووصف منار الاسكندرية وصفا جليلا .
وأشار ابن جبير كذلك الى ادارة الجمرك بالاسكندرية فقال ان المركب الذى كان به لم يكد يرسو بالميناء حتى « طلع أمناء على المركب من قبل السلطان بها ، لتقييد جميع ما جلب فيه . فاستحضر جميع من كان فيه من المسلمين واحدا واحدا ، وكتبت أسماؤهم وصفاتهم وأسماء بلادهم ، وسئل كل واحد عما لديه من سلع أو ناض (نقود) ، ليؤدى زكاة ذلك كله ، دون أن يبحث عما حال عليه الحول من ذلك أو ما لم يحل .. وأمر المسلمون بتنزيل أسبابهم وما فضل من أزودتهم ، وعلى ساحل البحر أعوان يتوكلون بهم وبحمل جميع ما أنزلوه الى الديوان . فاستدعوا واحدا واحدا ، وأحضر ما لكل واحد من الأسباب ، والديوان قد غص بالزحام . فوقع التفتيش لجميع الأسباب ما دق منها وما جل ، واختلط بعضها ببعض ، وأدخلت الأيدى الى أوساطهم بحثا عما عسى أن يكون فيها . ثم استحلفوا بعد ذلك هل عندهم غير ما وجدوا لهم أم لا .. » (١) .

واذا كان صلاح الدين قد اهتم بتحصين البلاد المصرية على ذلك النحو ، فان اهتمامه كان أكبر بتنظيم جيشه وترتيب اقطاعات الجند . وقد نقل المقريزى عن القاضى الفاضل فى متجددات شهر رجب سنة ٥٧٧ هـ (أواخر سنة ١١٨١) أن عدة

(١) رحلة ابن جبير ، ص ٧ — ٨ .

جيش صلاح الدين استقرت على ثمانية آلاف وستمائة وأربعين فارسا ، وأمراء مائة أحد عشر ، وطواشية ستة آلاف وتسعمائة وستة وسبعين ، وقرى غلامية ألف وخمسمائة وثلاثة وخمسين ؛ وهؤلاء جميعا خصص لهم من المال ثلاثة آلاف وستمائة وسبعون ألف وخمسمائة دينار . وهذا المبلغ الكبير يشهد على ضخامة ميزانية الجيش على أيام صلاح الدين ، وعلى أن صلاح الدين لم يضن على قواته المسلحة بالمال فى وقت كان الوطن الاسلامى فى الشرق الأدنى أحوج ما يكون الى جهود أبنائه من المقاتلين .

* * *

صلاح الدين وأرناط :

وفى الوقت الذى كان صلاح الدين فى مصر يستعد سياسيا وحربيا للمعركة الفاصلة الكبرى بينه وبين الصليبيين ، كانت أحوال الصليبيين الداخلية تزداد سوءا يوما بعد آخر . ففى مملكة بيت المقدس تفاقم مرض الملك بلدوين الرابع وأخذ يتشكك فى كل من حوله ، فى الوقت الذى عجز هو عن تصريف أمور المملكة مما أدى الى تدهور أحوال تلك المملكة الصليبية تدهورا سريعا (1) . أما فى شمال

---

(1) للوقوف على التفصيلات انظر : ــ
سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ؛ ص ٧٦٥ وما بعدها .

الشام فان امارة انطاكية ، لم تكن أقل اضطرابا بسبب استسلام أميرها بوهيموند الثالث لشهواته وخلافه مع بطرق أنطاكية . وقد عاشر الأمير بوهيموند امرأة اسمها سيبيل عرفت بسوء السيرة والخلق » ولم تحجم عن خيانة بوهيموند والصليبيين ، فيروى كل من ابن الأثير وأبو شامة أنها كانت تتصل بصلاح الدين سرا وتخبره بتحركات جيوش الصليبيين . فيقول ابن الأثير انها « كانت تراسل صلاح الدين وتهاديه وتعلمه كثيرا من الأحوال التى يؤثر علمها » ؛ أما أبو شامة فيقول عبارة أكثر صراحة وتفصيلا ، نصها « وكانت امرأة ابرنس أنطاكية ، وتعرف بدام (مدام) سبيل فى موالاة السلطان ، عينا له على العدو ، وتهاديه وتناصحه وتطلعه على أسرارهم » والسلطان يكرمها لذلك ويهدى اليها أنفس الهدايا !! » [1] .

وفى الوقت الذى تعرض الصليبيون فى شمال الشام وبيت المقدس لتلك الأزمات ، اذا بهم يفقدون حليفا قويا فى شخص الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين الذى توفى سنة ١١٨٠ . وكان مانويل كومنين قد حاول أن يقضى نهائيا على الأتراك السلاجقة فى آسيا الصغرى سنة ١١٧٦ ، ولكن السلطان قليج أرسلان الثانى أنزل به هزيمة ساحقة فى تلك السنة ، فمات الامبراطور مانويل متأثرا بهزيمته بعد ذلك بأربع سنوات ،

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٨٤ هـ
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٣١

وبموته خسر الصليبيون دعامة كبرى طالما اعتمدوا عليها كلما ألمت بهم أزمة أو حاق بهم خطر . ولم يلبث الامبراطور ألكسيوس كومنين الثانى أن أرسل سفارة الى القاهرة سنة ١١٨١ — كما سبق أن أشرنا — لعقد صلح بين الدولة البيزنطية وصلاح الدين .

وبينما بلدوين الرابع — ملك بيت المقدس المريض — يتأهب لتوديع الحياة ، اذا بزمام النشاط الصليبى ينتقل الى رينو دى شاتيون (ريجنالد) الذى عرفه العرب باسم أرناط . وكان أرناط هذا فارسا فرنسيا لا يختلف فى أصله عن كثير من الفرسان المغمورين الذين لفظهم الغرب الأوربى الى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية ، ولكن شاء حسن حظه أن تقع فى حبه الأميرة كونستانس الوصية على امارة انطاكية ، فتزوجته سنة ١١٥٣ ، وبذلك وصل أرناط الى مركز قيادى فى المجتمع الصليبى بشمال الشام ، مكنه من أن يقوم بدور بارز فى محاربة المسلمين وغير المسلمين من القوى المتباينة فى الشرق الأدنى . على أن تصرفات أرناط اتصفت دائما بالتهور والحماقة وعدم مراعاة العهود والجهل بأحكام السياسة وأصولها ، مما سبب متاعب لا حد لها للصليبيين بالشام ؛ فهو تارة يستثير عداء المسلمين فى وقت يحس الصليبيون أنفسهم أنهم أحوج ما يكونون الى مسالمة القوى الاسلامية المجاورة ؛ وتارة أخرى يعادى الأرمن فى مملكة أرمينيا الصغرى ، وتارة ثالثة يشن غارة على جزيرة قبرص التابعة

عنـدئذ للدولة البيزنطية فيسـتثير حنق الامبراطور البيزنطى وغضبه .

ولم يلبث أرناط أن وقع فى أسر المسلمين سنة ١١٦٠ عندما قام باغارة فاشلة على بعض الجهات فى اقليم الجزيرة لمجرد الرغبة فى السلب والنهب . وقد ظل أرناط أسيرا فى قلعة حلب حوالى ستة عشر سنة (١١٦٠—١١٧٧) دون أن يظهر ملك بيت المقدس أو حتى أهل أنطاكية أنفسهم أسفا على أسره ، أو يقومون بمجرد محاولة لاطلاق سراحه . وأخيرا أطلق سراح أرناط وخرج من الأسر سنة ١١٧٧ ، وعندئذ أسرع الى الزواج من وريثة صـاحب الأردن . ويبـدو أن أرناط لم يتزوج هـذه الأميرة لشـبابها أو جمالها ، فقد كانت أرملا سبق أن تزوجت من رجلين ثالثهما أرناط نفسه ، وانما تزوجها لاقطاعها اذ ورثت عن أبيها الأردن وحصنى الكرك والشوبك (١) .

ويهمنا فى هذا الموضع أن نشير الى أن السنوات الطويلة التى قضاها أرناط فى أسر المسلمين لم تغير من روحه ولم تقلل من حدة تهوره ، فأراد عندما خرج من محبسه سنة ١١٧٧ وتولى مقاليد الأردن ، أن يتبع سياسته القديمة تجاه جيرانه من المسلمين والمسيحيين سواء . وهكذا نسى أرناط أن السنوات الطويلة التى قضاها فى الأسر غيرت من أوضاع الفريقين ، ولم يدرك أن دمشق

---

(١) سعد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ، ص٧٦٨ وما بعدها .

والقاهرة باتت توحد بينهما حكومة واحدة تخفق فوقها راية صلاح الدين ، فى حين فترت حماسة الصليبيين وأخذت أوضاعهم فى بيت المقدس وأنطاكية وطرابلس تنحل انحلالا تدريجيا بطيئا ولكنه ملموسا .

وفى مثل تلك الأوضاع الجديدة ، كان تطبيق سياسة أرناط ذات الطابع الحماسى المتطرف ، من شأنه أن يسبب كارثة عامة للصليبيين ؛ لأن حصنى الكرك والشوبك — اللذين امتلكهما أرناط — كانا لا يتحكمان فى طريق حجاج المسلمين الى الحرمين فحسب ، بل أيضا فى الطريق البرى الرئيسى بين شطرى دولة صلاح الدين ، أعنى مصر والشام . ولم يكن صلاح الدين الرجل الذى يقبل السكوت عن اعتداءات وهجمات يقوم بها أمير صليبى متهوس — مثل أرناط — ضد قوافل الحجاج والتجار بين مصر والشام والحجاز . واذا غضب صلاح الدين فى ذلك الوقت — أعنى فى الربع الأخير من القرن الثانى عشر — فان غضبته تعنى ثورة رجل قوى جمع فى قبضته بين دمشق والقاهرة بمواردهما المالية والبشرية ، ليوجه تلك الطاقة الضخمة ضد شراذم من الصليبيين أخذوا فى الانحلال والتفكك بعد أن فترت حماستهم الدينية واضطربت أوضاعهم الداخلية .

ولكن هل أدرك أرناط جميع هذه الاعتبارات عندما تزوج وريثة الأردن وصاحبة حصنى الكرك والشوبك سنة ١١٧٧ ؟ الجواب : لا .. وكانت النتيجة الحتمية لذلك أن سياسته فى تلك المنطقة الحساسة فى جنوب فلسطين لم تلبث أن أنزلت كارثة

ليست أضخم منها كارثة بأرناط نفســه وبمملكة بيت المقدس الصليبية ثم بالصليبيين عامــة . ففى سنة ١١٨١ نسى أرناط — أو تناسى — أمر الهدنة المعقودة بين صلاح الدين ومملكة بيت المقدس ، وخرج على رأس قوة من رجاله ليوغل فى صحراء العرب حتى تيماء . وكانت تيماء هذه واحة لها أهميتها لوقوعها فى منتصف الطريق بين الأردن والمدينة المنورة ؛ حتى وصـفها صلاح الدين نفسه فى رسالته الى الخليفة العباسى بأنها « دهليز المدينة » [1] . وأراد أرناط من مشروعه أن يزحف من تيماء الى المدينة المنورة ذاتها « للاستيلاء على تلك النواحى الشريفة » . ولكن فرخ شاه — ابن أخى صلاح الدين ونائبه فى دمشق — أسرع الى غزو الأردن ؛ مما جعل أرناط يعجل بالعودة الى امارته للدفاع عنها ، بعد أن نهب قافلة اسلامية كبيرة كانت متجهة من دمشق الى مكة وسلب منها ثروة ضخمة .

وقد أفزعت تلك الغارة الغاشمة التى قام بها أرناط بلاط بيت المقدس ، لأنها عكرت صفو السلم مع صلاح الدين ، فى وقت كانت مملكة بيت المقدس الصليبية أحوج ما تكون الى هذا السلم . هذا الى أن العمل الذى قام به أرناط أفزع المسـلمين جميعا ، لأنهم اذا كانوا قد صبروا على تهديد الصليبيين لبعض البلدان والأراضى الاسـلامية فى العراق والشام ومصر ، فانهم لا يمكن أن يصبروا بأى حال على تهديد قبلتهم التى يتجهون اليها

---

(١) ابو شامة : كتاب الروضتين ، ج ٢ ص ٢٣ .

بقلوبهم وأبصارهم آناء الليل وأطراف النهار . لذلك غضب صلاح الدين لما حدث من أرناط ، وأرسل الى ملك بيت المقدس يلومه على ما حدث ، ويذكره بالهدنة المعقودة بين الطرفين ، ويطلب منه أن يأمر فصله أرناط برد المسلوبات . والواقع ان بلدوين الرابع ملك بيت المقدس كان لا يقل استنياء من أرناط عن صلاح الدين ، فأرسل الى أرناط يلومه على فعلته ، وأمره بأن يسرع برد كل ما استولى عليه من أسرى المسلمين وأموالهم الى صلاح الدين . ولكن أرناط هزأ من بلدوين الرابع — الملك المريض — ورفض الاصغاء لأوامره ونصحه ، وأعلن أنه لن يرد شيئا من أسرى المسلمين وأموالهم .

وكان أن رد بلدوين الرابع على صلاح الدين يعلمه بعجزه عن اخضاع فصله والزامه باحترام الهدنة المعقودة بين الطرفين ، الأمر الذى كان يعنى نشوب الحرب بين صلاح الدين والصليبيين . وثمة معنى آخر لعدم انصياع أرناط لبلدوين الرابع ، هو سقوط هيبة ملكية بيت المقدس ، وخروج الأفصال الاقطاعيين فى المملكة عن طاعة ملكهم ؛ وهذا مظهر جديد آخر من مظاهر انحلال أحوال الصليبيين بوجه عام ومملكة بيت المقدس بوجه خاص فى الربع الأخير من القرن الثانى عشر .

ثم صادف أن قذفت أمواج البحر ببضعة سفن مسيحية تحمل نحوا من ألفين وخمسمائة نفس كانوا فى طريقهم الى بيت المقدس ؛ فغرق منهم من غرق ، ووجد الباقون — وعددهم نحوا من ألف وستمائة وتسعين نفسا — أنفسهم على شاطىء دمياط . وعندئذ

انتهز صلاح الدين الفرصة وأعلن أنه لن يطلق سراح أولئك الحجاج الا اذا أطلق أرناط من عنده من أسرى المسلمين. ولما رفض أرناط أن يتخلى عن أسرى قافلة الحجاز؛ احتفظ صلاح الدين بالحجاج المسيحيين (١).

* * *

انتصار الوحدة :

وأخيرا غادر صلاح الدين مصر فى مايو سنة ١١٨٢ ليقوم ببعض الأعمال الحربية ضد الصليبيين، كما سنذكر بعد قليل. ولكن أعمال صلاح الدين ضد الصليبيين لم تلبث أن توقفت بعد قليل، وكأنه أدرك أنه لابد أولا من الاطمئنان الى جانب الوحدة الاسلامية قبل القيام بحركة جهاد شاملة ضد الصليبيين.

والواقع ان التطورات التى تمت فى الموصل وحلب سنة ١١٨٠ — ١١٨١، كانت لابد وأن تسترعى انتباه صلاح الدين. ذلك أن سيف الدين غازى الثانى أتابك الموصل توفى فى أواخر يونيه سنة ١١٨٠، ثم لحق به الصالح نور الدين اسماعيل بن محمود أتابك حلب فى أوائل ديسمبر سنة ١١٨١. وقد أدى تخوف أمراء الموصل من أطماع صلاح الدين الى حرمانهم أبناء سيف الدين غازى من ملك أبيهم لصغر سنهم، واستدعوا عز الدين مسعود الأول — أخا سيف الدين — لتولى أتابكية الموصل، نظرا

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب؛ ج ٢ ص ١١٤ .

« لما هو عليه من كبر السن والشجاعة والعقل وقوة النفس » [1] .
وكان الصالح اسماعيل قد أوصى وهو على فراش الموت بأن يخلفه ابن عمه الأمير عز الدين مسعود فى حلب أيضا ، وذلك حتى تتألف من حلب والموصل جبهة واحدة لمواجهة صلاح الدين ؛ وفعلا ذهب عز الدين الى حلب حيث نودى به ملكا عليها فى أواخر ديسمبر سنة ١١٨١ . ومن الواضح أن هذه التطورات لم تكن فى جانب صلاح الدين ومشاريعة الضخمة الخاصة بالجبهة الاسلامية المتحدة ومحاربة الصليبيين . ولكن صلاح الدين « كان حينئذ بمصر » ولولا ذلك لزاحمهم عليها (على حلب) وقاتلهم » .

ويبدو أن الاتفاق على اختيار عز الدين مسعود الأول ملكا على حلب والموصل لم يكن وليد الرغبة فى مقاومة صلاح الدين فحسب ، وانما أيضا بدافع الولاء والاخلاص للزنكيين . وقد ظهر هذا الشعور واضحا فى حماه التى لم تلبث أن ثار أهلها « ونادوا بشعار عز الدين » على الرغم من قيام المظفر تقى الدين عمر — ابن أخى صلاح الدين — فى حكمهم [2] . ولو كان عز الدين مسعود قد استجاب للحلبيين فى ذلك الوقت وزحف على دمشق — حيث كان شعور الولاء للزنكيين لا يزال ظاهرا — لأمكن أن يضع بلاد الشام تحت حكمه قبل أن يتمكن صلاح الدين من

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٧٦ هـ .
(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ، سنة ٥٧٧ هـ (مخطوط) .

الحضور من مصر . ولكن يبدو أن صلاح الدين كان مضطرا للبقاء فى مصر عندئذ لتخوفه من وقوع هجوم صليبى عليها ؛ وفى الوقت نفسه لم يحاول عز الدين مسعود أن يغتنم فرصة غياب صلاح الدين فى مصر لمهاجمة دمشق ، وقال « بيننا يمين لا نغدر به » ؛ بل انه أعطى حلب لأخيه عماد الدين صاحب سنجار ، وبذلك حطم وحدة الدولة الزنكية .

وقد أدرك صلاح الدين أن تلك الأوضاع التى سادت المسلمين فى شمال الشام بوجه خاص ستكون عقبة فى طريق حركة الجهاد الشاملة التى أزمع القيام بها ضد الصليبيين . وأورد ابن واصل نص خطاب أرسله صلاح الدين الى ابن أخيه المظفر تقى الدين عمر نائبه فى حماه ، يفهم منه أن أمراء حلب دخلوا عندئذ فى مفاوضات مع الصليبيين وراسلوا الباطنية لعمل تحالف ضد صلاح الدين . كذلك ذكر ابن واصل فى موضع آخر أنه نمى الى علم صلاح الدين « أن المواصلة كاتبوا الفرنج ورغبوهم فى قصد الثغور الاسلامية ليشغلوا السلطان عن قصدهم » (١) . ولهذا كله آمن صلاح الدين ايمانا قويا بأن توحيد القوى الاسلامية فى شمال الشام والعراق يجب أن يسبق أية خطوة جدية ضد الصليبيين .

وكان أن اتجه صلاح الدين أولا ضد حلب ونازلها ثلاثة أيام ؛ ثم رأى أن يبدأ بمهاجمة الموصل ، فغزا اقليم الجزيرة

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١١٠ ، ص ١١٥ .

واستولى على الرها وحران والرقة وسروج ونصيبين (سبتمبر — أكتوبر ١١٨٢) ؛ حتى شرع فى حصار الموصل نفسها فى أوائل ديسمبر . ويبدو أن صلاح الدين « ألح فى القتال فلم ينل غرضا » لأن عز الدين صاحب الموصل كان قد أعد عدته للحصار ، وحشد فيها عددا ضخما من العساكر « ما بين فارس وراجل .. ومن السلاح وآلات الحصار ما حارت له الأبصار » ؛ وعندئذ حاول صلاح الدين أن يستولى على الموصل عن طريق الحيلة ، فعرض على صاحبها الصلح مقابل أن يتركه يستولى على حلب دون تدخل منه . ولكن عز الدين مسعود رفض خيانة أخيه فى حلب ، وقال : « هو أخى وله العهود والمواثيق ولا يسعنى نكثها » [1] .

ولم يلبث أن أحس صلاح الدين بالحرج لفشله فى الاستيلاء على الموصل من جهة ، ثم لمهاجمته الزنكيين — وهم مسلمون — مما لا يتفق ودعوى الجهاد ، من جهة أخرى . لذلك حاول صلاح الدين أن يدعم مركزه بطلب تأييد الخليفة العباسى الناصر لدين الله ، فأرسل الى الخليفة رسالة يتهم فيها أتابك الموصل بأنه عقد تحالفا ضده مع الصليبيين . وربما استهدف صلاح الدين الحصول من الخليفة على تفويض بتخويله سلطة عليا على بقية الأمراء المسلمين فى اقليم الجزيرة ، مثلما كان لسلاطين السلاجقة فى القرن الحادى عشر . على أن أتابك الموصل

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٧٨ هـ .

لم يهتز لجميع تلك المناورات ؛ بل لجأ الى الاستعانة بالأمراء المسلمين المجاورين ، مثل قزل أرسلان صاحب أذربيجان وشاه أرمن سقمان صاحب أخلاط (خلاط) . أما الخليفة العباسى الناصر فقد اكتفى بأن فوض الشيخ صدر الدين للوساطة بين صلاح الدين والزنكيين . وهكذا أدرك صلاح الدين أنه لا فائدة من البقاء طويلا أمام الموصل ؛ « وعلم أنه بلد عظيم لا يتحصل منه شيء بالمحصرة على هذا الوجه » (١) ، فانصرف عنها فى منتصف ديسمبر ليستولى على سنجار . ثم عاد صلاح الدين الى الشام بعد أن اشتبك مع القوات التى أرسلها أمراء خلاط وماردين لنجدة عز الدين صاحب الموصل .

ويهمنا من هذه الأحداث ما يؤكده المؤرخون المعاصرون — أمثال ابن شداد وأبى شامة — من أن صلاح الدين سمع فى ذلك الدور بما دار من اتصالات سرية بين الصليبيين من جهة والزنكيين فى حلب والموصل من جهة أخرى للقيام بعمل مشترك ضد صلاح الدين ؛ وأنه « بلغه أن المواصلة كاتبوا الفرنج ورغبوهم فى الخروج الى الثغور ليشغلوا لسلطان عن قصدهم » ؛ وأن المواصلة « قد واصلوا الفرنج موصلة أخلصوا فيها الضمائر ولم يستطيعوا فيها كتمان السرائر » « وبلغه أن رسل الموصل وصلوا الى الفرنج يحثونهم على قتال السلطان » (٢) ولم تكن

---

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ؛ ص ٧٠

(٢) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٣ — ٢٤
ابن شداد : النوادر ، ص ٦٨

هذه الأخبار التى ترامت الى مسامع صلاح لدين عندئذ مبالغا فيها ، اذ تشير المراجع الصليبية ذاتها الى أن ملك بيت المقدس الصليبى استقبل سفارة من الموصل تعرض عليه دفع جزية سنوية قدرها عشرون ألف دينـــار ، وتسليم بانيـــاس وحبيس جلدك للصليبيين ، فضلا عن طلاق سراح جميع من لدى المسلمين من أسرى ؛ اذا نجح الصليبيون فى طرد صلاح الدين من دمشق !!

وكان الوقت مناسبا للصليبيين ليقوموا بهجوم على دمشق ، لا سيما بعد أن مات فرخشاه نائب صلاح الدين فى دمشق . لذلك جمع بلدوين الرابع ملك بيت المقدس جيوشه وخرج ومعـــه البطرق وصليب الصلبوت ، وأغاروا على الجهات الواقعة جنوبى دمشق ، كما أغارو فى سبتمبر سنة ١١٨٢ على منطقة بصرى فى اقليم حوران . وقد اتصفت اغارات الصليبيين على تلك الجهات عندئذ بالعنف والوحشية ، فدمروا كل ما صـــادفوه من زرع وضرع .

ثم انتقل الصليبيون بعد ذلك الى السواد عـــلى الضـــفة الشرقية لبحيرة طبرية ، حيث استردوا قلعة حبيس جلدك التى كان صلاح الدين قد استولى عليها منذ بضعة شهور مضت . وفى ديسمبر سنة ١١٨٢ عقد الصليبيون مجلسا للحـــــرب فى قيسارية وقرروا الاغارة مرة أخرى على اقليم حوران ، فخرج ريموند الثالث أمير طرابلس على رأس جموعهم صوب طبرية ، وأوغلوا حتى وصلوا الى بصرى ، ثم عادوا محملين بالغنائم . ولم يكد يمضى على تلك الاغارة خمسة عشر يوما حتى خرجت

غزوة أخرى بقيادة الملك بلدوين الرابع ، وأغار الصليبيون على اقليم دمشق حتى وصلوا الى داريا على بعد ستة كيلومترات فقط من دمشق ، مما أثار الذعر فى نفوس أهل دمشق [1] .

وفى ذلك الوقت كان صلاح الدين يحاصر نصيبين فى الجزيرة ؛ فأشار عليه بعض « من يتعصب لعز الدين » بالعودة الى الشام لانقاذ دمشق ، ولكنه أجاب عليهم بأن الفرنج « يخربون قرى ونملك عوضها بلادا ، ونعود ونعمرها ونقوى على قصد بلادهم » . ومن هذا يبدو كيف قام الصليبيون بدورهم كاملا لاجبار صلاح الدين على ترك حصار الموصل ؛ حتى تم لهم ما أرادوا — كما سبق أن رأينا — واضطر صلاح الدين الى العودة الى الشام فى مايو سنة ١١٨٣ .

على أن صلاح الدين عاد من العراق ليباشر نشاطه فى شمال الشام ، وترك حصار الموصل ليبدأ حصار حلب ، وذلك بعد أن استولى على عين تاب فى طريقه . وهنا نجد أن عماد الدين زنكى الثانى أتابك حلب كان مفتقرا الى ما لأخيه عز الدين أتابك الموصل من شجاعة ودهاء سياسى . ذلك أن صلاح الدين لم يكد يحاصر حلب ، حتى ارتبك عماد الدين وخشى الاستنجاد بأخيه عز الدين أو بالصليبيين . واذا كان الحلبيون أنفسهم قد أبدوا مقاومة عنيدة فى ذلك الدور ضد صلاح الدين ؛ الا أن حاكمهم عماد الدين أسقط فى يده وبدأ يفكر فى ترك حلب ، وأرسل الى صلاح الدين

---

(١) ابن الأثير : الكامل سنة ٥٧٨ هـ .

سرا يعرض عليه ذلك ، مقابل اعطائه « سنجار — بلده — ، فأجابه السلطان (صلاح الدين) الى ذلك » وزاده الخابور ونصيبين والرقة وسروج » . وهكذا تمت الصفقة ، واستولى صلاح الدين على حلب فى ١٢ يونية سنة ١١٨٣ [1] . ولم تلبث حامية حارم — التابعة لحلب — أن استسلمت مختارة لصلاح الدين وسلمته القلعة فى ٢٤ يونية سنة ١١٨٣ ، وبذلك سيطر صلاح الدين على حلب وحارم فى مدى شهر واحد .

ولا شك فى أن استيلاء صلاح الدين على امارة حلب وتوابعها جاء ضربة خطيرة وجهت ضد الصليبيين ، حتى اعترف المؤرخ الصليبى وليم الصورى بأن ذلك كان أسوأ حدث يمكن أن يحدث للفرنجة . ذلك أن حصول صلاح الدين على حلب جعله أقوى حاكم معاصر فى الشرق الأدنى ، وجعل الجبهة الاسلامية المتحدة تمتد تحت زعامته من جبال طوروس شمالا حتى النوبة جنوبا . وكانت امارة أنطاكية بالذات أكثر الامارات الصليبية تأثرا باستيلاء صلاح الدين على حلب وحارم ، لأنها أدركت أنه سيستغل هذه القواعد الجديدة فى الاغارة عليها . ويروى أبو شامة أنه عندما عرف خبر استيلاء صلاح الدين على حلب وحارم « رجفت أنطاكية بعد ذلك رعبا » وأن أميرها بادر باسترضاء صلاح الدين » فأرسل اليه جماعة من أسارى المسلمين

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ٢ ص ١٤٢
ابن شداد : النوادر ، ص ٩٨ .

« وسارع الى أمان السلطان » [1] . وكان أن ذهب بوهيموند الثالث أمير أنطاكية وصحبته ريموند الثالث أمير طرابلس الى بيت المقدس لمداولة الملك بلدوين الرابع فى الموقف . وكل ما استطاع ملك بيت المقدس أن يفعله عندئذ ، كان عقد هدنة مع صلاح الدين ، حتى تتمكن امارة أنطاكية من احكام اجراءاتها الدفاعية .

أما صلاح الدين فقد عاد الى دمشق فى أواخر أغسطس سنة ١١٨٣ بعد أن ثبت سلطانه فى حلب وعين ابنه الملك الظاهر غياث الدين غازى نائبا عنه فى حكمها . ومنذئذ أخذ الصليبيون يعملون حسابا للخطوة التالية التى سيتخذها ذلك المارد الذى جمع فى قبضته القوية بين القاهرة ودمشق وحلب . وساعد صلاح الدين على الربط بين أطراف تلك الدولة الواسعة عنايته بشبكة البريد الجوى التى هيأت له اتصالا سهلا سريعا مع مختلف المدن والقلاع والحصون التابعة له . ذلك أن صلاح الدين عنى بأبراج الحمام الزاجل ، وجعل تلك الأبراج على مراحل متقاربة بحيث يكون حمام حماه فى حلب وحمام دمشق فى حماه وحمص ، وحمام حمص فى حلب وحمام بصرى فى دمشق .. أما أنحاء البلاد المصرية فقد ارتبطت بقلعة الجبل فى القاهرة بخطوط بعضها يتجه الى الوجه القبلى — أى الى قوص وأسوان وعنداب — والبعض الآخر الى الاسكندرية

---

(١) ابو شامة : كتاب الروضتين ، ج ٢ ص ٤٧ .

أو دمياط . وبذلك ارتبطت مدن بلاد الشام بعضها ببعض من ناحية وارتبطت مدن مصر بعضها ببعض من ناحية أخرى ؛ ثم ارتبطت مدن مصر بالشام عن طريق خط جوى منتظم ، أعدت له مطارات ذات أبراج لا يبعد أحدها عن الآخر أكثر من ثلاثة عشر ميلا تقريبا ، ولها نظار وحراس يراقبون وصول الحمام ليلا ونهارا . ولزيادة الاطمئنان كانت الرسائل الهـامة تكتب من صورتين ترسل كل صورة مع حمامة ، وتطلق احدى الحمامتين بعد زميلتها بفترة من الزمن ، حتى اذا ضلت احداهما أو قتلت أو افترستها الجوارح أمكن الاعتماد على الحمامة الأخرى [1] . وهكذا اذا كانت دولة صلاح الدين قد اتسعت ؛ فانه كان مطمئنا الى سهولة الاتصال والاشراف على أنحاء دولته الواسعة وكانت أخبار مصر تأتيه وهو فى دمشق ، ويستطيع وهو فى أية جهة من جهات دولته أن يصدر أوامره وتعليماته فتنفذ على جناح السرعة فى بقية أنحاء الدولة .

والواقع ان صلاح الدين غدا فى صيف سنة ١١٨٣ فى مركز قوى يمكنه من انزال ضربة قاصمة بالصليبيين : فموارد مصر الضخمة تحت تصرفه ، ودمشق وحلب فى قبضته ؛ ومن حـوله لا يوجد عدو خطير يخشى تهديده اذا هو هاجم الصليبيين .

(١) نظير حسان سعداوى : نظام البريد فى الدولة الاسلامية ص ١٣٩ وما بعدها .

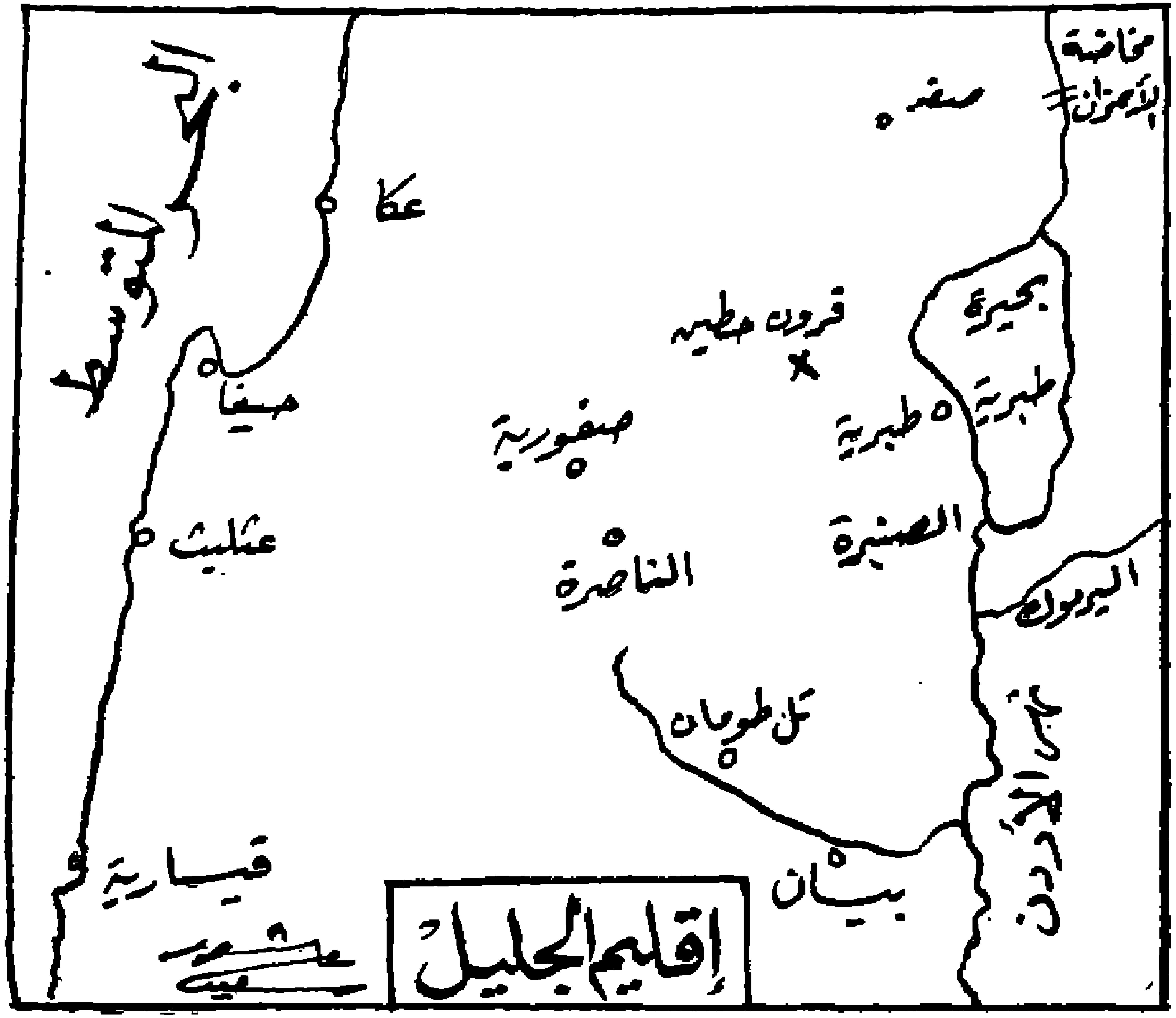
البحر المتوسط
عكا
حيفا
عثليث
قيسارية
صفد
مخاضة الأحزان
بحيرة طبرية
قرون حطين
طبرية
صفورية
الناصرة
الصنبرة
اليرموك
بيسان
نهر الأردن
إقليم الجليل

فالخليفة العباسى فى بغداد يؤيده ، وعز الدين أتابك الموصل يرهب جانبه ، وسلطان سلاجقه الروم يخطب وده ، والامبراطورية البيزنطية صالحته ولم تعد مصدر خطر عليه . وهكذا صار فى استطاعة صلاح الدين أن يخطو بقدم ثابته فى طريق الجهاد ليطهر الوطن العربى من الدخلاء الغربيين .

الفصل الرابع

الجهاد الأكبر

صلاح الدين يعجم عود الصليبيين :

ذكرنا أن صلاح الدين غادر مصر الى الشام فى مايو سنة ١١٨٢ . وترجع أهمية هذه الرحلة فى التاريخ الى أنها كانت آخر مرة يرى فيها صلاح الدين وجه القاهرة ، اذ قدر له أن يظل ببلاد الشام « ولم يعد بعدها الى مصر حتى أدركه الحمام » . وقد اتجه صلاح الدين عقب خروجه من مصر الى أيله على خليج العقبة ، وهناك علم أن الصليبيين جمعوا حشودهم فى حصن الكرك لسد الطريق فى وجهه والحيلولة دون دخوله بلاد الشام ، أو على الأقل الاعتداء على قافلته « لعلهم ينتهزون فرصة فيقتطفون من القافلة قطفة » (١) .

والواقع ان بلدوين الرابع كان قد جمع فعلا مجلس الحرب عندما علم بخروج صلاح الدين من مصر ، واستقر الرأى على أن يقيم الصليبيون خطهم الدفاعى عند حصن الكرك ليحولوا دون وصول صلاح الدين الى دمشق . ويبدو — كما ذكر

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٨ .

المؤرخ الصليبى وليم الصورى — أن خطة بلدوين الرابع استهدفت حشد جيوشه فى الأردن لمعاقبة أرناط وتأديبه على مخالفته ملك بيت المقدس ، على أن تتظاهر تلك الجيوش بأنها انما تبغى سد الطريق فى وجه صلاح الدين . ولكن تلك الخطة لم تنجح ، اذ علم أرناط بها مقدما ، واتخذ احتياطاته ، فى الوقت الذى نجح صلاح الدين فى الاتجاه من أيله الى اقليم الشوبك حيث دمر مزارع القمح التابعة للصليبيين هناك .

وفى تلك الأثناء انتهز فرخشاه — ابن أخى صلاح الدين ونائبه فى دمشق — فرصة انتقال الجيوش الصليبية الى الأردن ، وأغار على طبرية وعكا ، واستولى على الشقيف أرنون « وعاد بألف أسير وعشرين ألف رأس غنم » . وبعد ذلك انتقل فرخشاه الى الضفة الشرقية للأردن — شرقى بحيرة طبرية — فأغار على السواد حيث كان يوجد للصليبيين حصن حبيس جلدك ، فاستولى عليه فرخشاه بعد حصار خمسة أيام رغم حصانته ؛ « وأسكنه المسلمين فبقى عينا على الفرنج بعدما كان لهم » .

وعندما بلغت هذه الأخبار بلدوين الرابع وأمراءه — وهم بعيدون عند الكرك — أدركوا مدى خطأهم لأنهم تركوا اقليم الجليل مكشوفا . وكان أن رأى بلدوين الرابع سرعة العودة بعد تتبع صلاح الدين فى وادى عربة . ولكن صلاح الدين احتاط فى سيره والتزم « الأطراف » ، حتى دخل دمشق فى ٢٢ يونية . أما الجيش الصليبى فاتجه الى صفورية فى اقليم الجليل ، حيث

أخذ يترقب ما عسى أن يقوم به صلاح الدين من أعمال انتقامية .
ولم يطل انتظار الصليبيين ، اذ تحرك صلاح الدين فى ١١ يوليو سنة ١١٨٢ حيث نصب معسكره فىسهل الأقحوانة ، عند خروج نهر الأردن من بحيرة طبرية . وفى الوقت نفسه أرسل صلاح الدين ابن أخيه فرخشاه للاغارة على اقليم الغور حول بيسان ، فدخل بيسان « قهرا ، وغنم ما فيها وقتل وسبى » ؛ فى حين أغارت قبائل الاعراب على جينين واللجون وسهول يافا « حتى قاربوا مرج عكا » [1] .

وبعد أن قام صلاح الدين بحركة سريعة مكنته من الانضمام الى ابن أخيه فرخشاه ، شرع الاثنان فى مهاجمة حصن كوكب الذى يشرف على اقليم الغور والطريق المؤدى الى الناصرة . وكان أن أسرع الصليبيون اليه حيث شنوا عليه هجوما عند كفر بلا . وهناك اشتد القتال بين صلاح الدين والصليبيين « واستشهد جماعة من المسلمين ، وكان النصر لأهل الاسلام » . علـى أنه يبدو أن صلاح الدين أدرك عدم جدوى تلك المعارك المحلية ضد الصليبيين ، وآثر أن يحتفظ بقواته سليمة للمعركة الفاصلة الكبرى ، فانسحب الى دمشق .

ثم كان أن فكر صلاح الدين فى مشروع يفصل به امارتى طرابلس وأنطاكية عن مملكة بيت المقـدس ، وذلك عن طريق الاستيلاء على بيروت . ولتحقيق هذا الغرض جمع صلاح الدين

---

(١)ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٧٨ هـ .

بقواته سنة ١١٨٢ جنوبى اقليم البقاع لمهاجمة بيروت ، فى الوقت الذى أعد أخوه العادل فى دمياط والاسكندرية أسطول من ثلاثين سفينة لمباغتة المدينة من ناحية البحر . ولم يفت العادل أيضا أن يرسل بعض قواته من القاهرة لمهاجمة الداروم وعسقلان ، حتى يشغل مملكة بيت المقدس عن مساعدة بيروت . وقد أحاط صلاح الدين مشروعه بالسرية التامة ، بل أعلن أنه سيتجه ناحية حلب والموصل ، وذلك امعانا منه فى تضليل الصليبيين . وفى أول أغسطس ظهر الأسطول المصرى فى مياه بيروت فى الوقت الذى هاجم صلاح الدين المدينة من ناحية البر بكامل قواته ، وبذلك تعرضت بيروت لحصار محكم من ناحيتى البر والبحر .

وفى تلك الأثناء كان بلدوين الرابع ملك بيت المقدس لا يزال معسكرا فى صفورية ، عندما وصلته أنباء هجوم صلاح الدين على بيروت وهجوم العسكر المصرى على مدن فلسطين الساحلية . وقد أدرك بلدوين الرابع أن بيروت هى بيت القصيد ، فأمر باعداد الأسطول الصليبى فى عكا وصيدا لتخليص بيروت من الحصار البحرى . أما صلاح الدين فقد أخذ يشدد هجماته على بيروت مرة بعد أخرى ، ولكن المدينة أظهرت عنادا شديدا « فرأى أن أمر بيروت يطول » ، ولذلك آثر الانصراف عنها وعاد الى دمشق . كذلك أمر صلاح الدين أسطوله بالعودة الى مصر ؛ فعاد بعد أن « كان قد سبى منها وسلب وظفر من غنيمتها بما طلب » (١) .

(١) ابو شامة : كتاب الروضتين ؛ ج ٢ ص ٢٩ .

وكان أن اتجه صلاح الدين بعد ذلك الى الشمال ليعمل فى ميدان الجبهة الاسلامية ، حتى تم له الاستيلاء على حلب فى صيف سنة ١١٨٣ — كما سبق أن ذكرنا — وعندئذ اطمأن الى ناحية وحدة الصف وعاد لينصرف بكل قواه فى جهاد الصليبيين بفلسطين . ذلك أن صلاح الدين غادر دمشق فى سبتمبر سنة ١١٨٣ ليعبر نهر الأردن ويستولى على بيسان . ومن هناك اتجه صلاح الدين ليعسكر عند عين جالوت ، فى حين أرسل بعض دوريات من جنده لمهاجمة المناطق القريبة ، فالتقت احدى هذه الدوريات فى نهاية سبتمبر بالامدادات الآتية من الأردن والكرك والشوبك لمساعدة جيوش المملكة ، وعندئذ قتل المسلمون وأسروا كثيرا من الصليبيين « وهرب الباقون فى الجبال » .

وفى تلك الأوقات الحرجة التى ألمت بالصليبيين ، عندما أخذ صلاح الدين يضيق الخناق على ممتلكاتهم فى بلاد الشام ؛ اشتد المرض على بلدوين الرابع ملك بيت المقدس ، حتى بلغ به حد العجز عن الحركة فى فراشه . وقد وصف العماد الكاتب الملك بلدوين الرابع بأنه كان « ولدا مجذوما ومن الوجود معدوما ، قد أعضل داؤه وأيس شفاؤه وسقطت أعضاؤه وطال بلاؤه » (١) . وكان أن أدرك رجال المملكة الصليبية أنه من الضرورى اتخاذ اجراء سريع لحماية مصالح المملكة ومستقبلها ؛ فعقدوا مجلسا فى

---

(١) عماد الدين الكاتب : الفتح القسى ؛ ص ١٤ .

الناصرة حول فراش الملك المريض ؛ وفى ذلك المجلس فوض الملك صهره جاى لوزجنان فى الوصاية على المملكة ؛ أى ينوب عنه فى تدبير أمورها .

والواقع ان ذلك الاختيار لم يكن موفقا ، لما هو معروف عن جاى لوزجنان من ضعف الشخصية والبلادة ، حتى اتهمه المؤرخ الصليبى وليم الصورى بأنه لم يتحلى بشىء من صفات الفروسية أو الحكمة فى معالجة الأمور . ومهما يكن من أمر ، فان جاى لوزجنان تولى قيادة الجيش الصليبى وفكر فى مواجهة المسلمين فتحرك على رأس جيوش المملكة فى أوائل أكتوبر ونصب الصليبيون معسكرهم عند الفولة ، وهى قرية معروفة بفلسطين قرب عين جالوت (١) . وعندما رأى الصليبيون ضخامة جيش صلاح الدين » لم يجسروا على مهاجمة المسلمين . وهكذا ظل الجيشان وجها لوجه عدة أيام فى أكتوبر سنة ١١٨٣ ، دون أن يحاول صلاح الدين حرمان الصليبيين من الاعتماد على موارد المياه القريبة ، وانما اكتفى بشن اغارات مركزة على المواقع الصليبية القريبة .

وربما قصد صلاح الدين من تلك الاغارات المحلية أن يوزع جهود الصليبيين ، أو أن يستدرجهم للدخول معه فى معركة ، ولكنهم « لم يخرجوا الى المصاف خوفا من المسلمين » . وأخيرا لجأ صلاح الدين الى جبل الطور — وهو جبل قريب — حتى

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٠١ .

يتحرك الصليبيون أيضا تبعا لذلك ، وعندئذ يفاجئهم بالهجوم ؛ ولكنهم فوتوا عليه تلك الخطة أيضا « ورحلوا راجعين على أعقابهم ناكصين » . وهكذا لم يجد صلاح الدين بدا من العودة الى دمشق بعد أن قتل وأسر كثيرا من الصليبيين ، وخرب من حصونهم بيسان وكفر بلا وزرعين ؛ فضلا عن عدد من الأبراج والقرى . ولم يلبث أن وصل صلاح الدين الى دمشق فى منتصف أكتوبر سنة ١١٨٣ ؛ فى حين عاد الصليبيون الى مراكزهم عند صفورية .

وهنا نلاحظ أن صلاح الدين طبق فى حملته هذه سنة ١١٨٣ نفس الخطط التى اتبعها بعد ذلك بأربع سنوات فى حطين (١) .

* * *

ارناط يمهد ليوم حطين :

وفى تلك الأثناء أقدم أرناط صاحب حصن الكرك على مشروع خطير سنة ١١٨٢ ، استهدف به تحقيق سيادة الصليبيين على مياه البحر الأحمر ، وطعن الاسلام فى قلبه بغزو الحرمين . وربما كان من الممكن تنفيذ هذا المشروع قبل أن تتم الوحدة الاسلامية عندما كانت كفة الصليبيين هى الراجحة فى بلاد الشام . أما سنة ١١٨٢ بعد أن رجحت كفة المسلمين وصاروا يكونون

---

(١) للوقوف على التفصيلات ، انظر : ـ
سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ؛ ج ٢ ص ٧٨٤ .

جبهة واحدة تمتد من حلب الى القاهرة ، فقد بات لزاما على الصليبيين أن يكرسوا جهودهم فى حراسة حدودهم الطويلة ، جنوبا من ناحية مصر ، وشرقا من حدود امارة أنطاكية شمالا حتى الأردن والكرك جنوبا .

على أن أرناط لم يدرك جميع الاعتبارات السابقة ، وظن ان الأوضاع سنة ١١٧٧ عندما خرج من أسر المسلمين كانت لا تزال كما عهدها سنة ١١٦٠ عندما دخل فى أسرهم ؛ ولم يدرك أن تلك السنوات الطويلة التى قضاها فى الأسر قلبت الأوضاع فى الشرق الأدنى بالنسبة للمسلمين والصليبيين جميعا ؛ فانقلب المسلمون من التفكك والدفاع الى الوحدة والهجوم ، وتحول الصليبيون من قوة وتماسك الى ضعف وانحلال ، ومن حالة الهجوم الى حالة الدفاع . ثم ان أرناط حاكم حصن الكرك الصليبى لم يكن من نوع الفرسان الذين يحرصون على شرفهم ويتمسكون بمبادىء الفروسية ، وانما كان لا يصلح الا للسلب والنهب وشن الاغارات على الأبرياء والمسالمين ، حتى لقد وصفه بعض المؤرخين الغربيين بأنه « نموذج للفارس اللص » ؛ فى حين قال عنه أبو شامة أنه « أغدر الفرنجية وأخبثها وأفحصها عن الردى والرداءة ، وأبحثها وأنقضها للمواثيق المحكمة والأيمان المبرمة ، وأنكثها وأحنثها » [١] .

ولا شك فى أن مشروع أرناط لتدمير مكة والمدينة

---

(١) ابو شامة : كتاب الروضتين ؛ ج ٢ ص ٧٥ .

سنة ١١٨٢ وضع الصليبيين فى مأزق خطير وسبب لهم أزمة كانوا فى غنى عنها . ذلك أن عمل أرناط أثار المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ؛ فضلا عن أن القوى الاسلامية التى فكرت فى محالفة الصليبيين — مثل أتابك الموصل — استنكروا ذلك الوضع وخشوا وضع أيديهم فى أيدى أناس يخططون للاعتداء على الحرمين .

وكان أن بدأ أرناط بالاستيلاء على أيله ، ذلك المركز الهام على خليج العقبة الذى استولى عليه بلدوين الأول سنة ١١١٦ ، ثم استرده صلاح الدين سنة ١١٧٠ . ومن الواضح أن استيلاء صلاح الدين على أيله كان يمكنه من تهديد الشوبك والأراضى الصليبية فى وادى عربة . ولما كان من المتعذر على الصليبيين الاحتفاظ بأيله دون السيطرة على جزيرة القلعة (جزيرة فرعون) المواجهة لها فى خليج العقبة ؛ فقد شرع أرناط فى بناء عدة سفن ، حملت أجزاؤها مفككة على ظهور الجمال حتى خليج العقبة حيث ركبت .

ولم يكد يتم تركيب السفن الصليبية ، حتى استولى بعضها على جزيرة القلعة ، فى حين قام البعض الآخر بالاغارة على الموانى المصرية الصغيرة على البحر الأحمر ، الأمر الذى أثار رعب أهاليها ودهشتهم ، لأنهم لم يعتادوا رؤية سفن فرنجية قبل ذلك فى البحر الأحمر . ومن الموانى التى أغار عليها أسطول أرناط فى ذلك البحر ميناء عيذاب — الميناء المصرى الشهير ويقع فى مواجهة جدة — وهناك نهب الصليبيون بضعة سفن تجارية وافدة من

جدة واليمن وعدن والهند « فقتلوا وأسروا ، وأحرقوا فى بحر القلزم نحو ستة عشر مركبا ، وأخذوا بعيذاب مركبا يأتى بالحجاج من جدة ، وأخذوا فى الأسر قافلة كبيرة من الحجاج فيما بين قوص وعيذاب ، وقتلوا الجميع . وأخذوا مركبين فيهما بضائع جاءت من اليمن » وأخذوا أطعمة كثيرة من الساحل كانت معدة لميرة الحرمين وأحدثوا حوادث لم يسمع الاسلام بمثلها .. » [1] .

وبعد ذلك نقل الصليبيون نشاطهم الهدام الى الشاطىء المقابل للبحر الأحمر — أى شاطىء الحجاز — « فعظم البلاء وأعضل الداء وأشرف أهل المدينة النبوية منهم على خطر عظيم » [2] وقد دهش المسلمون جميعا لتلك الجرأة ، اذ لم يسبق أن « وصل قبلهم رومى الى ذلك الموضـــع » ؛ بل ان ابن جبير والمقريزى يؤكدان ان الصليبيين صاروا على مسيرة يوم واحد من المدينة . أما أبو شامة فيؤكد هذه الرواية ويقول ان الصليبيين نزلوا على ساحل الحوراء قرب ينبع حيث أغاروا على القوافل ، وتعهـــد بعض الخونة من البدو وارشادهم الى داخلية البلاد « ودلها على غوارب البلاد من الأعراب من هو أشد كفرا ونفاقا .. » [3] .

وفى رسالة للقاضى الفاضل أن الصليبيين استهدفوا من وراء تلك العملية الحربية الجريئة تحقيق هدفين خطيرين : أولهما قطع « طريق الحجاج عن حجه » وضرب المسلمين فى قبلتهم ؛ وثانيهما

(١) المقريزى : السلوك ؛ ج ١ ص ٧٩ .
(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ١٢٧ .
(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ٢ ص ٣٧ .

أن الصليبيين كانوا يزمعون الاستيلاء على عدن فى جنوب البحر الأحمر ، لأخذ « تجار اليمن وأكارم عدن » ، وبذلك يتمكنون بفضل السيطرة على أيلة فى الشمال وعدن فى الجنوب من اغلاق البحر الأحمر فى وجه أعدائهم المسلمين ، واحتكار تجارة الشرق الأقصى والمحيط الهندى .

ومن الواضح أن مثل هذا المشروع الضخم كان لا يمكن تحقيقه بنجاح فى ظل الأوضاع التى غدت فيها مملكة بيت المقدس فى الربع الأخير من القرن الثانى عشر ، عندما اختلت أمورها الداخلية ووافق ملكها بلدوين الرابع على وضع مملكته تحت الوصاية . وكل ما هناك هو أن خسارة الصليبيين من وراء السعى لتحقيق ذلك المشروع فاقت مكاسبهم ، لأنه بعد أن كان أتابكة دمشق (١١٣٨ — ١١٥٤) ثم أتابكة حلب (١١٧٤ — ١١٨٣) وأتابكة الموصل بعد سنة ١١٧٤ يحرصون على محالفة ملوك بيت المقدس كلما أحسوا بخطر من جانب زنكى أو نور الدين محمود أو صلاح الدين على التوالى ؛ مما أتاح للصليبيين فرصة للنفاذ بين صفوف المسلمين وتعطيل الوحدة الاسلامية ؛ اذا بالصليبيين بعد محاولتهم الاعتداء على الحرمين يبدون على حقيقتهم فى نظر المسلمين كافة ، مما آثار النفور منهم والكراهية لهم ، وحال دون تعاون أية قوة اسلامية — ضل حكامها وانحرفوا عن طريق الوحدة — معهم . وكفى ان المسلمين رأوا فى تهديد الحرمين نذيرا بقيام الساعة وعلامة على « غضب الله لفناء بيته المحرم » .

ومهما يكن من أمر ، فان صلاح الدين لم يسكت عن تهديد الصليبيين للحرمين ، وانما أصدر تعليماته السريعة الى أخيه العادل فى مصر ، فأعد العادل أسطولا قويا فى البحر الأحمر تحت قيادة الحاجب حسام الدين لؤلؤ ، متولى الأسطول بديار مصر .

وقد بدأ حسام الدين لؤلؤ بحصار أيله « وظفر بمراكب الفرنج فحرقها وأسر من فيها » ثم أسرع بعد ذلك بتعقب بقية السفن الصليبية عند عيذاب فشواطىء الحجاز . وكان الجزء الأكبر من تلك السفن موجودا على شاطىء الحوراء عندما دهمها حسام الدين ليدمرها ويستولى عليها بعد أن أطلق من فيها من تجار المسلمين الأسرى . أما الصليبيون فيبدو أنهم أخذوا على غرة ، فترك بعضهم السفن ولاذوا بالجبال ، وعندئذ حصل حسام الدين ورجاله على الخيل اللازمة من العربان ، وطاردوا الصليبيين بين الجبال حتى أسروهم جميعا (فبراير ١١٨٣) [١] .

وكان موسم الحج قد أزف عندئذ ، فأرسل حسام الدين أسيرين الى منى ، حيث نحروا « كما تنحر البدن » ؛ فى حين عاد معه بقية الأسرى الى مصر . وقد أمر صلاح الدين بقتل أولئك الأسرى ليكونوا عبرة لكل من تحدثه نفسه بالاعتداء على « حرم الله وحرم رسوله » ؛ وتم قتلهم فعلا بعد استعراضهم فى شوارع القاهرة والاسكندرية وغيرهما من المدن الكبرى . وكان الرحالة ابن جبير فى زيارة الاسكندرية عندئذ ، فذكر وصفا

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ٢ ص ١٢٨ .

طريفا لموكب أولئك الأسرى « راكبين على الجمال ووجوههم الى أذنابها وحولهم الطبول والأبواق ! » [1] . أما أرناط نفسه فقد استطاع الافلات فى صعوبة ، ولكن صــلاح الدين أقسم على ألا يغفر له فعلته هذه ، « ونذر دمه » .

وهكذا باءت محاولة الصليبيين فى البحر الأحمــر للاعتداء على الحرمين واحتكار تجارة المحيط الهندى بالفشل الذريع . واذا كانت هناك نتيجة لتلك المحاولة ، فان هــذه النتيجة كانت استثارة نقمة صلاح الدين على أرناط ، ولفت نظره الى الخطر الذى يهدد دولته من ناحية الكرك ووادى عربة ، وهى المنطقة التى تقع بين شقى دولته فى الشام ومصر » فضلا عن الحجاز . وكان حصن الكرك بالذات « على المسلمين منه ضرر عظيم ، فانه يقطع عن قصد مصر بحيث كانت القوافل لا يمكنها الخروج الا مع العساكر الضخمة » . وقد ذكر القاضى ابن شداد مدى اهتمام صلاح الدين بقلعة الكرك لأنها « كانت فى الطريق تمنع من يقصد الديار المصرية ، وكان لا يمكن أن تصل قافلة حتى يخرج هو بنفسه يعبرها بلاد العدو » [2] .

لذلك خرج صلاح الدين من دمشق فى سبتمبر سنة ١١٨٣ لحصار الكرك ، وأتى اليه لمساعدته فى تلك العملية أخوه العادل من مصر . وكان ذلك فى الوقت الذى اجتمع فى حصن الكرك

---

(١) رحلة ابن جبير ؛ ص ٢٩ .
(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ؛ ص ٧٥ .

مجموعة كبيرة من امراء الصليبيين وأعيانهم للاحتفال بزواج الأميرة ايزابلا أخت الملك بلدوين الرابع . وكان حصن الكرك قوى التحصين ، فاستطاع الصمود والثبات ، حتى أن صلاح الدين « لم ينل منه غرضا » . ولم يلبث الملك عمورى الأول أن خف — وهو فى حالة أقرب الى الموت منها الى الحياة — لنجدة الكرك ، على رأس جيش مملكة بيت المقدس ؛ مما جعل صلاح الدين ينسحب الى دمشق فى أوائل ديسمبر سنة ١١٨٣ ، بعد أن « رأى أن أمر الكرك يطول » .

على أنه ليس معنى ذلك أن صلاح الدين صرف نظرا عن حصن الكرك ، لا سيما وأن أرناط استمر يستغل ذلك الحصن فى تهديد طرق القوافل بين مصر والشام والحجاز . لذلك خرج صلاح الدين من دمشق مرة أخرى فى صيف سنة ١١٨٤ لمحاصرة الكرك ، وشاركه فى الحصار على رأس الجيش المصرى ابن أخيه المظفر تقى الدين عمر ، الذى حل محل الملك العادل فى حكم مصر . كذلك شارك صلاح الدين فى هجومه على الكرك تلك المرة نور الدين بن قرا أرسلان الأرتقى صاحب كيفا وآمد فى ديار بكر ، فضلا عن الملك العادل الذى أتى على رأس المعسكر الحلبى . وكان صلاح الدين قد استعد تلك المرة استعدادا قويا ، فأحضر المنجنيقات وآلات الحصار القوية ، حتى اذا ما أوشك أن يحقق غرضه ، تدخلت مملكة بيت المقدس مرة أخرى لتفسد عليه عمله . وللمرة الثانية اضطر صلاح الدين الى الانسحاب وانتقم من مملكة بيت المقدس بالاغارة على نابلس وسبسطية

وچينين . وقد نهبت جيوشه نابلس وأحرقت قلعة چينين ، ولكن صلاح الدين منح الأمان لأهل سبسطية وأسقفها اكراما لمشهد زكريا عليه السلام ، الذى يوجد فى ذلك المكان .

* * *

المسلمون والصليبيون قبيل حطين :

وكان أن أخذ صلاح الدين يستعد للهجوم الشامل الذى أزمع القيام به ضد الصليبيين . وقد بدأ صلاح الدين باجراء حركة تنظيم داخلى فى دولته ؛ فأخذ فى احلال أبنائه محل اخوته وأبناء عمومته فى الأجزاء الرئيسية للدولة . من ذلك أن صلاح الدين نقل أخاه العادل من حكم مصر الى حلب ، وأحل محله فى مصر المظفر تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين والأفضل على بن صلاح الدين . ولما دب النزاع بين هذين الاثنين تخوف صلاح الدين من أطماع ابن أخيه ، فاستدعاه فى صيف سنة ١١٨٦ وأحل محله ابنه الثانى العزيز عثمان . وقد رفض تقى الدين عمر تنفيذ ذلك ، فاحتال عليه صلاح الدين حتى أحضره الى الشام ، وعندئذ منعه من العودة الى مصر وأعطاه عدة اقطاعات متفرقة فى الشام ، مثل حماه ومنبج ومعرة النعمان وكفر طاب . أما العادل أخو صلاح الدين — وأقوى شخصية فى البيت الأيوبى بعد صلاح الدين نفسه — فقد حرمه صلاح الدين من حلب نظرا لأهميتها ، وأعطاها لابنه الملك الظاهر غياث الدين غازى ، وأعطى العادل سنة ١١٩١ اقطاعا ثانويا فى بلاد النهرين ،

يشمل الرها وحران وميافارقين ، وذلك « ليخرجه من الشام » (١).

وفى الوقت الذى كان صلاح الدين يدعم جبهته الداخلية ، ويستعد للحـركة الفاصلة ضد الصليبيين بالشام ، اذا بمملكة بيت المقدس الصليبية تسوء أحوالها فى أواخر أيام ملكها المريض بلدوين الرابع . ولم يلبث الملك تحت تأثير بارونات المملكة أن أبعد جاى لوزجنان عن الوصاية على مملكة بيت المقدس ، كما عين بلدوين الخامس — ابن أخته — شريكا له فى حكم المملكة ووريثا لبلدوين الرابع ؛ وذلك لتبديد أى أمل لجاى لوزجنان فى وراثة العرش . ثم ان بلدوين الرابع لم يكتف بكل ذلك ، وانما سعى لطلاق أخته سيبل من جاى لوزجنان ، الأمر الذى جعل الأخير يعتصم فى امارته — يافا وعسقلان — ليعلن ثورته على الملك . وهكذا بدأ الصراع مكشوفا بين الرجلين فزحف بلدوين الرابع على عسقلان ليجد أبواب المدينة موصدة فى وجهه ، فاتجه الى يافا ليستولى عليها ويعلن عزل جاى لوزجنان . ثم عقد مجلس بعد ذلك قرر اختيار ريموند الثالث أمير طرابلس وصيا على بلدوين الرابع (مارس ١١٨٥) ، وبذلك انتهت أسرته فى حكم مملكة بيت المقدس (٢) .

ولم يلبث أن أعلن بلدوين الخـامس ملـكا تحت وصـاية

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٨٢ هـ
المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٩١ — ٩٢

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصـليبية ؛ ج ٢ ص ٧٩٢ — ٧٩٣ .

ريموند الثالث أمير طرابلس . وكان ريموند الثالث يدرك مدى حاجة الصليبيين عندئذ الى فترة من السلم والهدوء يدعمون فيها مركزهم ويصفون خلافاتهم الداخلية لا سيما وأن بلاد الشام تعرضت لقحط شديد سنة ١١٨٥ . لذلك بادر ريموند بعقد هدنة مع صلاح الدين لمدة أربع سنوات (١١٨٥ — ١١٨٩) .

أما صلاح الدين ، فلم يشأ أن يضيع تلك السنوات الأربع فى سكون ، وانما وجه جهوده ضد الموصل ، واتجه لمهاجمتها مرة أخرى فى أبريل سنة ١١٨٥ . وقد أشار بعض المهندسين على صلاح الدين عندئذ بتحويل مجرى نهر دجلة عن الموصل لكى « ينقطع الماء عنها فلا يبقى الا تسليمها » ولكن كان من المتعذر تنفيذ ذلك المشروع ، وحالت حرارة الجو دون الاستمرار فى القتال ؛ فضلا عن أن صلاح الدين سمع عندئذ بوفاة صاحب خلاط دون أن يترك ولدا يرثه . لذلك ترك صلاح الدين حصار الموصل واتجه الى خلاط فى صيف سنة ١١٨٥ لينازع أتابك أذربيجان الاستيلاء عليها ؛ ولما فشل فى ذلك احتل ميافارقين . وفى طريق عودته مرض صلاح الدين « مرضا شديدا خاف من غائلته » ، فآوى الى حران ، ولم يستطع العودة الى الشام الا فى يونيو سنة ١١٨٦ (١) .

ويهمنا من قصة ذلك المرض ما يرويه القاضى ابن شداد من أن المواصلة انتهزوا فرصة مرض صلاح الدين « وعلموا سرعة

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ؛ ص ١١٢ .

انقياده ورقة قلبه فى ذلك الوقت » ؛ فسعوا للصلح معه ، بعد أن قنط عز الدين مسعود صاحب الموصل من مساعدة الخليفة والسلاجقة . وكان أن نجحت الفكرة ، وتم الصلح بين صلاح الدين من ناحية وعز الدين مسعود صاحب الموصل فى مارس سنة ١١٨٦ ، فرضى الأخير أن يكون تابعا لصلاح الدين « وخطب فى جميع بلاد الموصل للسلطان (صلاح الدين) وقطعت خطبة السلاطين السلجوقية بها ، وخطب له فى ديار بكر وجميع البلاد الأرتقية وضربت السكة باسمه » (١) .

هذا عن جانب صلاح الدين والمسلمين ؛ أما الصليبيون فقد تفاقمت مشاكلهم بوفاة الملك بلدوين الخامس الصغير فى عكا بعد بضعة أشهر من اعلانه ملكا . وكانت وفاة بلدوين الخامس ايذانا بصراع حاد بين أمراء المملكة حول الفوز بالعرش ، حتى انقسم الصليبيون الى معسكرين كبيرين ، أحدهما يؤيد جاى لوزجنان والآخر يؤيد ريموند الثالث . وسرعان ما سيطرت الأميرة سيبل وزوجها جاى لوزجنان على بيت المقدس والموانى الساحلية ، وذلك بمساعدة هرقل بطرق بيت المقدس وأرناط صاحب الكرك . أما ريموند فقد اتجه بسرعة الى نابلس ، والتف حوله جمع من الأمراء الذين رفضوا الاعتراف بجاى لوزجنان . ولكن هرقل بطرق بيت المقدس أسرع بتتويج سيبل وزوجها جاى لوزجنان فى بيت المقدس ؛ وعندئذ أخذ الأمراء الملتفين

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ٢ ص ١٧٢
ابن شداد : النوادر ص ١٢٢ — ١١٣ .

حول ريموند الثالث فى نابلس يتسربون واحدا بعـد آخر الى بيت المقدس ليعلنوا ولاءهم للملك الجديد . ومع ذلك فقد أصر ريموند الثالث صاحب طرابلس وبوهيموند أمير أنطاكية على موقفهما العدائى من جاى لوزجنان ، مما أوجد انقساما خطيرا فى جبهة الصليبيين (١) .

ذلك أن تتويج جاى لوزجنان ملكا على بيت المقدس جاء مخيبا لآمال ريموند أمير طرابلس ومطامعه ، فلم يجد وسـيلة للانتقام سوى التقرب من صلاح الدين . وكان ريموند أثنـاء وصايته على مملكة بيت المقدس قد حسن علاقته بصلاح الدين « وصار يناصحه » على قول المقريزى ؛ حتى اذا ما تتوج جاى لوزجنان ملكا ، أرسل ريموند الى صلاح الدين يطلب معونته « وانتمى اليه واعتضد به وطلب منه المساعدة على بلوغ غرضه من الفرنج ؛ ففرح صلاح الدين والمسلمون بذلك ، ووعـده النصرة » ؛ وذلك على قول ابن الأثير . وقد أشـار أبو شامة وابن واصل الى ما دار بين ريموند أمير طرابلس وصلاح الدين من اتصـالات فى ذلك الدور ، فذكرا أنه « قويت مناصـحته للمسلمين وباين أهل ملته ، وبث السرايا فى بلادهم » . ولا شك فى أن ذلك الانشقاق بين صـفوف الصليبيين جاء عظيم الفائدة

(١) للوقوف على التفصيلات انظر : ـ
سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ؛ ج ٢ ص ٧٩٤ وما بعدها

بالنسبة لصلاح الدين ، حتى اعتبره المؤرخون المسلمون « من أسباب نصرة الاسلام » (١) .

* * *

موقعة حطين ١١٨٧

وربما كان من حسن حظ الصليبيين أن يحدث ذلك الانقسام الخطير بين صفوفهم فى الوقت الذى كانت الهدنة لا تزال قائمة بينهم وبين صلاح الدين . على أن أرناط صاحب الكرك شاء بحماقته المعهودة ألا يترك الصليبيين ينعمون بتلك الفرصة ويحاولون تصفية خلافاتهم الداخلية أثناء الهدنة مع صلاح الدين، فتعجل اثارة الحرب ضد المسلمين ؛ وهى الحرب التى جاءت كارثة على أرناط نفسه وعلى الصليبيين جميعا . أجل ، اختار أرناط فى تلك الظروف العصيبة التى كان يمر بها الصليبيون جميعا أن يخرق الهدنة مع صلاح الدين ، ولم يعدم — وهو الفارس اللص كما أسماه المؤرخون الأوربيون أنفسهم — وسيلة لتعكير صفو السلم بين المسلمين والصليبيين ؛ واستغل فى ذلك موقع حصنه الكرك فى الأردن بين مصر والشام والحجاز . وهنا تجدر الاشارة الى أن أرناط استخدم فى أعماله العدوانية ، على المسلمين وقوافلهم طائفة من البدو الذين كانوا ينزلون فى المناطق الصحراوية القريبة من حصن الكرك .

---

(١) المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٩٢
ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٨٢ هـ
أبو شامة : كتاب الروضتين ؛ ج ٢ ص ٧٤ — ٧٥
ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ١٨٥ .

والمعروف أن أرناط نفسه كان قد طلب الأمان من صلاح الدين عقب اغارته الفاشلة فى البحر الأحمر . ووفقا للهدنة المعقودة بين صلاح الدين من جهة والصليبيين وأرناط من جهة أخرى ، أخذت القوافل الاسلامية — سواء للحج أو للتجارة — تمر بصحراء الأردن ، بعد أن « أمنت الطريق بين مصر والشام وتواصلت القفول حتى كان يمكن الذاهب والجائى » على قول ابن واصل . ولا شك فى أن هذا السلام عاد بالخير العميم على أرناط نفسه ، نظرا لما كان يفرضه على تلك القوافل من مكوس وضرائب . « ولكن ذلك الفارس اللص كان لا يستطيع الحياة دون أن ينهب ويسرق » كما يقول المؤرخ الفرنسى جروسيه ؛ فانقض فجأة على قافلة « ثقيلة معها نعم جليلة » للمسلمين ، متجهة من القاهرة الى دمشق فى أواخر سنة ١١٨٦ وأوائل سنة ١١٨٧ .

ويبدو أن ما كانت تحمله تلك القافلة بالذات من نفائس وثروة طائلة أسال لعاب « الفارس اللص » ، وجعله لا يبالى بالعهود والمواثيق . حقيقة أن السلطات المصرية احتاطت لحماية القافلة ، وأرسلت معها « جماعة صالحة من الاجناد » لحراستها فى الطريق ؛ ولكن أرناط نجح فى أن ينصب كمينا للقافلة وحاميتها ، وبذلك وضع يده على كل ما تحمله من ثروة وبضائع . أما رجال القافلة والمسافرون صحبتها ، فقد سلبهم أرناط كل ما معهم من مال وسلاح وأنعام ؛ ثم ألقى بهم أسارى فى حصن الكرك حيث « سامهم الشد والشدة » على قول أبى شامة .

وهنا ننبه الى أن بعض المراجع الصليبية أشارت الى أنه كان من بين الأسرى فى تلك القافلة أخت لصلاح الدين . ونقل هذا الرأى الخاطىء كثير من الكتاب الذين عالجوا تاريخ الحروب الصليبية . ولو كانت أخت صلاح الدين قد أسرت حقيقة عندئذ لأشار الى ذلك حتما المؤرخون المعاصرون المسلمون مثل ابن شـداد وأبى شامة وابن الأثير . وعلى ذلك نستطيع أن نقطع بخطأ هذا الرأى وبعده عن الحقيقة والتاريخ . ويتضح مما ذكره أبو شامه أن أخت صلاح الدين أتت فى قافلة أخرى قادمة من مكة ، وأنها وصلت سالمة الى دمشق فى صيف سنة ١١٨٧ ، كما سنشير الى ذلك فى موضعه .

ومهما يكن من أمر ، فان صلاح الدين لم يكد يعلم بما فعله أرناط حتى تذرع بالحلم ، فأرسل اليه مقبحا أعماله « ويتهدده ان لم يطلق سراح الأسرى والأموال » . ولكن أرناط « امتنـع من اجابة السلطان الى اطلاقهم » ، وأصم أذنيه عن ذلك التهديد « وأبى الا الاصرار والاضرار » (١) . بل لقد بلغ من جـرأة أرناط وقحته وحرصه على استفزاز صلاح الدين والمسلمين ، أنه رد على رسل صلاح الدين قائلا « قولوا لمحمد يخلصكم!! »(٢) وعندما وجد صلاح الدين اعراضا عن التفاهم من جانب أرناط ، أرسل الى الملك جاى لوزجنان يفيده بما حدث ، ويكرر طلبه

(١) المقريزى : السلوك ؛ ج ١ ص ٩٢ .
(٢) ابن واصل مفرج الكروب ؛ ج ٢ ص ١٩٤ .

بتسليم الأسرى والمنهوبات » ولكن أرناط أعرض أيضا عن جاى لوزجنان وأصر على عدم تنفيذ الأوامر التى أصدرها اليه ملك بيت المقدس لاعادة ما استولى عليه من القافلة الاسلامية . ويبدو أن أرناط كان يشعر بأنه صاحب فضل علـى جاى لوزجنان لمساعدته فى الوصول الى العرش ومساندته ضد خصومه ، مما جعله يستخف بملك بيت المقدس وأوامـره ، فى الوقت الذى لم يستطع الأخير أن يفرض رأيه على أرناط .

وهكذا لم يبق أمام صـلاح الدين الا القصاص والحرب ، وهى الحرب التى جاءت قاضية على الصليبيين وآمالهم فى البقاء بالشام ، بعد أن اختار أرناط أسوأ الأوقات والظروف بالنسبة للصليبيين لاستثارة صلاح الدين . ويكفى أن الانشقاق الذى حدث فى صفوف الصليبيين نتيجة لوفاة بلدوين الخامس ولتتويج جاى لوزجنان حرم مملكة بيت المقدس من معونة أقوى امارتين صليبيتين بالشام ، وهما امارة طرابلس وامارة أنطاكية . ولم يكن ريمـوند الثالث أمير طرابلس هو الذى وحـده « راسـل صلاح الدين وانتمى اليه » ، وانما حذا حذوه بوهيمولد الثالث أمير أنطاكية » فجدد الهدنة المعقودة بينه وبين صلاح الدين . هذا فضـلا عن انحلال مملكة بيت المقدس نفسـها فى ذلك الوقت واضطراب أمورها الداخلية ، بدليل أن أحد أمرائها — مثـل أرناط — استطاع أن يتجاسر على الملك ويعصى أوامره ، وهو أمر كان لا يمكن أن يحدث فى عهد ملوك مملكة بيت المقدس الأوائل . وهكذا ساءت أحوال مملكة بيت المقدس الصلسه

وتلاشى ما كان لملكها من نفوذ وهيبة ، ووجد الملك جاى لوزجنان نفسه وحيدا بين عصيان أرناط من ناحية وتمرد ريموند الثالث من ناحية أخرى . وكان ذلك فى الوقت الذى أخذ صلاح الدين يقوم باستعداداته على قدم وساق لاعطاء الصليبيين درسا قاسيا لم ينسوه بعد ذلك (١) .

والواقع ان صلاح الدين لم يستطع أن يكظم غيظه أمام رفض أرناط وعجز مليكه جاى لوزجنان عن رد أسرى القافلة الاسلامية ومتاعها ، فأقسم صلاح الدين على أن ينتقم من أرناط ، بل انه « نذر دمه وأعطى الله عهدا ان ظفر به أن يستبيح مهجته » (٢) . وكان أن قام صلاح الدين بحركة تعبئة شاملة لجميع قوى المسلمين ومواردهم البشرية والمادية استعدادا لخوض معركة جهاد كبرى لم تنته الا بقذف البقايا الصليبية بالشام فى البحر . وقد اختار صلاح الدين أن يظل فى ذلك الدور بدمشق ، ومنها أخذ ينظم تعبئة قواته من مصر وحلب والجزيرة وديار بكر . وعندما اكتملت استعدادات صلاح الدين غادر دمشق فى حوالى منتصف مارس سنة ١١٨٧ على رأس جيش كبير متجها نحو الجنوب حتى وصل الى رأس الماء — الى الشمال الغربى من حوران — حيث ترك ابنه الأفضل « لتجتمع عنده الامداد

---

(١) انظر : —
سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ؛ ج ٢ ص ٧٩٩ — ٨٠٠ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ٢ ص ١٨٥
أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ٢ ص ٧٥ .

والنجد » ؛ فى حين اتجه صلاح الدين نفسه الى بصرى لحماية قافلة الحجاج الآتية من الحرمين « خوفا عليهم من غدر عدو الله الابرنس (أرناط) » . وهذه القافلة هى التى كانت فيها احدى أخوات صلاح الدين وابنها محمد بن عمر لاجين .

ولم يكد صلاح الدين يطمئن على وصول قافلة الحجاج المذكورة فى ١١ مايو ، حتى شرع فى مهاجمة أرناط ، فسار الى الكرك فى اثنى عشر ألف فارس « ونازلها وقطع أشجارها ، ثم قصد الشوبك وفعل بها مثل ذلك » . وكان أرناط قد حبك خطته على أساس قطع الطريق على القوات الآتية من مصر « وصدهم عن الوصول الى صلاح الدين » ؛ ولكن صلاح الدين أفسد عليه خطته بأن تقدم الى الأمام « وتلقى العسكر المصرى » قرب الكرك دون أن ينتظر وصول تلك القوات اليه ، وبذلك أفسد على أرناط خطته . وهكذا وجد أرناط نفسه محصورا فى قلعة الكرك ، فى حين كان صلاح الدين يعمل حرا طليقا فى الأردن ، وابنه الأفضل لا يزال معسكرا عند رأس الماء ينظم القوات الاسلامية التى أخذت تتوافد عليه تباعا . ثم ان صلاح الدين كان حريصا على ألا يحارب فى أكثر من جبهة واحدة ، وألا يمكن الصليبيين من تعبئة قواهم وتوحيد صفوفهم ردا على تعبئة القوات الاسلامية ؛ فأرسل فى يونيو سنة ١١٨٧ الى رجاله بحلب يأمرهم بمصالحة بوهيموند الثالث أمير أنطاكية « ليتفرغ البال مع العدو فى جانب واحد » [١] .

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ؛ ص ١١٨ .

والواقع ان أحـوال الصليبيين عندئذ كانت لا تبشر بخير ، اذ لم يقتصر الأمر فى تلك الأزمة على عدم التعاون بين جاى لوزجنان من ناحية وأميرى طرابلس وأنطاكية من ناحية أخـرى ، وانما تعدى ذلك الى ما أنذر بالصـدام بين جاى لوزجنان وريموند . ذلك أن ريموند أمير طرابلس كان يمتلك مدينة طبرية بوصفه أميرا على اقليم الجليل ، فاعتصم بها عقب تتويج جاى ، وعندئذ اتفق فرسان الداوية مـع جاى لوزجنان عـلى محاصرة طبرية وانتزاعها من ريموند ، مما جعل الأخير يلقى بنفسه بين أحضان صلاح الدين طالبا مساعدته ضـد ملك بيت المقـدس والداوية . وكان أن لبى صلاح الدين نداء حليفه ريموند ، فأمده بالمعونة اللازمة ، ثم اتجه صلاح الدين بعـد ذلك الى بانياس — على بعد عدة كيلومترات من طبرية — لمراقبة الموقف . وفى ذلك الوقت جمع الملك جاى لوزجنان جيوشه فى الناصرة لمهاجمة طبرية ، وهى المدينة الصليبية التابعة لأمير صليبى ، بدلا من أن يوجه جهوده ضد تجمعات صلاح الدين وحشود المسلمين . على أن بعض أمراء الصليبيين تدخلوا فى اللحظة الأخيرة لافهام الملك جاى لوزجنان حقيقة الموقف ، فأقنعوه بارسال مبعوث الى ريموند أمير طرابلس للوساطة بين الطرفين ، وفى الوقت نفسـه حثوه على توجيه جهود الصليبيين ضد صلاح الدين والمسلمين .

وقد رأى صلاح الدين فى ربيع سنة ١١٨٧ أن يرسل قوة استطلاعية من بضعة آلاف جندى بقيادة مظفر الدين كوكبرى صـاحب حران والرها ، وبدر الدين دلدرم الياروقى أمير عسكر

حلب ، وصـــارم الدين قيماز النجمى أمير عسكر الدماشـــقة ، لتقوم هذه القوة بالاغارة على اقليم عكا . على أنه لكى تصـــل تلك القوة من بانياس الى عكا ، كان لابد لها من اختراق اقليم الجليل ، فاستأذن صـــلاح الدين أمير الجليل ريموند الثالث — الذى كان عندئذ بطبرية — فى ذلك . وهنا وجد ريموند نفســـه فى موقف لا يحسد عليه ، لأنه بحـــكم تحالفه مـــع صـــلاح الدين مضطر الى خيانة الصليبيين والسماح لقـــوات المسلمين بالمرور . ولم يجد ريموند مفرا من السماح للمسلمين بالمرور ، ولكن بعـــد أن أعطى تعليماته لكافة المدن الصليبية الواقعة فى اقليم الجليل — مثل طبرية والناصرة — باغـــلاق أبوابها حتى لا تعطى المسلمين فرصة للاستيلاء عليها .

عـــلى أنه عندما علم جـــيرار دى ريد فورت — مقـــدم الداوية — أن بعض قوات صلاح الدين ستمر باقليم الجليل ، أسرع بجمع بضعة مئـــات من الصليبيين وحاول أن يتصدى للمسلمين قرب صفورية . وهنالك دارت معركة رهيبة فى أوائل شهر مايو ســـنة ١١٨٧ سقط فيها معظم الصليبيين بين قتـــلى وأسرى ، وكان من جملة القتلى مقدم الاسبتارية وعدد كبير من أبرز فرسانهم فى حين لم ينـــج من الخمسمائة صـــليبى سوى عدد لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة ، ومن بينهم مقدم الداوية . وعندما أسرعت قوة من الصليبيين الى صفورية لنجدة اخوانهم ، كانت المعركة قد انتهت ، فأسر المسلمون تلك النجدة

وعادوا بها « سالمين غانمين » ؛ وهم يحملون رءوس أعدائهم على أسنة الحراب (١) .

ولم يكن ذلك النصر سوى « باكورة البركات ومقدمة ما بعدها من ميامن الحركات » ؛ على قول أبى شامة . وسرعان ما أفاق الصليبيون وعاد زعماؤهم الى رشدهم ؛ فأسرع ريموند الثالث أمير طرابلس الى الدخول فى طاعة الملك جاى لوزجنان ورضى أن يسير تحت رايته فى محاربة المسلمين . وقد اختار الصليبيون صفورية — قرب عكا مركزا لتجميع قواهم وحشد جيوشهم ، واصطحبوا معهم صليب الصلبوت أو الصليب الأعظم ، الذى يقال ان المسيح عليه السلام صلب عليه . أما صلاح الدين فانه لم يكد يعلم بأن ريموند نقض الهدنة والاتفاقية المعقودة بين الطرفين ، حتى زحف على طبرية فى أوائل يوليو سنة ١١٨٧ ، فاقتحمت جيوشه المدينة وأحرقتها ؛ ما عدا قلعتها التى لم يستطع المسلمون الاستيلاء عليها . وكانت أشيفا أميرة طرابلس والجليل وزوجة ريموند الثالث قد احتمت داخل تلك القلعة (٢) .

وهنا تبدو مهارة صلاح الدين العسكرية ، اذ كان يتوق

---

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٨٣ هـ .
ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ٢ ص ١٨٧ .
(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ٢ ص ٧٦
ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٢٠
ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٨٣ هـ
المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٩٣ .

للاشتباك فى معركة فاصلة مع الصليبيين ، ولكنه أراد أن يجبرهم على المسير اليه ، حتى يصلوا متعبين فى حين يدخر هو جهده وجهد رجاله . ولذلك استهدف صلاح الدين من مهاجمة طبرية أن يدفع الصليبيين الى ترك مراكزهم عند صفورية ويجبرهم على الزحف اليه فى اتجاهه . وقد عبر المؤرخون المسلمون تعبيرا صريحا عن خطة صلاح الدين ، فقال أبو شامة « فلما رأى السلطان أنهم لا يبرحون ومن قرب صفورية لا ينزحون .. نزل هو على مدينة طبرية ، وعلم أنهم اذا علموا بنزوله عليها بادروا للوصول اليها ، فحينئذ يتمكن من قتالهم ويجهد فى استئصالهم » . أما ابن الأثير فيؤكد هذا المعنى نفسه ويقول « وانما كان قصده بمحاصرة طبرية أن يفارق الفرنج مكانهم ليتمكن من قتالهم » . وفعلا نجحت خطة صلاح الدين ، اذ ثارت ثائرة الصليبيين لهجوم صلاح الدين على طبرية « وغاظ ذلك الفرنج » ؛ فعقد زعماؤهم مجلسا للحرب فى عكا لبحث الموقف . وفى ذلك المجلس رأى بعض الزعماء الزحف من صفورية على قوات صلاح الدين فى طبرية ، فى حين رأى البعض الآخر — وعلى رأسهم ريموند الثالث نفسه — خطورة تلك العملية لصعوبة الطريق وقلة الماء .

وكان المفروض أن يكون ريموند الثالث على رأس المتحمسين للزحف على طبرية لانقاذ مدينة زوجته ، ولكنه أدرك خطورة ذلك العمل ، وعبر عن رأيه فى خطبة ألقاها على زعماء الصليبيين وذكرها مؤرخو الفرنجة ، فضلا عن ابن الأثير

الذى أتى بنص دقيق لمعانيها . أما الأدلة التى حاول بها ريموند أن يدعم وجهة نظـره ، فأهمها أن المسلمين لن يستطيعوا أن يفعلوا شيئا بعد الاستيلاء على طبرية ، وأنهم لن يلبثوا أن ينصرفوا اذا تحاشى الصليبيون الاصطدام بهم ، كما حدث فى المرات الســابقة . فاذا فرض وأنهم زحفوا عــلى الصليبيين فى صفورية فان الصليبيين سيكونون فى مركز أفضل ، لأن المسلمين سيكونون مجهدين بسبب وعورة الطريق وطوله وحرارة الجو وقلة الماء .

على أن هذا الرأى لم يعجب أرناط ، فاتهم ريموند بأنه بالغ فى التخوف من المسلمين وأنه « يريدهم ويميل اليهم » . وأخيرا نجح أرناط صاحب الكرك وجيرار دى ريدفورت مقدم الداوية فى اقناع جاى لوزجنان — ملك بيت المقدس الضعيف المتردد — بالزحف على طبرية . وهكذا بدأ الجيش الصليبى زحفه فى أوائل يولية سنة ١١٨٧ فى ظروف بالغة السوء : فروح الصليبيين المعنوية منحطة ، وجزء كبير منهم لم يكن من أنصار السير فساروا مكرهين ؛ هذا كله بالاضافة الى حرارة الجـو القاسية فى شهر يوليو وصعوبة الطريق الذى بلغ طوله ستة عشر ميلا .

وفى الوقت الذى كان الصليبيون يتحملون كل هذه المشاق فى زحفهم ؛ اذا بصلاح الدين ورجاله ينتظرون قرب طبرية ، ينعمون بالماء الوفير والظل المديد ، مكتنزين قواهم لســاعة الفصل . لذلك لا عجب اذا أظهر صلاح الدين سروره وارتياحه

عندما علم بزحف الصليبيين اليه ، وقال « جاءنا ما نريد » (١)
وكان كل ما فعله صلاح الدين عندما تأكد من تحرك الصليبيين تجاهه هو أنه تقدم نحو خمسة أميال حيث رابط غربى طبرية عند قرية حطين ، وهى قرية غنية المرعى وفيرة الماء ، بها قبر شعيب النبى عليه السلام (٢) .

ولم تنقطع اغارات المسلمين على الصليبيين أثناء زحفهم الشاق من صفورية الى حطين . وكان يوم الثالث من يوليو يوما شديد الحرارة راكد الهواء عندما أدرك الصليبيون « سطح جبل طبرية » المشرف على سهل حطين ؛ وهى منطقة على هيئة هضبة ترتفع عن سطح البحر أكثر من ثلثمائة متر ، ولها قمتان ، مما جعل العرب يطلقون عليها اسم قرون حطين . وبوصول الصليبيين الى تلك الهضبة كانوا قد بلغوا حالة سيئة من الانهاك « واشتد بهم العطش » ، فى حين على مقربة منهم — وفى أسفل الهضبة ذاتها — تقع قرية حطين ثم بحيرة طبرية بمائها الدافق ؛ ولكن حال بينهم وبين الوصول الى ذلك الماء صلاح الدين وجيوشه . ومهما يكن من أمر فان الداوية وريموند الثالث أبلغوا الملك أنهم لا يستطيعون مواصلة الزحف فى ذلك اليوم وأنه من الخير قضاء الليل فوق الهضبة ، فى حين أصر بعض الأمراء على ضرورة شق طريقهم فورا الى البحيرة لاطفاء نار

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ٢ ص ٧٦ .
(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٢١
ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ١٨٩ .

عطشهم . ولما وجد جاى أن معظم رجاله لا يقوون على السير بسبب الانهاك والعطش أمر بأن يقضى الصليبيون ليلتهم فوق الهضبة بعيدا عن خطر المسلمين .

وهكذا تم لصلاح الدين ما أراد ، فقضى الصليبيون ليلتهم يئنون من العطش والانهاك ، وهم يسمعون أصوات المسلمين فى سهل حطين وقد « أكثروا التكبير والتهليل طوال ليلتهم » . وربما دفع العطش بعض الصليبيين الى التسرب ليلا لمحاولة الوصول الى الماء ، ولكن المسلمين وقفوا لهؤلاء بالمرصاد ليقضوا عليهم قبل أن يصلوا الى غرضهم . هذا الى أن المسلمين أشعلوا النار فى الأعشاب والأشواك التى تكسو الهضبة « وكانت الريح على الفرنج فحملت حر النار والدخان اليهم ، فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان والدخان وحر القتال » (١) .

وعندما أشرقت شمس يوم السبت ٤ يوليه ، وجد الصليبيون أن صلاح الدين استغل ستار الليل ليحيط بهم « احاطة الدائرة بقطرها » . وبذلك بدأ هجوم المسلمين على الصليبيين فى ظروف هى أسوأ ما تكون بالنسبة للجيش الصليبى . ويذكر القاضى ابن شداد ثم المؤرخ أبو المحاسن أن المسلمين أدركوا « أن من ورائهم الأردن ومن بين أيديهم بلاد العدو وأنهم لا ينجيهم الا القتال والجهاد » ؛ ولذلك استماتوا فى القتال وشددوا هجماتهم على الأعداء . أما الصليبيون فقد تعذر عليهم الصمود

---

(١) ابن الاثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٨٣ هـ .

طويلا وهم على تلك الدرجة من الانهاك والعطش « فأخذتهم سهام المسلمين ، وكثر فيهم الجراح ، وقوى الحر ، وسلبهم العطش القرار .. » [1] .

وفى تلك المحنة التى حلت بالصليبيين لم يستطع النجاة سوى ريموند كونت طرابلس ومعه قلة من رجاله ، ففروا تجاه صور . وقد وصفه ابن شداد بالذكاء لأنه بادر بالهرب عندما « رأى امارات الخذلان نزلت بأهل دينه » . ويفسر ابن الأثير الطريقة التى نجا بها أمير طرابلس فقال انه عندما أيقن هلاك الصليبيين ، أراد الفرار بأية وسيلة « فحمل حملة مكروب » وعندئذ فتح له تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين طريقا خرج منه ، وبعد أن خرج « التأم الصف » . أما بقية الصليبيين فقد « آووا الى جبل حطين ليعصمهم من البلاء » ؛ فأحاط المسلمون بالجبل وظلوا يطاردونهم من أسفل والصليبيون يتراجعون أمامهم نحو أعلى الجبل ، أى فى اتجاه قرون حطين . وفى تلك الأثناء سقط أسقف عكا قتيلا ، ووقع من يديه صليب الصلبوت فاستولى عليه المسلمون ، وكان ذلك « من أعظم المصايب عليهم ، وأيقنوا بعده بالقتل والهلاك » [2] . وهكذا ظل المسلمون يزحفون نحو قمة الجبل وأمامهم الصليبيون يتراجعون « والقتل والأسر يعملان فى فرسانهم » ؛ حتى بقى ملك بيت المقدس وحوله مائة وخمسون من الفرسان ؛ فقبض عليهم المسلمون جميعا ،

---

(1) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ٢ ص ١٩٠ .
(2) عماد الدين الكاتب : الفتح القسى ؛ ص ٢٣ .

وهم متساقطون على الأرض لا يستطيعون حراكا بسبب الانهاك والعطش والخوف .

ولم يلبث أن سيق الملك جاى لوزجنان وأرناط صاحب حصن الكرك ، وجيرار دى ريد فورت مقدم الداوية .. وغيرهم من أكابر الصليبيين الى صلاح الدين فى مخيمه ، فاستقبلهم استقبالا حسنا ، وأجلس الملك الى جانبه « وقد أهلكه العطش » . وقد بادر صلاح الدين بتقديم اناء به ماء مثلوج للملك جاى ، فشرب منه ، وأعطى ما تبقى لأرناط فشرب ، وعندئذ غضب صلاح الدين وصاح : « ان هذا الملعون لم يشرب الماء باذنى فيناله أمانى » . وفى رواية صاحب كتاب الروضتين أن صلاح الدين قال لملك بيت المقدس « لم تأخذ فى سقيه منى اذنا ، فلا يوجب ذلك له منى أمنا » . ويفسر القاضى ابن شداد هذا التصرف من جانب صلاح الدين فيقول « وكان على عادة جميل العرب وكريم أخلاقهم أن الأسير اذا أكل أو شرب من ماء لمن أسره ، أمن بذلك » (١) .

وكان أن التفت صلاح الدين نحو أرناط وذكره بجرائمه وخيانته « وقرعه بذنوبه وعدد عليه غدراته ؛ وقال له : كم تحلف وتنكث ؟ فرد أرناط على لسان الترجمان : قد جرت بذلك عادة الملوك !! » وعندئذ أمسك صلاح الدين بسيفه ، وأطاح برأس أرناط ، فجاء ذلك « وفاء نذره » . ويبدو أن قتل أرناط على تلك

---

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٢٤
ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٨٣ هـ

الصورة أخاف جاى لوزجنان « فارتاع وانزعج » وظن أن دوره آت عن قريب ، ولكن صلاح الدين هدأ روعه وقال له « لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك وأما هذا فانه تجاوز حده فجرى عليه ما جرى » . وبعد ذلك أمر صلاح الدين رجاله برعاية أمــراء الصليبيين وأسراهم .

وبعد ذلك النصر المبين ، انصرف صلاح الدين من حطين ، فى حين سيق الأسرى الى دمشق حيث حبس الأمــراء وبيع عامة الفرسان والجند فى أسواق الرقيق . وقد بلغ من كثرة الأسرى أن الأسير كان يباع فى دمشق بثلاثة دنانير ؛ وكان « يباع الرجــل وزوجته وأولاده فى المناداه بيعة واحدة ! » (بالجملة) . وقد بلغ سعر الجملة للأسرة المؤلفة من الصليبى وزوجته وأبنائه الثلاثة وبنتيه ، ثمانين دينارا !! [١] .

* * *

استرداد بيت المقدس وانهيار مملكة الصليبيين :

الواقع ان حطين كانت أعظم من مجرد نصر حــربى بالنسبة للمسلمين ؛ لقــد كانت فى حقيقة أمرها بشيرا بنجاح المسلمين فى القضاء على أكبر حركة استعمارية شهدها العالم فى العصــور الوسطى . أما بالنسبة للصليبيين فان حطين كانت أضخم من مجرد كارثة حربية ، لأنه لم ينتج عنها أسر جاى لوزجنان ملك بيت المقدس وضياع هيبة مملكته وسلطتها الفعلية الى الأبد فحسب ، وانما

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ؛ ج ٢ ص ٨٢ .

تتج عنها أيضا نقص ملموس فى الفرسان المحاربين بعد أن سقط زهرة فرسان الصليبيين ، وغالبية جيش مملكة بيت المقدس بين قتلى وأسرى فى يوم حطين ؛ « فمن شاهد القتلى قال ما هناك أسير ، ومن عاين الأسرى قال ما هناك قتيل !! » ، على قول أبى شامة .

وليس بخاف علينا أن الامارات الصليبية التى خلقت خلقا ضعيفا فى أواخر القرن الحادى عشر ، وظلت منذ ذلك الوقت تعانى نقصا شديدا فى المحاربين ؛ كانت أضعف من أن تتحمل الكارثة التى نزلت بها فى حطين . حقيقة انها استطاعت البقاء بعد ذلك قرابة قرن من الزمان ، ولكن بقاءها لم يكن وليد قوتها بقدر ما كان نتيجة لضعف القوى الاسلامية وتفككها وعدم وحدتها وبخاصة فى مصر والشام بعد وفاة صلاح الدين .

ومهما يكن من أمر ، فان الصليبيين فى بلاد الشام غدوا بعد موقعة حطين تحت رحمة صلاح الدين ، فشرع يفتح البلاد والمدن الصليبية واحدة بعد أخرى فتحا سريعا متواصلا . ولعل أهم ما يسترعى الانتباه فى ذلك الدور من أدوار الحروب الصلاحية ، هو اعتدال صلاح الدين ، وبعده عن التطرف ، وتمسكه بمبادىء الأخلاق والرحمة والتسامح ، وهو الأمر الذى شهد له به كافة المؤرخين ، الغربيين والشرقيين سواء . من ذلك أنه عندما استسلمت قلعة طبرية لصلاح الدين فى اليوم التالى لموقعة حطين ، فانه عامل الأميرة اشيفا معاملة كريمة « وأخرجها من حصنها بالأمان ووفى لها وللفرسان بنيها بشروط الايمان ، فخرجت بمالها ورجالها

ونسائها ، وسـارت الى طرابس بلد زوجها القومص (ريموند الثالث) بمالها وحالها » [1] .

وكان من الأمراء القلائل الذين نجوا من موقعة حطـين الأمير باليان الثانى دى ابلين — الذى أطلق عليه المؤرخون العـرب اسم « ابن بارزان » — والذى تزوج من الملكة ماريا كومنين أرملة عمـورى الأول ملك بيت المقدس الأسبق . وقد سمح صلاح الدين — وفقا لسياسته فى التسامح والافراط فى الحسنى مـع خصـومه — لذلك الأمير بالذهاب الى بيت المقـدس ، بشرط عدم المبيت فيها أكثر من ليلة واحدة لأخذ زوجته وأولاده منها . وعندما وصل باليان الى بيت المقدس ، وجد المدينة فى حالة يرثى لها لعدم وجود فرسان يدافعون عنها ، « اذ لم يبق بها سوى النساء والرهبان » ؛ فضلا عن انهيار الروح المعنوية للأهالى عقب ما سمعوه من أنباء كارثة حطين وأسر ملكهم . وقد فرح الصليبيون فى بيت المقدس برؤية باليان ، وتوسلوا اليه بالدموع ليبقى معهم ويدافع عنهم ، فنسى وعده لصلاح الدين ، وأخذ يعمل فى سرعة لانقاذ ما يمكن انقاذه من الحطام الصليبى . ذلك أنه جمع من استطاع جمعهم من الفرسان وأبناء الفرسان فوق سن الخامسة عشر ، فضلا عن الصناع والتجار الصالحين للقتال ، ثم لجأ بالاتفاق مع البطرق الى الاستيلاء على ما بكنيسة القيامة من نفائس معدنية وأوانى فضية لصهرها وضربها نقودا يستعين بها على قضاء حاجات

(١) المرجع السابق ؛ ص ٧٩ .

الدفاع واستئجار الجند . ومع ذلك فانه من الواضح أن جميع تلك الاجراءات كانت واهية ، لا تكفى لانقاذ بيت المقدس بسبب نقص العنصر الأساسى فى الحرب والدفاع ، وهم الفرسـان المدربون .

على أن صلاح الدين لم يلبث أن خيب ظن الصليبيين ، فبدلا من أن يتجه الى بيت المقدس ليستولى عليها استيلاء آمنا سهلا ، اذ به يتجه صوب عكا أولا . وربما بدا فى ذلك مظهر من مظاهر عبقرية صلاح الدين الحربية وبعد نظره ، اذ اختار أن يبدأ بالاستيلاء على المدن الصليبية الساحلية ، ليحرم الصليبيين من قواعدهم البحرية التى تربطهم بالعالم الخارجى — وبخاصة الغرب الأوربى — فيمسوا محصورين داخل بلاد الشام ؛ وبعد ذلك تتساقط فى يده المعاقل والمدن الصليبية فى الداخل بعد أن ينقطع الشريان الذى يربطها بقلب الحركة الصليبية ؛ وهو الغرب الأوربى . هذا فضلا عن أن استيلاء صلاح الدين على عكا وغيرها من موانى الشام الصليبية سيمكنه من تحقيق الاتصال البحرى السريع بين شطرى دولته فى مصر والشام (١) .

أما عكا ، فلم تكن عندئذ أحسن حالا من بيت المقدس ، بسبب افتقارها الى الفرسان والمقاتلين . وكان حاكم عكا — جوسلين الثالث دى كورتناى — أحد الفرسان المعدودين أيضا ، الذين

---

(١) انظر : ــ
سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ؛ ج ٢ ص ٨١٢ ــ ٨١٣ .

نجوا من حطين مع ريموند الثالث وباليان الثانى . ولم يجد جوسلين ضمانا لحماية عكا سوى اعطائها لريموند الثالث أمير طرابلس . على أن جوسلين الثالث نفسه كان ضعيفا متخاذلا ، فلم تكد مقدمة الجيش الاسلامى تقرب من عكا ، حتى انهارت مقاومته وعرض على المسلمين تسليم المدينة . وكان أن وصل صلاح الدين نفسه أمام عكا فى ٨ يوليو ، وعندئذ أرسل له جوسلين مفاتيح أبواب المدينة ، بشرط تأمين أهاليها على أرواحهم وممتلكاتهم « فأمنهم (صلاح الدين) على أنفسهم وأموالهم ، وخيرهم بين الاقامة والظعن »[1] . وقد غنم المسلمون فى عكا غنائم طائلة ، واستولوا على مقادير ضخمة من الأموال والذخائر والبضائع ، لأن هذه المدينة بالذات كانت ذات مكانة تجارية هامة ، وعن طريقها تتم معظم تجارة الصليبيين مع الغرب ، أو على حد تعبير أبى شامة « فانها كانت مظنة التجار » .

على أن بعض أهالى عكا من الصليبيين لم يعجبهم موقف جوسلين ، وعز عليهم أن تستسلم المدينة للمسلمين دون مقاومة ، فأشعلوا النار فى بعض أحيائها ومبانيها ، ولكن كل ذلك لم يحل دون دخول صلاح الدين عكا يوم ١٠ يوليو سنة ١١٨٧ . ولم يلبث أن وجد الصليبيون داخل عكا فى صلاح الدين قلبا كبيرا « فوهب لهم عصمة الأنفس والأموال » . ويقال ان صلاح الدين أطلق أربعة آلاف أسير من المسلمين كانوا فى عكا ،

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ٢ ص ٢٠١ .

ورتب فى كنيستها العظمى منبرا أقيم فيه الجمعة ، كما أقطع مدينة عكا ذاتها لابنه الأفضل .

ومن الواضح أن ذلك المسلك المعتدل الذى سلكه صلاح الدين تجاه الصليبيين ، انما ساعده فى الاستيلاء على كثير من المدن الصليبية الساحلية والداخلية ، كما أدى الى احتفاظ عكا وغيرها من المدن الصليبية التى استولى عليها المسلمون بعناصرها النشيطة فى الميدان التجارى — مثل البنادقة والجنوية والبيازنة والقطلان — مما أدى الى استمرار رواج الحياة الاقتصادية فى بلاد الشام . هذا وان كانت المراجع العربية لم تخل من اشارات عن الأموال الطائلة التى فرقها صلاح الدين وابنه الأفضل على رجاله وأصحابه مما غنمه بعكا (١) .

وبينما أقام صلاح الدين فى عكا ، وجه عساكره للاستيلاء على المعاقل القريبة ، فاستولوا على الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا والشقيف والفولة والطور ، وغيرها من المواقع والحصون القريبة من عكا . وفى ذلك الوقت هاجم العادل — أخو صلاح الدين — المدن الساحلية فى فلسطين ، فاستولى على حصن مجدل يابا (مجد ليابا) — بين يافا ونابلس — وهاجم يافا نفسها فقاومته ، ولكنها سقطت أخيرا فى يده .

كذلك وجه صلاح الدين ابن أخته حسام الدين لاجين فاستولى على سبسطية ، كما استولى على قلعة تبنين — « وهى

(١) ابو شامة : كتاب الروضتين ، ج ٢ ص ٨٦
ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث ٥٨٣ هـ .

من القلاع المنيعة » — ولكنه صادف مقاومة شديدة من حاميتها جعلته يستنجد بخاله صلاح الدين الذى أسرع اليه « وضيق عليها بالزحف الخناق » حتى استسلمت القلعة فى نهاية الأمر فى ٢٩ يوليو سنة ١١٨٧ ، وعندئذ حقق صلاح الدين وعده ، فسمح لحاميتها بالخروج منها فى أمان . وعلى العكس من ذلك استسلمت صرفند وصيدا للمسلمين دون أدنى مقاومة « فأخذها صفوا عفوا بغير قتال » فى أواخر يوليو سنة ١١٨٧ ، وبذلك جاء دور بيروت التى ظهر صلاح الدين أمامها فى نهاية يوليو . وكانت بيروت — على قول ابن الأثير — « أحصن مدن الساحل فى بلاد الشام » ؛ فضلا عن حسنها وجمالها ، فتحصن الصليبيون وراء أسوارها وحاولوا الدفاع عنها ، ولكنهم كانوا من التجار وأصحاب الحرف ، ولم تكن معهم فئة من الفرسان تجيد استخدام السلاح ، فاستسلموا لصلاح الدين فى سادس أغسطس سنة ١١٨٧ .

وبعد ذلك اتجه صلاح الدين نحو جبيل — التى كان صاحبها هيو الثالث قد أسر فى طبرية ، والذى عرض على صلاح الدين استعداده لتسليم جبيل مقابل اطلاق سراحه — وفعلا استحضره صلاح الدين من دمشق « فى قيده » حيث أمر الحامية بالتسليم ، فاستولى عليها صلاح الدين . وهنا نلاحظ أنه اذا كان صلاح الدين قد استولى على معظم المدن والقلاع والمراكز

الساحلية فى جنوب بلاد الشام ، الا أنه ترك من فيها من الصليبيين أحرارا ، كما ترك لهم حرية البقاء أو الخروج ، فقصد معظمهم مدينة صور حيث تجمعت البقايا الصليبية المتخلفة عن مملكة بيت المقدس . وسرعان ما أدرك صلاح الدين أن أمر صور غدا صعبا ، بعد أن « اجتمع فيها كل افرنجى بقى فى الساحل » فتركها مؤقتا ، وآثر الانصراف الى غيرها (١) .

وقبل أن يتجه صلاح الدين الى بيت المقدس ، اختار أن يستولى أولا على عسقلان ، ذلك المركز الهام الذى طالما اتخذه الصليبيون قاعدة لتهديد مصر من ناحية ، وقطع المواصلات بينها وبين الشام من ناحية أخرى . وعندما وجد صلاح الدين أن عسقلان ربما أتعبته بسبب قوة تحصينها واصرار حاميتها الصليبية على المقاومة ، استحضر الملك جاى لوزجنان وجيرار دى مونتفورت مقدم الداوية من دمشق ، ووعدهما بتحريرهما اذا هما ساعداه بنفوذهما الأدبى والمعنوى فى حمل البقايا الصليبية بفلسطين على التسليم . ولكن أهل عسقلان رفضوا الاستجابة للملك وزميله « وردوا عليهما أقبح رد » . وفى تلك الأثناء استولى صلاح الدين على مواقع عديدة كالرملة ويبنا والد اروم ، كذلك قبل مقدم الداوية أن يسلم صلاح الدين غزة والنطرون وبيت جبرين ، وهى القلاع التى كانت بأيدى الداوية فى فلسطين . أما أهل عسقلان فقد استمروا فى المقاومة حتى نفدت

---

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٢٦ .

امكانياتهم وعندئذ طلبوا الأمان فأمنهم صلاح الدين على أرواحهم وأموالهم .

وقد أطلق صلاح الدين سراح جيرار مقدم الداوية مقابل ما أداه من معونة له ، لا سيما فى حثه حامية غزة على التسليم . أما جاى لوزجنان الذى لم يستطع أن يحقق العمل الذى وعد صلاح الدين بتحريره فى مقابله ، فقد أرسل الى نابلس . وفى نفس الوقت وافق صلاح الدين على ارسال رسالة للأميرة سيبل زوجة جاى فى بيت المقدس لدعوتها للحضور الى نابلس للاقامة مع زوجها . وكان أن رحبت سيبل بتلك الدعوة ، وأسرعت الى نابلس لتقيم الى جانب زوجها الأسير جاى لوزجنان .

وهكذا لم يبق أمام صلاح الدين فى داخلية فلسطين سوى بيت المقدس ، فأخذ يستعد للاستيلاء عليها . وكان صلاح الدين قد استقبل — وهو أمام عسقلان — بعثة من أهل بيت المقدس ، فعرض عليهم تسليم المدينة بالشروط نفسها التى استسلمت بها بقية المدن الصليبية فى فلسطين ، أى أن يؤمنهم على أرواحهم ونسائهم وأولادهم وأموالهم ، ويسمح لمن يشاء منهم بالخروج من المدينة سالما . ولكن أهل بيت المقدس الذين أخذ باليان (ابن بارزان) يقوى فيهم روح المقاومة ، رفضوا ذلك العرض ورأوا « أن الموت أيسر عليهم من أن يملك المسلمون البيت المقدس » [1] . وعندئذ أقسم صلاح الدين على أن يسترد بيت

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ٢ ، ص ٢١١ .

المقدس بحد السيف . ومع ذلك فقد ظل صلاح الدين محتفظا بكريم أخلاقه ، فسمح بخروج الملكة ماريا كومنين — زوجة باليان — وأمر بتوفير الحراسة لها من بيت المقدس حتى طرابلس ، كما سمح لغيرها من النساء والأطفال بالخروج من المدينة آمنين .

ثم عاد صلاح الدين وكرر عرضه على أهل بيت المقدس من الصليبيين التسليم بشروط طيبة ، وذلك رغبة منه فى عدم استخدام العنف مع مدينة لها حرمتها عند المسلمين والمسيحيين سواء ؛ ولكنهم أصروا على موقفهم ؛ وعندئذ قرر صلاح الدين أن « لا يبرح حتى يبر قسمه ، ويرفع بأعلاه علمه » (١) . وكان أن أعد صلاح الدين عدته لمهاجمة بيت المقدس ، فنزل أولا بالجانب الغربى من المدينة ، ولكنه وجد ذلك الجانب قوى التحصين مشحونا بالمقاتلين ، فأخذ يطوف حول المدينة خمسة أيام ليتجسس موطن الضعف فى أسوارها حتى استقر رأيه أخيرا على أن يركز هجومه فى الجهة الشمالية . وفى ٢٠ سبتمبر سنة ١١٨٧ بدأ هجوم صلاح الدين عند باب عمرو فى الجانب الشمالى من بيت المقدس — فحمل المسلمون « حملة رجل واحد » حتى وصلوا الى سور المدينة ونقبوه .

وفى الوقت الذى اشتد هجوم صلاح الدين على بيت المقدس اتسعت رقعة الخلاف داخل المدينة بين طوائف المسيحيين من أرثوذكس وكاثوليك ؛ حتى أن الفريق الأول أعلن أنه يفضل

(١) عماد الدين الكاتب : الفتح القسى ؛ ص ٤٣ .

الحكم الاسلامى على سيطرة الكاثوليك الغربيين . وتشير بعض المراجع الى أن ثمة اتصالات سرية تمت عندئذ بين صلاح الدين وطائفة الأرثوذكس داخل بيت المقدس ، تعهد هؤلاء بفتح أبواب بيت المقدس للمسلمين .

ولم يلبث باليان دى ابلين أن أدرك استحالة المقاومة بعد أن أحس بنقص الرجال المقاتلين بصورة مخيفة ، حتى قيل انه كان فى بيت المقدس عندئذ رجل واحد من الصليبيين مقابل كل خمسين من النساء والأطفال . لذلك « أرسلوا جماعة من كبرائهم فى طلب الأمان وتسليم القدس » بشرط احترام من بالمدينة من الصليبيين والسماح لمن يشاء بمغادرتها . وكانت هذه الشروط نفسها هى التى سبق أن عرضها صلاح الدين من قبل ورفضها باليان . ولكن صلاح الدين امتنع فى تلك المرة ، وأصر على تسليم المدينة دون قيد أو شرط ، لأنه أقسم على الاستيلاء عليها بحد السيف ؛ وقال لرسل الصليبيين « لا أفعل بكم الا كما فعلتم بأهله (أهل القدس) حين ملكتموه سنة احدى وتسعين وأربعمائة من القتل والسبى ، وأجزى السيئة بمثلها » (١) .

وعندما ساء موقف الصليبيين داخل بيت المقدس ، أخذوا يتدبرون المصير القاسى الذى ينتظرهم ، وعندئذ حاولوا مرة أخرى اقناع صلاح الدين بالعفو عنهم ، فخرج باليان بنفسه لاستعطاف صلاح الدين ، ولما وجده مصرا على موقفه لجأ الى

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٨٣ هـ .

لهجة فيها كثير من الترغيب والتهديد ، فقال لصلاح الدين : « اذا رأينا الموت لابد منه فوالله لنقتل أبناءنا ونساءنا ونحرق ما نملكه من أموالنا وأمتعتنا ، ولا نترككم تغنمون منا دينارا ولا درهما ، ولا تأسرون رجلا ولا امرأة . فاذا فرغنا من ذلك أخربنا الصخرة والمسجد الأقصى ، وغيرها من المواضع الشريفة ، ثم نقتل من عندنا من أسرى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير ، ولا نترك لنا دابة ولا حيوانا الا قتلناه . ثم خرجنا اليكم وقاتلنا قتال من يريد أن يحمى دمه ونفسه ، وحينئذ لا يقتل الرجل حتى يقتل أمثاله » (1) .

وكان أن استشار صلاح الدين أصحابه فى الموقف ، فوافقوا على ترك المسيحيين يغادرون المدينة مقابل فداء عشرة دنانير للرجل « يستوى فيها الغنى والفقير » ، وخمسة للمرأة وواحد للطفل . أما الفقراء والمعدمون من الصليبيين ، فقد وافق صلاح الدين على أن يدفع باليان لسبعة آلاف منهم مبلغا اجماليا قدره ثلاثون ألف دينارا . واشترط صلاح الدين أن يؤدى الصليبيون الفداء المفروض عليهم فى مدى أربعين يوما « ومن انقضت الأربعون يوما ولم يؤد ما عليه فقد صار مملوكا » .

---

(1) أبو شامة : كتاب الروضتين ؛ ج ٢ ص ٩٧
ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٢١٤ .

ويصور المؤرخون خروج الصليبيين من بيت المقدس عندئذ وقد باعوا متاعهم « بالمجان فى سوق الهوان » ، واضطروا الى ترك الكثير منه لثقله وصعوبة حمله . ويطبق أبو شامة عليهم الآية الكريمة « كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوما آخرين » .

وفى يوم الجمعة ١٢ اكتوبر دخل صلاح الدين بيت المقدس ، وشاءت الظروف أن يوافق ذلك اليوم فى التاريخ الهجرى السابع والعشرين من رجب ، وهى ذكرى ليلة المعراج التى أسرى الله فيها ليلا بنبيه محمد — عليه الصلاة والسلام — من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى . وكان أن احتل صلاح الدين قلعة المدينة ، وحافظ على وعده لمن فيها من الصليبيين ، فسمح لهم بالخروج بعد دفع المال المتفق عليه . وقد رتب صلاح الدين على كل باب من أبواب المدينة أمينا من الأمراء ليجمعوا من الخارجين منه المال المقرر عليهم . وكان الملك العادل فى صحبة أخيه صلاح الدين عند دخول بيت المقدس ، فأظهر تسامحا كبيرا تجاه فقراء الصليبيين الذين عجزوا عن دفع الفدية . ومن الأمور التى أدهشت المسلمين أن يروا هرقل بطرق بيت المقدس يدفع لنفسه الدنانير العشرة ويغادر المدينة حاملا ما استطاع حمله من الذهب والفضة ، ومن خلفه العربات تحمل نفائس الكنيسة التى استولى عليها ، دون أن يبالى بفقراء الصليبيين الذين لم يجدوا ثمن

فدائهم . ويذكر ابن الأثير أن صـــلاح الدين رفض آن يتعرض لأموال البطرق التى حملها معه ، وقال « لا أغدر به ! » [1] .

وقد نادى بعض المسلمين عندئذ بهدم كنيسة القيامة ومعاملة المسيحيين بمثل ما عاملوا به المسلمين عندما استولوا على بيت المقدس سنة ١٠٩٩ ؛ « وقالوا اذا هدمت ونبشت المقبرة وعفيت وحرثت أرضها ودمر طولها وعرضها انقطعت عنها آمداد الزوار .. ومهما استمرت العمارة استمرت الزيارة » . ولكن صلاح الدين نهرهم عن ذلك وأمر باحترام الأماكن المسيحية المقدسة ونادى بالتزام روح التسامح تجاه المسيحيين لأنه ، « عندما فتح أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه القدس فى صدر الاسلام ، أقرهم على هذا المكان ، ولم يأمر بهدم البنيان » .

وشهد المؤرخون المسيحيون — المعاصرون وغير المعاصرين — بكرم أخلاق صلاح الدين وسماحته ، وبأن صلاح الدين عامل نساء الصليبيين معاملة حميدة وسمح لهن بالخروج من بيت المقدس معززات مكرمات ، ومعهن أموالهن وأتباعهن وحشمهن . وكانت زوجة الملك جاى لوزجنان الأسير موجودة فى بيت المقدس ، فطلبت من صلاح الدين السماح لها بمصاحبة زوجها فى الأسر فى نابلس ، فأذن لها كما سبق أن ذكرنا . كذلك طلبت الأميرة اتينت أرملة أرناط من صلاح الدين الخروج ، كما طلبت اطلاق

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٨٣ هـ
ابن واصل مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٢١٦
ابو شامة : كتاب الروضتين ؛ ج ٢ ص ١١٥ .

سراح ابنها من زوجها الأول ، فأكرمها السلطان ، وسمح لها بالسفر « وهى بنوابها محوطة وبرأيها منوطة » . ثم أطلق سراح ابنها بعد استيلاء العادل على الكرك فى نوفمبر سنة ١١٨٨ والشوبك فى يونية سنة ١١٨٩ . أما اليتامى والشيوخ والأرامل من الصليبيين ، فان صلاح الدين لم يكتف باطلاق سراحهم دون فداء ، بل منحهم أيضا مساعدات مالية من ماله الخاص . وهكذا بدا الفارق عظيما بين سلوك صلاح الدين عندما استولى على بيت المقدس سنة ١١٨٧ ، وبين ما فعله الصليبيون بالمدينة وأهلها المسلمين عندما سقطت فى أيديهم سنة ١٠٩٩ ، فذبحوا من صادفوه فيها من المسلمين ، وكتب المؤرخ المسيحى ابن العبرى يقول « ولبث الفرنج فى البلد أسبوعا يقتلون فيه المسلمين ، وقتل بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفا »[1] ؛ فى حين كتب مؤرخ صليبى شاهد عيان يفخر بأن « جنودنا وخيولنا كانوا يخوضون حتى سيقانهم فى دماء المسلمين !! » .

وبعد أن تسلم صلاح الدين الصليبيين فى بيت المقدس الفدية المتفق عليها ، أخذ يعد الترتيبات لترحيلهم الى الأراضى الصليبية فى صور وطرابلس . ولذلك جمعهم تحت حراسة شديدة وقسمهم الى ثلاث مجموعات : مجموعة قادها الداوية ، ومجموعة قادها الاسبتارية ، والمجموعة الثالثة قادها باليان نفسه ؛ ثم أرسلهم مخفورين خوفا عليهم من أن يتعرضوا لاعتداءات البدو

---

(١) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ؛ ص ١٩٧ .

فى الطريق . على أن الخطر الذى هدد أولئك الصليبيين النازحين من بيت المقدس لم يأت من جانب المسلمين ، وانما أتى من جانب اخوانهم الصليبيين أنفسهم ؛ اذ لم يكادوا يدخلون حدود أمارة طرابلس الصليبية ، حتى انقض عليهم بعض أمراء الصليبيين واعتدوا عليهم ، وعندئذ اتجه أولئك المشردون شمالا صوب مدينة طرابلس ذاتها . ولكن أهل طرابلس خشوا على أنفسهم وعلى مدينتهم من تلك الجموع الخاوية الوفاض ، فأغلقوا أبواب مدينتهم فى وجوهم ورفضوا أن يستضيفوا اخوانهم فى محنتهم ليخففوا عنهم بعض آلامهم ، بل ان أهل طرابلس نهبوا ما بقى مع بعضهم من أموال تركها لهم صلاح الدين . وهكذا لم يجد أهل بيت المقدس من اخوانهم الصليبيين جزءا من المعاملة الرحيمة التى لقوها من صلاح الدين ؛ فذهب بعضهم الى أنطاكية ، حيث وجدوا مقرا ومقاما الى حين (١) .

وعندما سمع المسلمون بفتح بيت المقدس « أتوه رجالا وركبانا من كل جهة لزيارته » على قول المقريزى ؛ فى حين غسلت الصخرة نفسها « بعدة أحمال ماء ورد وبخرت وفرشت » . ثم دخل صلاح الدين المسجد الأقصى يوم الجمعة ٩ اكتوبر (رابع شعبان) ليصلى فى قبة الصخرة ويشكر الله على توفيقه ونصره . ثم أمر صلاح الدين فورا « بعمارة المسجد الأقصى

---

(١) انظر : ـ
سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ؛ ج ٢ ص ٨٢٤ ـ ٨٢٥ .

واستنفاد الوسع فى تحسينه وترصيفه وتدقيق نقوشه » ...

أما المسيحيون الأرثوذكس واليعاقبة ، فقد سمح لهم بالبقاء فى بيت المقدس بشرط دفع الجزية فضلا عن الفدية المتفق عليها ، مع اعفاء الفقراء وغير القادرين من كل ذلك . كذلك فتحت كنيسة القيامة أبوابها لاستقبال قاصديها من الحجاج والزوار المسيحيين . ولاشك فى أن الكنيسة الأرثوذكسية ورجالها هم الذين استفادوا من طرد الصليبيين الكاثوليك من بيت المقدس ، اذ أتيحت لهم الفرصة من جديد لاستعادة نفوذهم وهيمنتهم على الأماكن المسيحية المقدسة .

وأما اليهود فكانوا أول من هلل لطرد الصليبيين من بيت المقدس . وقد ذكر الشاعر اليهودى الأسبانى يهودا الحرزى الذى زار بيت المقدس سنة ١٢١٦ — ١٢١٧ أن فتح صلاح الدين لبيت المقدس أعقبته هجرة عدد كبير من اليهود اليها ، وأن صلاح الدين نفسه لم يمنعهم من الاقامة فى المدينة . وهكذا نجد الصهيونية فى التاريخ لا تكتفى بالشماتة فى المسيحيين ، وانما تريد دائما أن تحقق مكاسبها على حساب المسلمين والمسيحيين سواء !! .

* * *

صلاح الدين وغزو شمال الشام :

لم يكد صلاح الدين يفرغ من غزو فلسطين ، حتى أخذ يوجه كل قواه نحو اخضاع البقايا الصليبية على شاطىء البحر ، مثل صور وطرابلس وأنطاكية ، فضلا عن القلاع الداخلية التابعة لهم ،

مثل حصن الأكراد وحصن المرقب . وقد فشلت جميع هجمات صلاح الدين ضد صور واستعصت عليه للأسباب التى سنوضحها فيما بعد ، فلم يجد بدا من تركها وتوجيه هجماته ضد امارتى طرابلس وأنطاكية ؛ فى الوقت الذى لم يصرف نظره عن البقايا الصليبية القليلة فى جنوب الشام .

وتفصيل ذلك أن فرقة من جيش صلاح الدين استولت على قلعة هونين « وهى من أحصن القلاع وأمنعها » ، فجاء الاستيلاء عليها متمما للاستيلاء على حصن تبنين . هذا فى الوقت الذى اتجهت فرقة أخرى من الجيش الأيوبى لمهاجمة صفد — الى الشمال الغربى من طبرية — وكانت تابعة للداوية ، وحصن كوكب الى الجنوب الغربى من بحيرة طبرية ، وكان تابعا للاسبتارية . ولكن هاتين القلعتين كانتا محصنتين تحصينا قويا فصمدتا ، ولم يستطع صلاح الدين أن يستولى عليهما الا بعد جهد شاق استمر قرابة عام ، فاستسلمت صفد فى أواخر عام ١١٨٨ ، وكوكب فى أوائل عام سنة ١١٨٩ .

كذلك حاول صلاح الدين مهاجمة حصن الأكراد فى صيف سنة ١١٨٨ ، ولكن الحصن كان قويا ودافع عنه أصحابه من الاسبتارية فى شجاعة ، فارتد عنه صلاح الدين للقيام بهجوم جديد على شواطىء طرابلس وأنطاكية . وقد هاجم صلاح الدين أنطرطوس ولم يستطع الاستيلاء على القلعة « وأمر بوضع النار فى البلد وأحرق جميعه » . ولم يحاول صلاح الدين أن يتعرض

لحصن المرقب القوى « لأنه من حصونهم التى لا ترام ولا يحدث أحد نفسه بملكه لعلوه وامتناعه .. » [1] لذلك اتجه صلاح الدين نحو بانياس فى أقصى شمال امارة طرابلس واستولى عليها ، وبعد ذلك أوغل فى امارة أنطاكية ، حيث استولى على جبلة فى يوليو سنة ١١٨٨ . وبعد أن استولى صلاح الدين على حصن بكسرائيل ، على طريق حماه ، اتجه لمهاجمة اللاذقية — وهى أكبر موانى امارة أنطاكية — فاستولى عليها فى ٢٣ يوليو سنة ١١٨٨ بعد أن تركها الصليبيون « لعجزهم عن حفظها » . ومن اللاذقية اتجه صلاح الدين — ومعه ابنه الظاهر صاحب حلب — لمهاجمة حصن صهيون « وهو حصن يفوق الحصون » لقوته ومناعته وارتفاعه على الجبال ، فقاوم مقاومة عنيفة حتى استسلم فى نهاية شهر يولية [2] .

وهكذا أخذت معاقل امارة أنطاكية تتساقط فى يد صلاح الدين واحد بعد آخر ، فلم يكتف بالاستيلاء على القلاع التابعة لحصن صهيون مثل حصن بلاطنس وحصن العيذون وحصن الجماهرتين ؛ وانما هاجم صلاح الدين جسر الشغر فى الشمال الغربى على نهر العاصى ، فاستولى على قلعة بكاس « بغير قتال » فى ٩ أغسطس ، وعلى قلعة الشغر نفسها فى ١٢ أغسطس وبعد ذلك جاء دور سرمانية (سرمينية) ثم برزية فى أواخر الشهر نفسه ؛ حتى

---

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٨٤ هـ .
(٢) عماد الدين الكاتب : الفتح القسى ؛ ص ١١٨ .

استولى على جميع القلاع التى كانت بمثابة المخافر الأمامية لمدينة أنطاكية ، ولم يبق لامارة أنطاكية نفسها سوى ثلاث قلاع حصينة هى القصير وبغراس ودربساك .

وفى تلك المرحلة من مراحل توسع صلاح الدين على حساب الصليبيين فى أنطاكية ، استمرت الأميرة سيبل زوجة بوهيموند الثالث أمير أنطاكية فى خيانتها للصليبيين ، فمضت فى طريقها تتصل سرا بصلاح الدين « وتطالعه على أسرار الفرنج » حتى كشفت له كثيرا من عورات الصليبيين ومواطن الضعف فيهم ، « وكان السلطان يكرمها لذلك ويهدى اليها أنفس الهدايا » (١) . وبفضل هذه المعونة ، استطاع صلاح الدين أن يستولى على قلعة برزية التى كانت صاحبتها — شقيقة سيبل — فأرسلها صلاح الدين مكرمة الى أنطاكية ، ومعها زوجها وجماعة من أصحابها وصهرها ، وذلك « اكراما لامرأة البرنس (سيبل) فشكرته على ذلك ودامت مودتها له ! » .

وهنا نكرر القول بأن فتوح صلاح الدين عقب حطين اتصفت بالاعتدال والبعد عن التطرف والعنف مع أعدائه ، فعامل أسرى الصليبيين معاملة طيبة ، ومنح كثيرا من أهالى المدن الصليبية التى سقطت فى يده الحرية ، وسمح لهم بالنزوح الى صور أو غيرها ، هذا فضلا عن حرصه على الرفق بالنساء والأطفال

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ٢ ص ١٣١
ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٨٤ هـ .

والشيوخ من الصليبيين . ويعترف الكتاب الأوربيون أنفسهم بأن صلاح الدين ظهر على مستوى من كرم الأخلاق والشهامة لا يفوق المستويات العادية التى عرفها فرسان الغرب فحسب ، بل يفوق المثل العليا التى لم يصل اليها أولئك الفرسان فى يوم من الأيام . وربما كان السر فى تلك المعاملة — بالاضافة الى طبيعة صلاح الدين وتمسكه بروح الاسلام وخلقه — هو عدم رغبته استثارة الغرب الأوربى ضده اذا هو تطرف فى معاملة الصليبيين وعاملهم بمثل ما عاملوا به المسلمين من قبل . وفى الوقت نفسه لم يخرج صلاح الدين من حسابه احتمال مجىء حملة صليبية جديدة ، بل أخذ حذره وأعد عدته لذلك الاحتمال ، فحصن القلاع القوية التى سقطت فى يده ، وهدم المعاقل الضعيفة التى قد يفيد منها الصليبيون فى المستقبل .

وبهذه الروح الكريمة استطاع صلاح الدين أن يستولى على المنطقة الواقعة جنوبى أنطاكية ، فانتقل بعد ذلك الى شماليها ليهاجم حصن دربساك « وهو حصن حصين وقلعة منيعة ، وهو بالقرب من أنطاكية ولا فرق بين حصره وحصرها » وقد دافع أصحاب ذلك الحصن من الداوية عن حصنهم دفاعا عنيدا ، حتى اضطروا الى التسليم فى منتصف سبتمبر ١١٨٨ . أما حصن بغراس (بغراص) الذى كان ملكا للداوية أيضا فقد استولى عليه صلاح الدين فى أواخر سبتمبر سنة ١١٨٨ ، « بما فيه من ذخائر وأموال وسلاح » ؛ مما أمد المسلمين بموقع فريد على الطريق بين أنطاكية وامارة قيليقية الأرمينية .

وهكذا أصبحت امارتا أنطاكية وطرابلس مقصوصتى الجناح على قول أبى شامة ، ولم يبق منهما سوى مدينتى أنطاكية وطرابلس ، فضلا عن حصنى المرقب والأكراد ومدينة أنطرطوس . وكان ذلك فى الوقت الذى تعبت جيوش صلاح الدين « ومل العسكر الغريب الاقامة وأبدى السآمة » وأحس الجند بحاجتهم الى فترة من الراحة التى لم يتذوقوا طعمها منذ حطين . لذلك لم يكد هيموند الثالث صاحب أنطاكية يطلب الهدنة حتى أجابه صلاح الدين الى طلبه ، فعقدت هدنة بين الطرفين لمدة ثمانية أشهر [1] . على أن تلك الهدنة كانت مع امارة أنطاكية « لاغير » على قول ابن شداد ، مما أباح لصلاح الدين — عقب تسريح معظم جيشه الكبير — أن يهاجم الداوية فى صفد والاسبتارية فى حصن كوكب ، وهما المركزان اللذان صمدا أمام هجمات صلاح الدين فى أواخر سنة ١١٨٧ — كما سبقت الاشارة — ولم يستطع الاستيلاء عليهما الا فى أواخر سنة ١١٨٨ وأوائل سنة ١١٨٩ .

وفى تلك الأثناء كان المسلمون ملازمين حصار حصن الكرك ومنازلته حتى نفدت ذخائر الفرنج وأكلوا دوابهم « وصبروا حتى لم يبق للصبر مجال » على قول ابن واصل . وأخيرا اضطر الصليبيون الى الاستسلام فى حصن الكرك فى نهاية سنة ١١٨٨ ،

---

(١) عماد الدين الكاتب : الفتح القسى ؛ ص ١٢٩
ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ٢ ص ٢٧٠ .

بعـد أن « فنيت أزوادهم ونفدت موادهم ويئسوا من نجدة تأتيهم ، حتى أكلوا لحم آخر حصان فيه » . أما حصن الشوبك فقد استسلم بعد ذلك ببضعة أشهر . وبذلك لم يبق للصليبيين فى فلسطين من القلاع القوية الا حصن الشقيف أو شقيف أرنون قرب بانياس ، وقد احتمى به رينو صاحب صيدا عقب استيلاء المسلمين على هذه المدينة الأخيرة . وعندما عسكر صلاح الدين برجاله فى مرج عيون استعدادا لمهاجمة حصن الشقيف ، فكر رينو فى الاستسلام ، « وما أحسسنا به الا وهو قايم على باب خيمة السلطان فأذن له فدخل فاحترمه وأكرمه . وكان من كبار الافرنج وعقلائها وكان يعرف العربية ويتكلم بها . فحضر بين يدى السلطان وأكل معه الطعام ، ثم خلا به وذكر أنه مملوكه ، وأنه تحت طاعته ، وأنه يسلم المكان اليه من غير تعب ولا قتال ، واشترط أن يعطى موضعا يسكنه بدمشق ، فانه بعد ذلك لا يقدر على مساكنة الفرنج » (١) .

وهكذا لم يبق من مملكة بيت المقدس فى قبضة الصليبيين غير صور التى أخطأ صلاح الدين خطئا جسيما بعدم الاستيلاء عليها عقب عكا وتركها تلك المدة لتتجمع فيها البقايا الصليبية التى خرجت من مختلف مدن وحصون مملكة بيت المقدس ، لتمد المدينة بحصانة بشرية الى جانب حصانتها الطبيعية . وعند استيلاء صلاح الدين على عكا كانت صور تابعة لرينو حاكم صيدا

---

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ؛ ص ١٢١ ــ ١٢٢ .

الذى كان مستعدا لتسليمها لصلاح الدين عندئذ ، ولكن صلاح الدين تأخر فى القيام بتلك العملية . وصادف أن وصلت الى ميناء صور عندئذ — فى منتصف يوليو سنة ١١٨٧ — سفينة عليها الأمير كونراد دى مونتفرات لاجئا ، فرحب به أهل صور ، وأخذ يدعم تحصينات المدينة ويقوى الروح المعنوية بين الصليبيين فيها ، حتى صار من العسير على صلاح الدين الاستيلاء عليها ، وخاصة بعد أن تلقت بعض المعونات عن طريق البحر [١] .

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحـــركة الصليبية ؛ ج ٢ ص ٨٣٤ .

الفصل الخامس

فارس من الشرق وفارس من الغرب

الموقف فى بلاد الشام عقب انتصارات صلاح الدين :

استطاع صلاح الدين أن يحقق عملا ضخما فى المدة القصيرة الواقعة بين سنتى ١١٨٧ ، ١١٩٠ . ففى مستهل سنة ١١٩٠ لم يبق للصليبيين من مملكة بيت المقدس الا مدينة صور ؛ ومن امارة طرابلس سوى عاصمتها طرابلس وقلعة أنطرطوس وحصن الأكراد وبعض المراكز الأخرى الثانوية ، ومن امارة أنطاكية سوى عاصمتها وميناء السويدية وحصن المرقب . وهكذا بدا البنيان الصليبى الكبير وكأنه أقيم على شفا جرف هار ، فانهار به فجأة قبل أن ينقضى على اقامته قرن واحد من الزمان .

وسواء كان الفضل فى تلك الانتصارات السريعة العظيمة الأثر التى أحرزها صلاح الدين راجعا الى صحوة المسلمين وافاقتهم لحقيقة الخطر الصليبى واتحادهم لمواجهته ؛ أو الى ما كان هناك من انقسامات وحزازات بين صفوف الصليبيين ؛ فاننا يجب ألا ننسى أثر شخصية صلاح الدين — وهو الرجل الذى تزعم حركة الجهاد فى ذلك الدور — وأخلاقه وشجاعته وبعد نظره وصبره على الجهاد .

وفى الوقت الذى سقطت بيت المقدس فى قبضة صلاح الدين ، وأضحى الصليبيون بالشام أشد ما يكونون حاجة الى زعامة رشيدة تنظم صفوفهم وتعمل لحمايتهم وتزود عن مستقبلهم وتدافع عن كيانهم ؛ شاء حسن حظهم أن يبدو ذلك الزعيم فى شخص كونراد دى مونتفرات . وكان كونراد قد وصل الى عكا فى صيف سنة ١١٨٣ قادما من غرب أوربا عن طريق القسطنطينية ولكن سفينته لم تكد تقترب من عكا حتى صدم عندما وجد أن المسلمين يحكمونها . على أن المسلمين فى عكا لم يتعرضوا لكونراد بسوء ، وتركوا سفينته تقلع فى سلام الى صور . وكانت صور قد غدت مستودعا لكثير من البقايا الصليبية « لأن صلاح الدين كان كلما فتح مدينة من عكا وبيروت وغيرهما مما ذكرنا أعطى أهلها الأمان ، فساروا كلهم الى صور ، فكثر الجمع بها » (١) على أن أهل صور عندئذ لم يكن لهم « رأس يجمعهم ولا مقدم يقاتل بهم » . وبعبارة أخرى فانهم كانوا يفتقرون الى قيادة رشيدة تنظم عملية المقاومة وتؤلف بين تلك البقايا الصليبية المتعددة المشارب والأصول ، التى هاجرت الى صور من مختلف المدن والقلاع الصليبية التى استولى عليها صلاح الدين وجيوشه .

وقد وصف القاضي ابن شداد كونراد دى مونتفرات — الذى عرفته المراجع العربية المعاصرة باسم المركيس — بأنه « كان رجلا عظيما ، ذا رأى وبأس شديد فى دينه ، وصرامة

---

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٨٣ هـ .

عظيمة » . لذلك جاء وصوله الى صـور — فى الوقت الذى انحطت الروح المعنوية للصليبيين داخلها حتى شرعوا فعلا « فى مراسلة صـلاح الدين وطلب الأمان وتسليم البلد اليه » ؛ — ذا أهمية عظيمة ، لأنه دفع فى الصليبيين روحا جديدة ودفعهم الى المقاومة والثبـات ، وبذلك « ضمن لهم حفظ المدينة » . وسرعان ما قبل من بداخل صور من أمراء الصليبيين وفرسانهم أن يقدموا تبعيتهم لكونراد ويعترفوا له بالزعامة عليهم ، مقابل تعهده بالدفاع عنهم وحماية مدينتهم .

وهكذا أغلقت صور أبوابها فى وجه صلاح الدين بعد أن كان قد استعد فعلا لدخولها ، مما أثار دهشته وغضبه . وكان وليم الثالث دى مونتفرات — والد كونراد — أسـيرا فى قبضـة صـلاح الدين ، فحاول السلطان أن يستغل هـذه الورقة فى التأثير على كونراد لتسليم صور ، ولكن الأخير أظهر صـلابة تسترعى الانتباه ، ورد على صلاح الدين بأنه يفضل أن يذبح هـو وأبوه عن أن يسلم قطعة من المدينـة . وعنـدئذ أدرك صلاح الدين عدم جدوى التفاهم مع ذلك الرجل ، ورأى أن يؤجل أمر صور ويبدأ بالاستيلاء على بيت المقدس أولا (١) .

وقد اسـتغل كونراد دى مونتفرات فرصـة انصراف صلاح الدين لتقوية استحكامات صـور واعدادها للمعـركة

---

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ١٥٣
المقريزى : السلوك ؛ ج ١ ص ٩٥ — ٩٦ .

المنتظرة ، « فبنى السور والبواشير وأحكم أمرها ، واستظهر بالعدد والعدد » ؛ على قول ابن واصل . والمعروف عن صور نفسها أنها مدينة حصينة منيعة ، حتى وصفها الرحالة ابن جبير الذى زارها قبل ذلك بثلاث سنوات بأنها « مدينة يضرب بها المثل فى الحصانة » . فأفاد كونراد من هذه الحصانة الطبيعية لمدينة صور ، واستغل الأموال التى جلبها معه من القسطنطينية فى حفر خندق حولها تجرى فيه مياه البحر « فصارت المدينة كالجزيرة فى وسط الماء ، لا يمكن الوصول اليها ولا الدنو منها » . وفى جميع تلك الاجراءات استفاد كونراد من جهود من بداخل صور من التجار الفرنسيين والبيازنة والجنوية .

ولم يكد صلاح الدين يفرغ من الاستيلاء على بيت المقدس — كما سبق أن أوضحنا — حتى اتجه بكل قواه لحصار صور ، ومعه ولداه الأفضل والظاهر وأخوه العادل وابن أخيه تقى الدين عمر . ولكن تفوقه العددى وما جلبه معه من آلات الحصار ، كل ذلك لم يجد أمام حصانة صور الطبيعية ، تلك الحصانة التى دعمتها اجراءات كونراد الدفاعية . هذا الى أن السفن الصليبية المحملة بالرماة والمقاتلين حمت المدينة من ناحية البحر . وقد أسرع صلاح الدين باستحضار عشر سفن من الأسطول المصرى الذى كان عندئذ فى مياه عكا ، ولكن هذه القوة البحرية الصغيرة التى استعان بها صلاح الدين فى حصار صور لم تستطع الصمود أمام هجمات السفن الصليبية الأكثر عددا . وهكذا فشلت خطة صلاح الدين فى حصار صور

« وطمعت الفرنج » بعد أن أوقعوا بالأسطول وتمكنوا من تأمين اتصال المدينة بغرب أوربا عن طريق البحر . ولم يلبث أن اضطر صلاح الدين الى رفع الحصار عن صـــور فى أوائل ينـــاير سنة ١١٨٨ ، وكان ذلك أول فشل يتعرض له فى أعماله الحربية ضد الصليبيين منذ موقعة حطين .

وهنا يظهـــر المؤرخون المسلمون أســـفهم العميق لفشـــل صلاح الدين فى الاستيلاء على صور . ويلقى المؤرخ ابن الأثير على صلاح الدين بمسئولية استعصاء صور على المسلمين ، وهى المدينة التى غـــدت مركز تجمع وانطلاق القوات الصليبية التى قاومت صلاح الدين واستردت منه شاطىء فلسطين فيما بعد . وفى ذلك يقول ابن الأثير ما نصه « ولم يكن لأحد ذنب فى أمرها « صور » غير صلاح الدين ، فانه هو الذى جهز اليها جنود الفرنج وأمدها بالرجال والأموال من أهل عكا وعسقلان والقدس وغير ذلك كما سبق ذكره . كان يعطيهم الأمان ويرسلهم الى صور فصار اليها من سلم من فرسان الفرنج بالساحل بأموالهم وأموال التجار وغيرهم ، فحفظوا المدينة وراسلوا الفرنج داخل البحـــر يستمدونهم ، فأجابوا بالتلبية لدعـــوتهم ووعـــدوهم بالنصرة ، وأمروهم بحفظ صور لتكون دار هجرتهم ، يجتمعون بها ويلجئون اليها ، فزادهم ذلك حرصا على حفظها والذب عنهـــا !! » ثم يسترسل ابن الأثير فيرمى صلاح الدين بعدم الحزم والتفريط ، ويقول ان الملك أو الحاكم « لا ينبغى أن يترك الحزم وان ساعدته

الأقدار ، فلئن يعجز حازما خير له من أن يظفر مفرطا مضيعا للحزم !! » [1] .

على أننا لا نريد أن ننساق وراء ابن الأثير فى مؤاخذته لصلاح الدين على مسألة صور ؛ لأن موقف ابن الأثير بالذات من صلاح الدين معروف ، وهو موقف يتسم بالكراهية الواضحة . ولعله من الانصاف أن نلتمس العذر لصلاح الدين فى أمر صور ، فقد كان من الصعب على الرجل أن يتخلى عن سماحته وتسامحه وكرم أخلاقه ، وهى الصفات الحميدة التى تحلى بها والتى خلدت اسمه فى تواريخ الغرب فضلا عن الشرق . هذا بالاضافة الى الظروف التى أحاطت بصلاح الدين أمام صور والتى يجب أن نقدرها ، وأهمها تعب رجاله ورغبة بعضهم فى الانصراف للراحة ، فضلا عن حصانة المدينة كما سبق أن ذكرنا .

* * *

ثورة الغرب الأوربى :

ولم يكن منتظرا من الغرب الأوربى الا أن يثور عندما بلغته أخبار حطين واستيلاء صلاح الدين على بيت المقدس . وكان كونراد دى مونتفرات قد أرسل جوسياس — رئيس أساقفة صور — الى غرب أوربا فى أواخر صيف سنة ١١٨٧ ليطلب من البابوية وملوك الغرب وأمرائه النجدة العاجلة . ويبدو أن وليم الثانى — ملك صقلية النورمانى — كان أول من استجاب

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ حوادث سنة ٥٨٣ هـ .

لتلك الدعوة ، فبادر بارسال أسطول يحمل بضعة مئات من الفرسان الى طرابلس ، تحت قيادة أمير البحر مارجريت البرنديزى الذى نجح فى منع صلاح الدين من الاستيلاء على طرابلس واللاذقية . ويروى ابن الأثير أن أحد قادة أولئك النورمان قابل صلاح الدين وقبل الأرض بين يديه وقال له « انك سلطان رحيم كريم ، وقد فعلت بالفرنج ما فعلت فذلوا . فاتركهم يكونون مماليكك وجندك ، تفتح بهم البلاد والممالك وترد عليهم بلادك ، والا جاءك من البحر ما لا طاقة لك به ، فيعظم عليك الأمر ويشتد الحال » . ويفهم مما ذكره المؤرخون أن صلاح الدين خشى أن يكون ذلك الأسطول النورمانى مقدمة لحملة صليبية كبرى فى طريقها من غرب أوربا ، فترك مؤقتا أمر طرابلس واللاذقية (١) .

وفى تلك الأثناء كان جوسياس يواصل نشاطه فى غرب أوربا للحصول على نجدة عاجلة . ويروى المؤرخ ابن واصل أن بعض من قاموا بالدعوة فى غرب أوربا لمحاربة صلاح الدين لجئوا الى أسلوب جديد فى الدعاية واستثارة الغرب المسيحى ضد صلاح الدين والمسلمين « فصوروا المسيح عليه السلام وجعلوا معها صورة رجل عربى يضربه بعصا ، وقد جعلوا الدماء على صورة المسيح وقالوا : هذا المسيح يضربه محمد نبى

---

(١) للتفصيلات انظر : ـ
سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ؛ ج ٢ ص ٨٤٢ ــ ٨٤٣ .

المسلمين وقد جرحه وقتله !! » [1] . ومهما يكن من أمر فان تلك الدعاية الصاخبة نجحت فى استثارة الغرب الأوربى ، فكانت الحملة الصليبية الثالثة بزعامة فردريك بربروسا امبراطور ألمانيا وفيليب أوغسطس ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا .

أما عن فردريك بربروسا فقد تزعم الشطر الألمانى من تلك الحملة فخرج فى مايو سنة ١١٨٩ على رأس جيش كبير من مائة ألف محارب واختار أن يسلك الى الشام الطريق البرى عبر البلقان وآسيا الصغرى . وكان بين صلاح الدين والامبراطور البيزنطى نوع من التفاهم بصدد ذلك الخطر المشترك ؛ فأرسل الامبراطور اسحق الثانى الى صلاح الدين يعرفه بوصول الحملة الألمانية « ويعد أنه لا يمكنه من العبور فى بلاده » . وقد تعهد صلاح الدين مقابل تلك المعونة التى قدمها اليه البيزنطيون ضد الصليبيين بوضع الأماكن المقدسة المسيحية فى بلاد الشام تحت رعاية رجال الدين الأرثوذكس . واذا كان صلاح الدين قد وافق عندئذ على تسليم كنيسة القيامة لرجال الكنيسة الأرثوذكسية فان الدولة البيزنطية وافقت من جانبها على أن يكون لصلاح الدين نوع من الاشراف والوصاية على الجالية الاسلامية فى القسطنطينية ، فأرسل صلاح الدين الخطيب والمؤذنين والقراء الى جامع القسطنطينية « وكان يوم دخولهم الى قسطنطينية يوما عظيما من أيام الاسلام » [2] .

---

(١) ابن واصل مفرج الكروب ؛ ج ٢ ص ٢٨٨ .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ؛ ج ٢ ص ١٥٩ - ١٦٠ .

ومع ذلك فان أنباء اقتراب امبراطور ألمانيا على رأس جيشه الضخم من بلاد الشام أثارت هزة عنيفة فى أوساط المسلمين ببلاد الشـام . وقد تحدث المؤرخون المسلمون عن حمـلة فردريك بربروسا فى عبارات تفيد اليأس من الاحتفاظ ببلاد الشام . من ذلك ما قاله ابن الأثير من أنه « لما وصلت الأخبار بوصول ملك الألمان ، أيقنا أنه ليس لنا بالشام مقام » . أما أبو الفـدا فقال « بلغ المسلمين وصول ملك الألمان ، وكان قد سار من بلاد ما وراء القسطنطينية بمائة ألف مقاتل ، واهتم المسلمون لذلك وأيسوا من الشام بالكلية ! » أما صلاح الدين نفسه ، فقد أخذ يتابع تقدم الألمان فى قلق ، وأرسل « العيون والجواسيس » الى آسيا الصغرى للوقوف على أخبارهم . وعندما أحس صلاح الدين باقتراب الألمان من حدود الشام ، أسرع الى اخلاء أو تدمير بعض المراكز التى خشى احتلال الصليبيين لها واستخدامها فى محـاربة المسلمين ؛ فهدم سور طبرية ، كما هدم يافا وأرسوف وقيسارية ، وهدم أسوار صيدا وجبيل ونقل أهلهما الى بيروت .

على أنه لم يلبث أن حدث حدث مفاجىء قلب الموقف رأسا على عقب ورفع عن صلاح الدين كابوس الخطر . ذلك أن فردريك بربروسا — وهو الشيخ العجوز — غرق فجأة أثناء عبوره نهر صغير فى قيليقية . وسرعان ما تبدد جيشه الكبير وتفرق ، مما جعل المسلمين يهللون فرحا لتلك الأنباء ، ونادى المؤرخ ابن الأثير بأنه « لولا أن الله تعالى لطف بالمسلمين وأهلك ملك الألمان — لما خرج على ما نذكره عند خروجه الى الشام — ، والا كان يقال ان الشام

ومصر (كانتا) للمسلمين ! » واذا كانت بعض فلول الجيش الألماني قد وصلت الى الشام ، فان ابن واصل يتهكم على تلك الجموع فيصفهم بأنهم « حملة عصي وركاب حمير ! » (١) .

* * *

الصليبيون يستردون عكا :

على أن الحملة الألمانية لم تكن فى حقيقة أمرها الا شطرا واحدا من الحملة الصليبية الثالثة . أما الشطران الآخران فكان أحدهما بزعامة ملك فرنسا والآخر بزعامة ملك انجلترا ، وقد أبحر الملكان من غرب أوربا فى صيف سنة ١١٩٠ قاصدين الشرق . وفى الوقت الذى أضاع ملكا انجلترا وفرنسا وقتا طويلا فى صقلية حيث جو الشتاء دفىء ممتع ، أخذت الأمور تتطور فى بلاد الشام تطورا سريعا فى صالح الصليبيين الذين حولوا موقفهم من الدفاع الى الهجوم . وتفصيل ذلك أن الملكة سيبل التى كانت قد استقرت فى طرابلس أرسلت فى صيف سنة ١١٨٨ الى صلاح الدين ترجوه تحقيق وعده باطلاق زوجها الملك جاى لوزجنان . وكان أن غلبت على صلاح الدين روح الشهامة والمروءة والوفاء بالعهد ، وهى الصفات التى تحلى دائما بها فى معاملاته مع الصليبيين والتى عانى كثيرا من المتاعب بسبب تمسكه بها ، فى الوقت الذى لم يعرف خصومه فى معاملاتهم معه سوى الغدر والخيانة ونكث العهود . لذلك بادر صلاح الدين بالافراج

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ٢ ص ٣٢٢ — ٣٢٣ .

عن الملك جاى لوزجنان — أسير حطين — فى يوليو سنة ١١٨٨ ، ولم يشأ أن يتركه ينصرف وحيدا ، وانما أفرج أيضا عن عشرة من أعيان أسرى الصليبيين ليكونوا رفقاء وبطانة له ، منهم عمورى لوزجنان — أخو جاى — وكذلك مقدم الداوية . وقد اكتفى صلاح الدين عند اطلاق سراح الملك جاى بأن تعهد الأخير بألا « يشهر فى وجهه سيفا أبدا ويكون غلامه ومملوكه طليقا أبدا » [1] . بل ان مروءة صلاح الدين وسمو خلقه جعلته لا يكتفى بكل ذلك ، بل أطلق أيضا سراح الماركيز العجوز وليم الثالث دى مونتفرات ، وأرسله معززا مكرما الى ابنه كونراد فى صور ، فى الوقت الذى رفض كونراد دى مونتفرات مساومة صلاح الدين وأصر على المقاومة والقتال !

ولكن ما أكثر ما وعد الصليبيون ، وما أكثر ما نكثوا بالعهد ! فاذا كان صلاح الدين قد تمسك دائما بمبادىء الشهامة العربية فى تصرفاته مع الصليبيين ، فان جاى لوزجنان الذى تعهد بعدم محاربة صلاح الدين أو المسلمين وأقسم على أن يبرح بلاد الشام فور اطلاق سراحه ، لم يلبث أن نزح الى صور مؤملا أن يتولى زعامة القوات الصليبية فى حربها ضد المسلمين !

على أنه يبدو أن صلاح الدين لم يخسر كثيرا نتيجة لاطلاق سراح جان لوزجنان ، بل على العكس استفاد لما ترتب على تلك الخطوة من اشتداد الخلاف والمنازعات بين الصليبيين

---

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٥٣ .

بعضهم وبعض ، أو على وجه أدق بين جاى وخصومه . ذلك أن الموقف لم يلبث أن تعقد فى صور عند وصول جاى لوزجنان الى أبوابها سنة ١١٨٨ . حقيقة ان صور كانت المدينة الوحيـدة من مدن مملكة بيت المقدس الصليبية التى ظلت فى قبضة الصليبيين ؛ ولكن كونراد دى مونتفرات الذى نظم صفوف الصليبيين فى صور وأشرف على حركة المقاومة داخلها واستطاع الثبات فعلا فى وجه صلاح الدين وجيوشه رفض أن يسمح لملك بيت المقدس بدخول المدينة . وهكذا قضى جاى لوزجنان بضعة أشهر خارج أبواب صور — ومعه زوجته الملكة — يصيح ويستجير ويطالب بدخول مدينته ، وعندئذ رد عليه كونراد بأن صـور لم تعد مدينة جاى وأن الفصل بينهما ملوك الغرب الذين ينتظر وصولهم الى الشام بين فينة وأخرى .

وعندما وجد جاى لوزجنـان نفسه طريدا دون بلد يأويه أو جيش يحميه ، فكر فى غزو عكا — ثانى مدن مملكة بيت المقدس الصليبية بعد بيت المقدس وأهم موانيها الساحلية . ولم يلبث أن جمع جاى عند طرابلس كل ما أمكن جمعه من فرسـان الصليبيين المشردين ، ثم تقدم على رأسهم صوب عكا فى أواخر أغسطس سنة ١١٨٩ . ويصور لنا المؤرخ ابن الأثير ما لاقاه الصليبيون فى زحفهم على عكا من شدائد ، بسبب سيطرة المسلمين على المدن والمعاقل والحصون الواقعة فى طريقهم ، مما اضطر الصليبيين الى التزام جانب البحر ، فى حين سارت سفنهم على مرأى منهم تحمل

أسلحتهم وزادهم [1] . ولو تنبه المسلمون لخطر تلك الجموع الصليبية وحصروها عند ممرات الأسكندرونه أو عند النواقير لقضوا عليها قبل أن يستفحل خطرها ، ولكن صلاح الدين كان مشغولا عندئذ بمنازلة قلعة الشقيف أرنون . وقد حدث أن سمع صلاح الدين بأن جاى لوزجنان فى طريقه على رأس بعض الجموع الصليبية الى عكا ، ولكن صلاح الدين لم يصدق الخبر وظن أن فى الأمر خدعة لحمله على ترك الشقيف أرنون ، ولم يتنبه الى حقيقة الأمر الا بعد فوات الأوان عندما اقترب الصليبيون من عكا فعلا .

وكان أن استدعى صلاح الدين بعض القوات الاسلامية من الجليل لوقف تقدم الصليبيين ، ولكن صلاح الدين نفسه لم يصل الا بعد أن كان الصليبيون قد احتلوا مراكزهم فعلا فى مواجهة عكا . ويؤكد ابن الأثير وعماد الدين الكاتب أن صلاح الدين أراد أن يقضى على الصليبيين أثناء زحفهم من صور الى عكا « عند المضيق » ؛ ولكن أمراءه عارضوه فى ذلك وقالوا « بل نطلبهم طلب الغريم » ؛ وأنه من الأوفق مهاجمة الصليبيين أمام عكا ليقعوا بين جيوش صلاح الدين من ناحية وحامية المدينة من المسلمين من ناحية أخرى . ويبدو أن صلاح الدين استمع لنصح امرائه ، وبذلك ارتكب المسلمون غلطة استراتيجية كبرى ، لاسيما وأن الملك جاى لوزجنان أتفق

---

(1) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٨٥ هـ .

مع كونراد دى مونتفرات وصفيا ما بينهما من خلافات لحرب المسلمين ؛ « ولو أن العساكر اتبعت رأى صلاح الدين فى مسايرتهم ومعاملتهم قبل نزولهم على عكا ، لكان بلغ غرضه وصدهم عنها ، ولكن اذا أراد الله أمرا هيأ أسبابه !! » (١) .

ومهما يكن من أمر ، فان جاى لوزجنان أقام معسكره على مقربة من عكا فوق تل المصلبيين شرقى المدينة ، ثم لحق به صلاح الدين بعد ذلك بيومين (٢٩ أغسطس ١١٨٩) ، فعسكر على مقربة من الصليبيين . ولقد كان من الأكيد أن يتمكن صلاح الدين من سحق تلك الشراذم الصليبية فى سهولة ، لولا وصول مقدمات الحملة الصليبية الثالثة من الغرب الأوربى ، مما أمد الصليبيين أمام عكا بقوة كبيرة غيرت الموقف تغييرا تاما . وتؤكد بعض المراجع أن جموع الصليبيين الذين احتشدوا أمام عكا فى سبتمبر سنة ١١٨٩ بلغوا أكثر من عشرين ألفا ، عدا أساطيل البيازنة والجنوية والبنادقه التى حصرت المدينة من جهة البحر . وزاد الطين بلة وصول كونراد دى مونتفرات على رأس قواته من صور ، وبذلك بدأت معركة الثأر لما حل بالصليبيين فى حطين (٢) .

---

(١) المرجع السابق :
عماد الدين الكاتب : الفتح القسى ص ١٥٢ – ١٥٣ .

(٢) للوقوف على التفصيلات انظر : –
سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ٨٥٤ وما بعدها .

على أن صلاح الدين لم يظل ساكنا طوال تلك المدة حتى تكتمل الجيوش الصليبية ، وانما بدأ هجومه على الصليبيين أمام عكا فى منتصف سبتمبر سنة ١١٨٩ ، واستطاعت جيوشه فى الهجمات التالية أن تنزل بصفوف الصليبيين خسائر جسيمة .

ولم يلبث أن ساء موقف الصليبيين — على كثرتهم — أمام عكا نتيجة لهجمات صلاح الدين وضرباته القوية ، حتى أضحوا — وهم الذين أتوا لحصار عكا — محاصرين فعلا بين القوات الاسلامية داخل عكا وقوات صلاح الدين خارجها . ولكن حدث أن انتشر وباء فى المنطقة نتيجة لكثرة جيف القتلى من الفريقين « فحدث للأمزجة فساد وانحرف مزاج صلاح الدين » الأمر الذى جعل الأمراء يشيرون عليه بالابتعاد بقواته عن عكا ، فابتعد قليلا فى منتصف اكتوبر سنة ١١٨٩ . ولا شك فى أن الصليبيين أفادوا من تلك الحركة ، لأنه غدا فى استطاعتهم — بعد ابتعاد صلاح الدين وقواته — الاحاطة بعكا احاطة تامة « وشرعوا فى حفر خندق على معسكرهم حوالى عكا من البحر الى البحر ، وأخرجوا ما كان فى مراكبهم من آلات الحصر .. فكان من قضاء الله أنا أغفلناهم وأمهلناهم .. ولما فرغوا من هذا الأمر اشتغلوا بالحصر ، وانقطعت الطريق على المسلمين الى عكا » [1] ...

وهكذا تمكن الصليبيون من حصار عكا وبداخلها حاميتها

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ؛ ج ٢ ص ١٤٧ .

الاسـلامية الأمر الذى ترتب عليه اطالة الحـرب بين الفريقين المتقاتلين . وقد اتخذت هـذه الحرب طابع حـرب الخنادق ، فحامية عكا الاسلامية محتمية خلف أسوار المدينة ، والصليبيون المحاصرون لعكا محتمـون فى الخنادق التى حفـروها وخلف الحيطان التى بنوها ، فى حين قضى صلاح الدين شتاء ١١٨٩ — ١١٩٠ وشطرا من الربيع التالى ساكنا يرقب الموقف عن كثب « فلم يقدر السلطان على الوصول الى البلد ، ولا استطاع أهل عكا أن يصلوا الى السلطان !! » (١) . ومع ذلك فان الصلة بين صلاح الدين وحامية عكا لم تنقطع تماما ، فكانت تعليمات السلطان ترسل الى رجال الحامية عن طريق العوامين فى البحر وعن طريق الحمام الزاجل ، « فنكتب اليهم ويكتبون الينا عـلى أجنحة الحمام بالترجمـة (الشـفرة) المصطلح عليها سر الأمور !! » (٢) .

ويبدو أن وقوف المسلمين والصليبيين وجها لوجه تلك المدة الطويلة ساعد على ايجاد نوع من الاتصالات السلمية التى اتصفت بطابع التسامح بين الفريقين . من ذلك ما يرويه أبو شامة من أن « الطائفتين كانتا تتحدثان وتتركان القتال ، وربما غنى البعض ورقص البعض لطول المعاشرة ، ثم يرجعون الى القتـال بعد ساعة !! » . كذلك أشار ابن واصل الى ما صار من تآلف

---

(١) المقريزى : السلوك ؛ ج ١ ص ١٠٢ .
(٢) عماد الدين الكاتب : الفتح القسى ؛ ص ١٩٢ .

بين المسلمين والصليبيين أمام عكا » فقال « وأنس المسلمون بالفرنج بطول المدة بحيث كانوا يتركون القتال ويتحدثون ! وربما غنى بعضهم لبعض !! ثم يعاودون القتال بعد ساعة !! » . ولم يقتصر الأمر على الكبار فى ذلك التفاهم بل تعداه الى الصبيان والصغار ؛ فصار صبيان المسلمين يخرجون لمصارعة صبيان الصليبيين ! واستطاع أحد صبيان المسلمين أن يضرب صبيا من الصليبيين ويأسره ، فاسترده الصليبيون بدينارين « وقالوا له : هو أسيرك حقا : فأخذ الدينارين وأطلقه » (١) . ولسنا فى حاجة الى المقارنة بين تلك الروح التى سادت العلاقات بين المسلمين والصليبيين فى نهاية القرن الثانى عشر ، وبين ما كان عليه الوضع عند مجىء الحملة الصليبية الأولى فى نهاية القرن الحادى عشر .

ثم كان أن حضر الملك العادل على رأس العسكر المصرى فى أواخر نوفمبر سنة ١١٨٩ لمساعدة أخيه صلاح الدين ، ثم أتى بعد شهر قائد الأسطول حسام الدين لؤلؤ على رأس خمسين قطعة من الأسطول المصرى الى مياه عكا . وقد نجح الأسطول المصرى فى شق طريقه الى الميناء وأمد عكا من ناحية البحر بكثير مما كانت تحتاج اليه من مؤن وامدادات ؛ فضلا عن « جماعة من الأمراء بأجنادهم وعددهم وأزوادهم » .

وعلى الرغم من كل ذلك فان مركز الصليبيين ظل قويا لتفوقهم البحرى من ناحية وكثرة أعدادهم من ناحية أخرى .

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٤٣
ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٢٩٤ .

لذلك لم يجد صلاح الدين بدا من دعوة كافة حكام المسلمين — فى المشرق والمغرب — لمشاركته الجهـــاد . ولم يكتف صلاح الدين بتوجيه تلك الدعوة لحكام المشرق وأمرائه — الذين وفد منهم كثيرون ومعهم قواتهم لمعاونة صلاح الدين أمام عكا — وانما أرسل أيضا سفاره الى الموحدين فى المغرب لطلب المساعدة من أبى يوسف يعقوب بن عبد المؤمن . وقد قال صلاح الدين له فى رسالته بأنه من الواجب « أن يمد غرب الاسلام المسلمين بأكثر مما أمـــد به غرب الكفار الكافرين .. » . كذلك رأى صـــلاح الدين أن لا يقف دور المغرب على تقديم المســـاعدات البرية ، وانما طلب من ملك المغرب أن يرسل سفنه « ليقطع عنهم وعن الصليبيين مادتهم من جهة البحر » . وعند وصول سفارة صلاح الدين الى المغرب فى يناير سنة ١١٩١ ، تعهد أبو يوسف يعقوب بارسال أسطول لعرقلة نشاط الصليبيين فى ميـــاه البحر المتوسط [١] .

وهكذا سارت الحرب بين المسلمين والصليبيين سيرا بطيئا أمام عكا ، دون أن تنتهى الى نهاية حاسمة . ولم يكف صلاح الدين طوال تلك المدة عن تشجيع الجند ووعدهم بالوعود الجميلة ، فاستمر « يحثهم على الجلاد والجلد » [٢] وأدى جمود الموقف وكثرة القتلى فى مكان محدود الى انتشار الوباء واشتداد أزمة التموين فى المعسكرين سواء . وكانت مدينة عكا بالذات —

(١) ابو شامة : كتاب الروضتين ؛ ج ٢ ص ١٧١ — ١٧٤ .
(٢) عماد الدين الكاتب : الفتح القسى ؛ ص ١٠٦ .

بحكم وقوعها تحت ضائقة الحصـــار — أشـــد تعرضـــا للمجاعة واحســـاسا بوطأتهـــا . واذا كان صـــلاح الدين قـــد نجح فى أغســـطس ســـنة ١١٩٠ فى تهريب أربعـــة مائة غرارة من القمح وقدر من الجبن والبصل والغنم وغـــير ذلك من بيروت الى عكا عن طريق البحر ؛ فان هذا القدر الضئيل من الامدادات كان لا يكفى لسد حاجة أهل المدينة أكثر من بضعة أسابيع قليلة ، وفقما ذكر بهاء الدين قراقوش والى عكا لصلاح الدين . وفى سبتمبر من العام نفسه نجحت ثلاث سفن مصرية ضخمة فى اقتحام ميناء عكا ليلا ؛ وكانت « مشـــحونة بالأقوات والأدام والمير وجميع ما يحتاج اليه فى الحصار بحيث يكافيهم ذلك طول الشتاء .. » . وفى منتصف فبراير سنة ١١٩١ نجح صلاح الدين فى تجديد حامية المدينة ، فأنزل قوات جديدة ، وحمل الأسطول القوات السابقة « لعظم شكايتهم من طول المقام بها ومعاناة التعب والسهر وملازمة القتال ليلا ونهارا » ؛ عـــلى قول أبى شامة . على أنه يلاحظ أن تلك العملية الخطيرة تمت فى ظروف صعبة الأمر الذى جعلها لا تتم على الوجه الأكمل ، بحيث أن الستين أميرا الذين انسحبوا من عكا لم يحل محلهم سوى عشرين فقط . ويرجع أبو شامة السبب فى سقوط عكا فيما بعد الى الخطأ فى تنفيذ تلك العملية بالذات .

وربما كان فى استطاعة الصليبيين أن يستولوا على عكا فى تلك المرحلة لولا صعوبة ظروفهم وعدم تعاونهم بسبب اختلاف طوائفهم وأصولهم ومشاربهم . هذا بالاضافة الى ما نشأ عندئذ

من خلاف شديد ونزاع مرير بين كونراد دى مونتفرات وجاى لوزجنان بسبب التنافس حول عرش مملكة بيت المقدس الصليبية .

ذلك أن سيبل ملكة بيت المقدس — وزوجة جاى — ماتت أمام عكا فى أكتوبر سنة ١١٩٠ ، وبذلك صارت أختها الأميرة ايزابيل هى الوريثة لعرش المملكة . ولم يكن لجاى لوزجنان — وفق قانون مملكة بيت المقدس — أى حق فى العرش بعد وفاة زوجته ، فضلا عن أنه كان مكروها من الأمراء لضعفه وسوء تصرفه فى الأحداث التى صحبت كارثة حطين . لذلك أسرع الأمراء الى تطليق الأميرة ايزابيل من زوجها الأول ، وتزويجها من كونراد دى مونتفرات وهو الرجل القوى الذى اعتقد الأمراء فى كفايته وقدرته على احياء مملكة بيت المقدس . ولا شك فى أن هذا الاجراء لم يرض عنه جاى لوزجنان وشيعته — وبخاصة الداوية — مما أحدث انشقاقا خطيرا بين صفوف الصليبيين أمام عكا ، لولا وصول فيلب أوغسطس ملك فرنسا فى أبريل سنة ١١٩١ ، فجمع شمل الصليبيين تحت زعامته ووجه جهودهم جميعا لحرب المسلمين (١) .

والواقع ان وصول فيلب أوغسطس على رأس الشطر الفرنسى من الحملة الصليبية الثالثة أثار رد فعل عنيف بين صفوف الصليبيين والمسلمين سواء ؛ فبينما ابتهج الصليبيون وأظهروا

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ؛ ج ٢ ص ٨٦٢ — ٨٦٣ .

الفرح العظيم والسرور البالغ لوصول ملك فرنسا ؛ اذا بالمسلمين يعملون حسابا لتلك القوة الخطيرة ، لا سيما وأن ملك فرنسا كان — كما وصفه أبو شامة — « عظيما عندهم ، من كبار ملوكهم ينقادون له ، بحيث اذا حضر حكم على الجميع » . ولم يشأ فيلب أوغسطس أن ينتظر وصول ريتشارد ملك انجلترا — الذى ساقته الظروف الى جزيرة قبرس ليفتحها — وانما بدأ فيلب أوغسطس بمهاجمة عكا فورا ؛ وتشجع بقية الصليبيين فأخذوا يعملون آلات الحصار فى أسوار المدينة ، ويقذفونها بالقذائف قذفا متواصلا ليلا ونهارا ، وعملوا على ردم الخندق المحيط بالمدينة ، فلم يجدوا أمامهم لردمه سوى « جثث الأموات وجيف الخنازير والدواب النافقات » .

وكان أن وصل ريتشارد ملك انجلترا الى عكا فى أوائل يونية فازداد الصليبيون به قوة ؛ فى حين ساء موقف حامية عكا الاسلامية أمام ضغط تلك الجموع الكثيفة من الصليبيين الذين شددوا الهجوم على المدينة ، فى أواخر يونية وأوائل يولية سنة ١١٩١ . وهنا يسجل التاريخ لعكا وحاميتها الاسلامية موقفا رائعا من مواقفها العديدة الشهيرة ، اذ ظلت صامدة فى وجه ذلك الخطر الضخم ، وأظهرت حاميتها تحت قيادة قراقوش شجاعة تسترعى الاعجاب ، فى حين ظل صلاح الدين يرقب الموقف عن كثب . وعندما قام صلاح الدين بهجمات مضادة ضد الصليبيين ليصرفهم عن عكا ، لجأ الصليبيون الى مهاجمة معسكر صلاح الدين فى ٢٢ يونية ، ولكنهم لم يحققوا غرضا من هجومهم

لفاشل ، بعد أن « ثبت المسلمون لهم ثبوتا عظيما وصبروا صبر الكرام ! » [1] .

ولا أدل على روح الفداء والشجاعة التى حارب بها المسلمون عندئذ من أن صلاح الدين أمر بتعبئة سفينة كبيرة (بطسة) فى بيروت وشحنها بالآلات والأسلحة والمؤن والرجال لامداد حامية عكا عن طريق البحر . ولكن السفينة الاسلامية لم تكد تصل الى مياه عكا حتى حاصرتها سفن ريتشارد ملك انجلترا وأحاطت بهـا من كل جانب ؛ وعندئذ أبى رجـال السفينة الاسـلامية الاستسلام ، وظلوا يقاتلون أربعين سفينة من سفن الأعداء حتى أحرقوا احداها . وعندما يئس المقاتلون العرب فى السفينة من النجاة ، قال مقدمهم « والله لا نقتل الا عن عز ، ولا نسـلم اليهم من هذه البطسة شيئا ! » ؛ فأغرقوا سفينتهم وغرقوا جميعا وهم ستمائة وخمسون رجلا استشهدوا كراما . والفرد منا يتدبر هذا القصص فلا يسعه سوى أن يعترف بأن العرب هم العرب عـلى مر العصور ، بأخلاقهم وشـجاعتهم وفدائيتهم وكرههم للضيم . فما أشبه اليوم بالأمس ، وما أشبه الأسلوب الذى اتبعه رجال تلك البطسة فى الاستشهاد سنة ١١٩١ بالأسلوب الذى اتبعه جلال دسوقى وجول جمال وغيرهما من الفدائيين العـرب الذين استشهدوا أيام العدوان الثلاثى سنة ١٩٥٦ — أو الذين اختاروا اغراق سفنهم — كالمدمرة ابراهيم — مفضـلين الموت

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ؛ ص ٢٦٠ .

الكريم على العيش الذليل !! وكأنى بهؤلاء الفدائيين العرب فى مياه بورسعيد سنة ١٩٥٦ وهم يرددون نفس العبارة التى قالها جدهم العربى فى مياه عكا سنة ١١٩١ « والله لا نقتل الا عن عز !! » .

غير أن الشجاعة والفدائية والايمان بالحق لا تكفى فى حالات كثيرة للتغلب على القوة الغاشمة . وماذا كانت تفعل حامية عكا أمام جيوش أكبر دولتين فى غرب أوربا عندئذ وهما انجلترا وفرنسا ؟ أجل ، ماذا كان يفعل صلاح الدين وقد حشد الغرب الأوربى جيوشه وأساطيله وبدأ هجومه الكبير على المسلمين فى الشام فى الوقت الذى كانت جيوش صلاح الدين قد أضناها الجهاد الطويل منذ حطين وقبل حطين ؟ ثم ان صلاح الدين كان يعلم جيدا ان المعركة ليست معركة عكا وحدها وانما معركة الشام بأكمله ، بل المشرق العربى جميعه ، فكان من الخطأ أن يطلب التاريخ منه أن يضحى بجيوشه فى معركة عكا ويترك بقية البلاد دون جيش يحميها بعد ذلك . وهكذا بدأت المحادثات بين المسلمين والصليبيين لتسليم عكا ، حتى انتهى الاتفاق بأن يسمح الصليبيون لحامية عكا بالخروج سالمين مقابل فدية قدرها مائتى ألف دينار ، وأن يحرر المسلمون ألفين وخمسمائة من أسرى الصليبيين ، فضلا عن رد صليب الصلبوت .

وكان أن دخل الصليبيون عكا فى يولية سنة ١١٩١ بعد أن حصروها قرابة عامين ، الأمر الذى أثار موجة من الحزن والأسى عبر عنها المؤرخون المسلمون ، « فعظمت المصيبة على المسلمين

واشتد حزن الموحدين وانحصر كلام العقلاء من الناس فى انا لله وانا اليه راجعون ، وغشى الناس بهتة عظيمة وحيرة شديدة ، ووقع فى العسكر الصياح والعويل والبكاء والنحيب »[1] ...

* * *

صلاح الدين وريتشارد :

لم تنته مشاكل الصليبيين باستيلائهم على عكا ، فاشتد الخلاف بين طوائفهم بسبب الغنائم التى غنموها من المدينة ، كما استمر الخلاف قائما بين كونراد مونتفرات وجاى لوزجنان حول عرش مملكة بيت المقدس . ولم تطل اقامة فيلب أوغسطس بعد ذلك بالشام ، اذ اعتذر بالمرض وأبحر الى الغرب فى أوائل أغسطس سنة ١١٩١ ؛ وبذلك ترك مهمة تصفية الموقف المعقد بالشام — سواء بين الصليبيين بعضهم وبعض أو بينهم وبين المسلمين — لريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا .

وهكذا شاءت الظروف أن يصبح ريتشارد ملك انجلترا هو الزعيم الأوحد للحملة الصليبية الثالثة بعد أن مات فردريك بربروسا امبراطور ألمانيا وعاد فيلب أوغسطس ملك فرنسا الى بلاده . وقد قضى ريتشارد فى بلاد الشام بضعة أشهر حتى عودته هو الآخر فى اكتوبر سنة ١١٩٢ ، واحتلت هذه الأشهر أهمية خاصة فى تاريخ الحروب الصليبية . والواقع ان

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ؛ ج ٢ ص ١٨٨ .

ما قام به ريتشارد من أعمال فى بلاد الشام ، وما كان بينه وبين صلاح الدين من علاقات حربية وغير حربية ، انما تحتل صفحة فريدة استأثرت بانتباه المعاصرين وغير المعاصرين من المؤرخين . وزاد من أهمية هذه الصفحة ما تحويه من مقارنة شيقة بين فروسية الشرق وفروسية الغرب فى العصور الوسطى . فصلاح الدين فى علاقاته مع ريتشارد يمثل ما وصلت اليه الفروسية العربية فى تلك العصور من مثل وأخلاق وأفكار وأساليب ؛ وريتشارد فى علاقاته مع صلاح الدين وتصرفاته تجاه المسلمين يعبر عن أقصى ما بلغته فروسية الغرب من مثل وأخلاق .

ولا شك فى أن الفارق بدا واضحا والشقة واسعة بين ما بلغته فروسية العرب وما وصلت اليه فروسية الغرب الأوربى فى العصور الوسطى . ففى الوقت الذى تمسك صلاح الدين فى علاقاته مع ريتشارد بمبادىء الأخلاق وأهمها التسامح والمروءة والكرم والعفو عند المقدرة والوفاء بالعهد ؛ اذا بريتشارد لا يفرق بين الشجاعة من ناحية والغدر ونقض العهود وقتل الأبرياء من ناحية أخرى . ولعل هذا التناقض الكبير بين أخلاق صلاح الدين وأخلاق ريتشارد هو الذى جعل أحد الكتاب الأوربيين المحدثين — هو بارثلمى سانت هيلير — يقول عبارته الشهيرة « لقد هذبت طبائع أمرائنا الاقطاعيين الخشنة فى العصور الوسطى بفضل علاقتهم بالعرب وتقليدهم لها ، فتعلم أشرافنا وفرساننا رقة العواطف ولين الطبائع وحسن الأخلاق دون أن يفقدوا شيئا

من شجاعتهم . وانني أشك فى أن النصرانية وحدها كانت تستطيع أن تأتى مثل ذلك التأثير مهما يبالغ فى اكرامها » [1] ...

ومصداق ذلك أن ريتشارد لم يكد يدخل عكا حتى نسى شروط الأمان الذى منحه لحاميتها وتناسى شروط الاتفاقية التى عقدت مع المسلمين ، فقبض على من بداخل عكا من المسلمين « وكانوا زهاء ثلاثة آلاف مسلم » وساقهم الى تل قريب حيث « قتلوهم صبرا طعنا وضربا بالسيف » ، واخوانهم المسلمون عن بعد يشاهدون رقابهم تتساقط ولا يدرون ماذا يفعلون لبعدهم عنهم . وشتان بين هذا السلوك الهمجى الذى اتبعه ريتشارد فى ذبح أسرى المسلمين وبين السلوك الانسانى الذى اتبعه صلاح الدين تجاه الصليبيين عقب انتصاره فى حطين ، اذ حرص — كما سبق أن رأينا — على السماح لأهل المدن التى استولى عليها من الصليبيين بمغادرتها سالمين ، ومنع رجاله من الاعتداء عليهم أو التعرض لهم . بل ان صلاح الدين لم يضن على ريتشارد نفسه أثناء مرضه بالفاكهة والثلج وأرسلها اليه والصليبيون يحاصرون عكا .

ومن الواضح أن ذلك العمل الوحشى الذى أتاه ريتشارد مع أسرى عكا لم يكن له نتيجة سوى تأجج نار الثأر فى قلوب المسلمين واثارة نقمتهم ، وهم الذين لم ينسوا بعد ما فعله

---

(1) انظر : ـ سعيد عبد الفتاح عاشور : المدينة الاسلامية واثرها فى الحضارة الأوربية ؛ ص ٢١٠ .

صليبيو الحملة الأولى بالمسلمين فى بيت المقدس سنة ١٠٩٩ . ومع كل ذلك فقد أبى صلاح الدين أن يرد على وحشية ريتشارد بالمثل ، ورفض أن يقتل من كان فى حوزة المسلمين من أسرى الصليبيين ، وهم أعظم عددا بكثير من أسرى عكا المسلمين . ولم يلبث أن أخذ ريتشارد يعانى نتائج فعلته الهمجية اذ أغلق صلاح الدين باب المفاوضات فى وجهه حول أى موضوع يتعلق ببيت المقدس . أما أسرى الصليبيين الذين كان قد جمعهم صلاح الدين استعدادا لاستبدالهم بأسرى عكا المسلمين ، فقد أمر صلاح الدين بردهم فورا الى دمشق .

وما دام صلاح الدين قد رفض الكلام مع ريتشارد فى أى موضوع يتعلق ببيت المقدس ، فان ريتشارد أخذ يعمل فى محاولة يائسة لاحياء مملكة بيت المقدس الصليبية واسترداد مدنها وقلاعها وموانيها التى استولى عليها صلاح الدين . وقد بدأ ريتشارد محاولته باسترداد ساحل البحر من عكا الى عسقلان ، فزحف فى أواخر أغسطس سنة ١١٩١ فى ظروف صعبة بسبب شدة الحرارة وقلة المؤن وخراب البلاد والقرى التى مر بها . على أن صلاح الدين لم يترك غريمه يزحف فى سلام ، وانما « رحل فى أثرهم » ؛ كما انقض المسلمون على مؤخرة الجيش الصليبى قرب عكا ولم يستطع الصليبيون رده الا فى صعوبة بالغة . وهكذا لم تنقطع الاشتباكات بين الطرفين طوال زحف الصليبيين ، وان ظلوا « لا يتأثرون » وواصلوا زحفهم « من غير

انزعاج » ، ومراكبهم تسير بحذائهم فى البحر [1] . ولكن اذا كان الصليبيون قد استفادوا أثناء زحفهم هذا من حسن تنظيمهم وقوة أسلحتهم وترابطهم ، فان المسلمين تمتعوا بسهولة الحركة ، فى الوقت الذى ظل الصليبيون محصورين بين البحر من ناحيـة والمسلمين من ناحية أخرى .

وبعد أن استولى الصليبيون على حيفا التى أخلتهـا حاميتها الاسلامية ، استأنفوا زحفهم نحو قيسارية ، فى الوقت الذى قام الاسطول الصليبى بتموين الصليبيين عن طريق البحر . وقـد استولى الصليبيون على قيسارية فى نهاية أغسطس سنة ١١٩١ ليجدوها مخربة تماما ، بحيث لم يستطيعوا الحصول منها على زاد أو مال . وفى المعركة التى دارت فى أول سبتمبر بين المسلمين والصليبيين جنوبى قيسارية ، قتل أحد كبار أعوان صلاح الدين — هو أياز الطويل الذى وصفه ابن شداد بأنه « من فرســان الاسلام » ، فحزن عليه صلاح الدين حزنا شديدا . أما ريتشارد قلب الأسد ، فلم يشأ أن يضيع الوقت ، وانما عجل بالزحف على أرسوف رغم ما لاقاه الصليبيون فى زحفهم هذا من مشاق بسبب صعوبة الطريق ، حتى أن ريتشارد نفسه أصيب بجروح ورضوض مما جعله يطلب فتح باب المفاوضات مع صلاح الدين . ويبدو أن صلاح الدين أراد أن يكسب الوقت عندئذ حتى تصل اليه بعض القوات التى أرسل فى طلبها ، فتظاهر بقبول مبدأ

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ؛ ج ٢ ص ١٩٠ .

المفاوضة ، وأناب عنه أخاه الملك العادل فى مفاوضة ملك انجلترا . وفى تلك المفاوضات يذكر أبو شامه أن ريتشارد « طلب الاجتماع بالملك العادل خلوة » أى أن تكون المفاوضات ثنائية لا يحضرها أحد غير ريتشارد والعادل . ولكن ريتشارد تمسك بأن تعود مملكة بيت المقدس الصليبية الى ما كانت عليه قبل حطين ، وقال « القاعدة أن تعود البلاد كلها الينا » ؛ فرفض العادل ذلك الطلب ، وبذلك عاد الطرفان الى القتال (١) .

وفى موقعة أرسوف التى دارت بين صلاح الدين وريتشارد فى ٧ سبتمبر سنة ١١٩١ ، أحاط فرسان المسلمين بالصليبيين ، وأوشكوا أن يقضوا عليهم كما حدث فى حطين . ولكن ريتشارد قلب الأسد لم يكن من شاكلة جاى لوزجنان وأرناط ، فثبت فى القتال وأعاد تنظيم قواته بسرعة « ولقد رأيتهم وقد اجتمعوا فى وسط الرجالة وأخذوا رماحهم وصاحوا صيحة الرجل الواحد ، وفرج لهم رجالتهم وحملوا حملة واحدة من الجوانب كلها .. » (٢) وهكذا تحولت المعركة بسرعة فى صالح الصليبيين وتفرق كثير من جند المسلمين لولا شجاعة صلاح الدين وقوة جأشه « فثبت الى أن اجتمع عليه المسلمون .. » (٣) .

ولا شك فى أن انتصار الصليبيين فى أرسوف كانت له

---

(١) المرجع السابق ؛
ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٢٩٦ .
(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٩٦ .
(٣) المقريزى : السلوك ؛ ج ١ ص ١٠٥ .

نتائجه العميقة الأثر لأنه بعث فى الصليبيين شعور الثقة بالنفس بعد الهزائم التى أخذت تترى عليهم منذ موقعة حطين . ويتخذ المؤرخون موقعة أرسوف سنة ١١٩١ نقطة تحول فى تاريخ الحروب الصليبية ، لأنها تشير الى أن تيار الحرب الذى استمر فى صالح المسلمين بالشام منذ سنة ١١٧٠ بدأ يتحول بعد أرسوف — ولمدة ستين سنة تقريبا أى حتى سنة ١٢٥٠ — فى صالح الصليبيين . لذلك لا عجب اذا أظهر القاضى ابن شداد أسفه لتلك الهزيمة » وعبر عن شعور صلاح الدين بأنه « كان فى قلبه من تلك الواقعة ما لا يعلمه الا الله تعالى ، والناس بين جريح الجسد وجريح القلب » .

وقد أراد صلاح الدين بعد موقعة أرسوف أن يركز جميع جهوده فى الدفاع عن عسقلان ، ولكن امراءه خالفوه فى ذلك الرأى ، وقالوا له « ان اردت حفظها فادخل أنت معنا أو بعض أولادك الكبار والا فما يدخلها منا أحد لئلا يصيبنا ما أصاب أهل عكا !! » ولعل فى هذا الموقف الذى وقفه الأمراء من صلاح الدين ما يكفى للدلالة على ما أصاب هيبته من جرح عميق بسبب موقعة أرسوف ، مما جعله يلجأ الى تعديل خطته ويترك عقسلان ليوجه جهوده نحو الدفاع عن داخلية فلسطين ، وبخاصة بيت المقدس . على أنه كان لا يمكن ترك عسقلان ليحتلها الصليبيون « وهى عامرة » فيستغلونها فى الاستيلاء على القدس وفى قطع طريق مصر ؛ لذلك أسرع صلاح الدين الى تخريب عسقلان واحراقها وسط « بكاء الناس أسفا وغما لخرابها » .

وقد وضع والى عسقلان — الأمير علم الدين قيصر — خطة سريعة لتدمير المدينة وهدم أبراجها ، بحيث لم يترك منها شيئا يفيد منه الصليبيون . هذا فى حين أخلى أهل عسقلان مدينتهم فى سرعة وحملوا معهم ما اســـتطاعوا حمــله من المنقولات . أما صلاح الدين نفسه ، فقد اتجه الى بيت المقدس فى أواخر سنة ١١٩١ للاشراف على الدفاع عنها ، لعلمه أنها غاية الصليبيين وهدفهم الأساسى . وقد مر صلاح الدين فى طريقه الى بيت المقدس بالرملة فخرب تحصيناتها ، كما خرب اللد .

* * *

ريتشارد وبيت المقدس :

على أنه اذا كان ريتشارد قد انتصر فى أرسوف ، الا أنه لم يحاول أن يستفيد من انتصاره فيعمل بسرعة للاســتيلاء على عسقلان أثناء انشغال المسلمين بتدميرها ، ليستولى عليها دون عناء أو حصار . كذلك لم يحاول ريتشارد أن يستغل انتصاره فى أرسوف فى القيام بحركة سريعة لمهاجمة بيت المقدس والاستيلاء عليها ، وهى المدينة التى كانت تشكو عندئذ من عدم العناية بتحصيناتها وضعف امكانياتها الدفاعية بسبب انشغال صلاح الدين عنها منذ استيلائه عليها فى اكتوبر سنة ١١٨٧ . ويذكر المؤرخ ابن الأثير أن كونراد دى مولتفرات أشار على ريتشارد بالتوجه فورا الى عسقلان لمداهمتها أثناء انشغال المســلمين بهدمهــا ، ليسهل للصليبيين الاستيلاء عليها « صفوا عفوا بغير قتال » .

لكن ريتشارد أصم أذنيه عن النصيحه ، واختار أن يوجه جهوده عقب انتصاره فى أرسوف نحو اعادة بناء يافا « فأقام بها مر المكان » ، وأضاع فى تلك العملية وقتا ثمينا زهاء شهرين (سبتمبر — اكتوبر ١١٩١) ، أعاد فيهما صلاح الدين تنظيم صفوفه واستعد للجولة التالية مع ريتشارد (١) .

والواقع ان التجارب علمت الصليبيين أنه يتعذر عليهم البقاء فى بيت المقدس دون احكام سيطرتها على عسقلان ويافا ، ولذلك كان اهتمام ريتشارد بالاستيلاء على يافا وتعميرها لا يقل عن اهتمام صلاح الدين بتدمير عسقلان . وفى ذلك الدور بالذات أرسل كونراد دى مونتفرات الى صلاح الدين يطلب مصالحته ويتعهد بمحالفته ضد بقية الصليبيين ، وبمساعدته على استرداد عكا ، اذا وافق صلاح الدين على اعطائه صيدا وبيروت . على أن صلاح الدين كان يعلم جيدا أن كونراد «خبيث ملعون» ، وأنه أحس بطمع ريتشارد وحزبه فى صور وبأن ملك انجلترا يؤيد جاى لوزجنان ويعطف عليه ، ولذلك كله أسرع كونراد الى صور للاحتفاظ بها وارسل الى صلاح الدين ليستغله فى تحقيق أطماعه . لذلك رد صلاح الدين على كونراد بأنه يوافق على طلبه ، بشرط أن يبدأ كونراد بمجاهرة الصليبيين العداء وحصار عكا ، وتسليم من فى صور وعكا من أسرى المسلمين ، وعندئذ

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٨٧ هـ
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٩٢ .

يسلمه صلاح الدين صيدا وبيروت . ويهمنا فى هذا الموضع أن ريتشارد قلب الأسد لم يكد يحس بتلك الاتصالات بين صلاح الدين وكونراد دى مونتفرات حتى خشى العاقبة ، فأسرع بالعودة الى عكا « لفسخ هذه المصالحة واسترجاع المركيس (كونراد) اليه » [1] .

وأخيرا عاد ريتشارد ليتحرك فى نهاية أكتوبر سنة ١١٩١ من يافا قاصدا بيت المقدس ، فالتقى عند يازور بمقدمة الجيش الأيوبى وقتلوا بعض رجالها . وقد قضى ريتشارد فى تلك المنطقة نحوا من أسبوعين قام خلالهما باصلاح بعض القلاع والحصون وصد اغارات البدو والمسلمين الذين تجمعوا للاغارة على الداوية ، وهم الذين عهد اليهم ريتشارد بحماية تلك الحصون . وبعد ذلك اتجه ريتشارد على رأس الجيش الصليبى الى الرملة واللد ، وهما أول مدينتين هامتين على الطريق بين يافا وبيت المقدس ، وهو الطريق الذى أصبح مفتوحا أمام الصليبيين عقب انتصارهم فى أرسوف . ولكن الصليبيين أصيبوا بخيبة أمل شديدة ، عندما وجدوا أن صلاح الدين قد خرب الرملة ، فاضطروا الى نصب معسكرهم بين أنقاض المدينة وخرائبها . أما صلاح الدين نفسه فقد عسكر فى النطرون — عند منتصف الطريق الى بيت المقدس — لحمايتها من الصليبيين . وعندما علم صلاح الدين باتجاه ريتشارد نحو النطرون أدرك أن فى نيته مهاجمة بيت المقدس ،

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ٢ ص ٣٧٢
ابن شداد : النوادر ، ص ٣٠٩ ، ٣١٥ .

فأسرع بهدم النطرون — كما هدم الرملة من قبل — واتجه فورا الى بيت المقدس لتقوية استحكاماتها واعدادها للدفاع « فوقع الاهتمام فى عمارة سور بيت المقدس وحفر الخندق » . على قول المقريزى .

وهكذا تمكن ريتشارد من احتلال النطرون وبيت نوبه فى سهولة ؛ وصار على مقربة فعلا من بيت المقدس . وكان ذلك فى نهاية سنة ١١٩١ وقد زحف الشتاء ببرده وعواصفه « وحالت الأمطار والأوحال بينهما » ، فى الوقت الذى أخذ البدو والأعراب — بايحاء من صلاح الدين — يغيرون على مؤخرة الجيش الصليبى ويقطعون خطوط مواصلاته . ومع كل ذلك فقد تحمل الصليبيون العناء فى سبيل الوصول الى بيت المقدس ، وهى المدينة الحبيبة الى نفوس المسلمين والمسيحيين جميعا . ويصف المؤرخون الغربيون مدى فرح الصليبيين عندئذ وحماستهم لرؤية بيت المقدس ، مما أعاد الى الأذهان ذكرى الحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٩ . ولكن الفارق بين الحالتين كان واضحا ، لأن الصليبيين اقتربوا من بيت المقدس فى ديسمبر سنة ١١٩١ ليجدوها مدينة كاملة التحصين صعبة المنال . ذلك أن صلاح الدين كان قد أعد عدته للدفاع عن بيت المقدس وأحكم تحصينها « فقسم سور البلد على أولاده وأخيه وأجناده ، فشرعوا فى انشاء سور جديد » . كذلك يحكى ابن واصل أن صلاح الدين عمل بنفسه فى عمارة سور بيت المقدس وحفر خنادقه ، فكان « ينقل الأحجار هو

وأولاده وأجناده وأمراؤه ، ومعهم القضاة والعلماء والفقهاء..»(١).
وهكذا جنى الصليبيون عاقبة توالى ريتشارد بعد انتصاره فى أرسوف ، فاضطر ريتشارد ورجاله الى الانسحاب عائدين الى الرملة ويبنا ، تحوطهم موجة من الأسى وخيبة الأمل .

ومن الجائز أن نفسر تراجع ريتشارد عن بيت المقدس فى يناير سنة ١١٩٢ فى ضوء المحادثات السرية من أجل الصلح بينه وبين صلاح الدين . وقد بدأت هذه المحادثات فى أواخر أكتوبر وأوائل نوفمبر سنة ١١٩١ ، عندما أرسل ريتشارد من معسكره قرب يازور الى صلاح الدين يطلب منه الدخول فى مفاوضات من أجل الصلح ، وقال « ان المسلمين والافرنج قد هلكوا ، وخربت البلاد وخرجت من يد الفريقين بالكلية ؛ وقد تلفت الأموال والأرواح من الطائفتين . وقد أخذ هذا الأمر حقه .. فنصطلح ونستريح من هذا التعب الدائم » .. على أن هذه المفاوضات التى ناب فيها الملك العادل عن أخيه صلاح الدين لم تلبث أن تعثرت بسبب اصرار الصليبيين على ارجاع مملكة بيت المقدس الى ما كانت عليه قبل هجمات صلاح الدين سنة ١١٨٥ . وقد بلغ من تمسك ريتشارد بمدينة بيت المقدس أنه أرسل الى صلاح الدين يقول « القدس متعبدنا فانزل عنه ، ولو لم يبق منا الا واحد » . هذا بالاضافة الى تمسك الصليبيين بعسقلان واستعادة الأردن بما فيه

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ٢ ص ٣٧٥
أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ٢ ص ١٩٦ .

من حصون ؛ وكلها شروط كان لا يمكن أن يقرها صلاح الدين والمسلمون . لذلك رد صلاح الدين على طلب ريتشارد قائلا : « القدس لنا كما هو لكم ، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم ، فانه مسرى نبينا ومحشر أمتنا ، فلا تتصور أن ننزل عنه ، ولا نقدر التلفظ بذلك بين المسلمين !! » (١) .

وثمة حل طريف اقترحه ريتشارد فى ذلك الدور لحسم النزاع بين المسلمين والصليبيين بالشام ، هو أن يتزوج الملك العادل أخو صلاح الدين من الأميرة جوانا — أرملة ملك صقلية وأخت ريتشارد — وكانت « عزيزة عليه كبيرة القدر » . وكان هدف ريتشارد من وراء ذلك المشروع أن يشترك الزوجان — العادل الذى يمثل الجانب الاسلامى وجوانا التى تمثل الجانب الصليبى — فى حكم فلسطين ، بما فيها بيت المقدس والمدن الساحلية ، وبذلك ينتهى الاشكال . وفى هذه الحالة يستولى المسيحيون على صليب الصلبوت ، ويكون لهم بكنيسة القيامة قسا ويمكنوا من زيارتها بشرط أن لا يحملوا السلاح « ويرضى العادل مقدمى الفرنج والداوية والاسبتارية ببعض القرى ، ولا يمكنهم من الحصون !! » (٢) . ومن الطريف أن الملك العادل رحب بذلك الحل ترحيبا كبيرا « ورأى فى ذلك عين الصواب !! » . وربما رأى العادل — وهو الرجل الثانى فى الدولة الأيوبية بعد

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣١٥
أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ٢ ص ١٩٣ .
(٢) عماد الدين الكاتب : الفتح القسى ؛ ص ٣٠٩ .

أخيه صلاح الدين — فى ذلك الحل ضمانا لتوحيد المسلمين والصليبيين فى بلاد الشام فى ظل حكومة واحدة ، واقرار الأمور فى تلك البلاد على أساس المحبة والارتباط بين الفريقين . على أن أغرب ما فى الموضوع هو أن صلاح الدين نفسه قبل الفكرة وأعلن ترحيبه بها فى صراحة تامة . ويبدو أن صلاح الدين أعلن قبوله لذلك المشروع لعلمه أن ملك انجلترا لن يتمكن من تنفيذ مشروعه ، « وأن هذا منه مكر وهزو » . وسرعان ما ظهر أن العقبة الكؤود فى سبيل تنفيذ هذا المشروع لم تأت من جانب صلاح الدين أو ريتشارد ، وانما أتت من جانب الأميرة جوانا نفسها التى أبت أن « تمكن مسلما من نفسها » . ويروى أبو شامة أن بعض الصليبيين خوفوا أخت ريتشارد من عاقبة الزواج من العادل « واتهموها فى دينها وعنفوها وقالوا لها ما معناه هذه فضيحة فظيعة وسبة شنيعة وأنت عاصية للمسيح لا مطيعة .. » . لذلك طلب ريتشارد من العادل أن يعلن اعتناقه للمسيحية — ولو فى الظاهر — لتذليل تلك العقبة ! وعندئذ عرف العادل « أنها خديعة » ، وصرف النظر عن الموضوع .

ومهما يبدو فى مشروع زواج العادل من جوانا أخت ريتشارد من غرائب ، وبصرف النظر عما اعترض ذلك المشروع من عقبات حالت دون تنفيذه ، فان فكرته تدل على مدى ما اعترى عصر الحروب الصليبية من تطور فى مشاعر المسلمين والمسيحيين سواء . وشتان بين هذه العقلية التى فكر بها ريتشارد وصلاح الدين والعادل جميعا فى أواخر القرن الثانى عشر وبين

الروح التى تجلت فى تصرفات رجال الحملة الصليبية الأولى فى أواخر القرن الحادى عشر . والواقع ان هذا التفكير من جانب ريتشارد والاستجابة من جانب صلاح الدين والعادل ، انما يدلان على التقارب السياسى والحضارى والفكرى بين المسلمين والصليبيين فى الشام بعد مرور قرن على بداية الحرب الصليبية بالشام ؛ كما يدلان على روح التسامح التى أخذت تبدو بوضوح فى بعض تصرفات الفريقين . وحسبنا ما يرويه ابن واصل بعد ذلك مباشرة من اجتماع الملك العادل وريتشارد سويا « على طعام ومحادثة » ؛ وكيف أن ريتشارد طلب الاجتماع بصلاح الدين نفسه ، ولكن الملك العادل رفض طلبه وقال « ان الملوك اذا اجتمعوا تقبح بينهم المخاصمة بعد ذلك ، واذا انتظم أمر حسن الاجتماع » (١) .

وكان أن شغل ريتشارد بعد ذلك ببناء أسوار عسقلان وتحصينها (يناير سنة ١١٩٢) ، ثم بالسعى لحل مشاكل الصليبيين الداخلية . وكانت المشكلة الأولى التى هددت وحدة الصليبيين بالشام عندئذ هى الخلاف المستحكم بين كونراد دى مونتفرات وجاى لوزجنان . وقد كرر كونراد محاولته للاتفاق مع صلاح الدين ، ولكن الأخير فضل أن يغض الطرف عن كونراد وأن يستمر فى مباحثاته مع ملك انجلترا ، بعد أن عرف عن كونراد أنه « كلما أبرم عهدا نقضه ونكثه » . وفى ذلك الوقت

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ٢ ص ٣٧٤ .

وصلت ريتشارد أخبار سيئة من الغرب تؤكد ثورة أخيه حنا ضده ، مما تطلب منه سرعة العودة الى بلاده . غير أنه كان من المتعذر على ريتشارد أن يبرح الشام قبل الوصول الى حل مع صلاح الدين من ناحية ، وحل النزاع المستفحل بين كونراد وجاى من ناحية أخرى . لذلك رأى ريتشارد أن يعقد مؤتمرا عاما من الأمراء والفرسان لاستفتائهم فى مشكلة اختيار أحد الرجلين : كونراد أو جاى ملكا على مملكة بيت المقدس الصليبية . وقد عقد المؤتمر فى عسقلان فى شهر أبريل سنة ١١٩٢ ، وعندئذ أجمع الأمراء اجماعا شبه تام على اختيار كونراد لعرش مملكة بيت المقدس لما لمسوه فيه من صفات حربية بارزة وشجاعة نادرة تضمن للصليبيين فى الشام قسطا من الأمان . على أن كونراد لم يهنأ بتلك الثقة طويلا ، اذ وجد مقتولا فى ٢٨ أبريل سنة ١١٩٢ ؛ ويقال انه قتل بيد أحد الفدائيين من الباطنية ، أوفده شيخهم راشد الدين سنان لتنفيذ تلك الجريمة ، بتحريض من ريتشارد .

ولابد لنا من وقفة قصيرة عند مقتل كونراد ، حيث أن أحد كبار المؤرخين المسلمين وجه اتهاما خطيرا لصلاح الدين بأنه هو الذى دبر تنفيذ تلك الجريمة . والأمر الذى أجمعت عليه المراجع المعاصرة — العربية وغير العربية — هو أن كونراد قتل بيد اثنين من الباطنية دخلا صور وتظاهرا بالتنصر والتعبد حتى أحبهما كونراد واطمئن اليهما فقتلاه . غير أن الآراء اختلفت فى حقيقة المحرض على قتله ، فهناك رأى يقول بوجود عداء شخصى

بين كونراد وراشد الدين سنان شيخ الباطنية بسبب اتهام كونراد لهم بالاعتداء على سفينة تجارية للصليبيين ونهبها . هذا الى أن راشد الدين سنان كان يخشى بأس كونراد وقوته ويخاف قيام دولة قوية للصليبيين على شاطىء الشام . أما المؤرخون العرب المعاصرون — وعلى رأسهم ابن شداد وعماد الدين الكاتب وأبو شامة ثم ابن واصل — فقد أجمعوا على أن ريتشارد ملك انجلترا هو الذى حرض الباطنية على قتل كونراد وأنه أراد أن يتخلص منه لما بينهما من عداء شخصى . ولم يشذ عن هذا الاجماع فى المراجع العربية سوى ابن الأثير الذى يتهم صلاح الدين بأنه راسل راشد الدين سنان وطلب منه قتل ريتشارد وكونراد جميعا ووعد بدفع الأموال مقابل ذلك ؛ ولكن سنان خشى أن يتخلص صلاح الدين من أعدائه فيتفرغ للباطنية ويقضى عليهم ، ولذلك اكتفى بقتل كونراد وعدل عن قتل ريتشارد . ويبدو لنا أن رأى ابن الأثير بعيد عن الصحة ، لا لأنه يخالف اجماع بقية المؤرخين المعاصرين فحسب ، بل لأنه يتنافى مع سياسة صلاح الدين وأخلاقه . هذا فضلا عما أشارت اليه المراجع من أن صلاح الدين لم يسر لمقتل كونراد بسبب عداوته لريتشارد « ومنازعته فى الملك » ، ولما ترتب على مقتله من توحيد كلمة الصليبيين وهو ما ليس فى مصلحة صلاح الدين والمسلمين . والأمر فى رأينا لا يعدو الكراهية الشخصية التى كان يضمرها المؤرخ ابن الأثير لصلاح الدين ، وهى الكراهية التى ظهرت فى كتابته عن

صلاح الدين فى أكثر من مناسبة ، وجعلته يتعجل فى اصدار هذا الحكم الباطل على صلاح الدين (١) .

ومهما يكن من أمر ، فان خسارة الصليبيين بالشام كانت جسيمة بفقد كونراد دى مونتفرات ، لأنه كان الرجل الذى يستطيع أن يرعى حقوقهم ويدافع عن كيانهم وينظم أمورهم ، حتى وصفه ابن الأثير بأنه « كان رجل الفرنج رأيا وشجاعة » . أما ريتشارد قلب الأسد فقد تخلص من خصم عنيد بقتل كونراد ، فاختار لعرش المملكة الصليبية هنرى دى شامبنى وزوجه من ايزابيل أرملة كونراد ، فى حين أرضى جاى لوزجنان بمنحه جزيرة قبرص ليؤسس فيها أسرة صليبية حاكمة ظلت تحكم الجزيرة عدة قرون (١١٩٢ — ١٤٧٢) .

ولم يكد ريتشارد قلب الأسد يستريح من مشاكله الداخلية ، حتى عاد الى توجيه جهوده ضد المسلمين ، فاستولى على قلعة الداروم (دير البلح) فى مايو سنة ١١٩٢ رغم المقاومة الشديدة التى أبدتها حامية القلعة . وبعد ذلك اتجه الصليبيون نحو حصن مجدل يابا وحاولوا الاستيلاء عليه ، ولكن المسلمين ردوهم خائبين بعد أن أنزلوا بهم بعض الخسائر . وكان أن اتجه ريتشارد بعد ذلك الى عسقلان ، ومنها شرع فى الزحف مرة أخرى على بيت المقدس . وعلى الرغم من حرارة الجو وقلة الماء ، فقد واصل

(١) للتفصيلات انظر : —
سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ؛ ج ٢ ص ٨٨٥ — ٨٨٦ .

الصليبيون زحفهم حتى وصلوا فى ١١ يونية الى بيت نوبة ، حيث قضى الصليبيون بضعة أسابيع فى انتظار هنرى دى شامبنى الذى قصد عكا لجلب امدادات وآلات حصار يستعين بها الصليبيون فى محاولتهم للاستيلاء على بيت المقدس . ومع ذلك فان المسلمين لم يتركوا الصليبيين يتقدمون فى هدوء ، وانما ظلوا يطاردونهم « وألهبوهم بالنهب والسلب وسلطوا عليهم وكمنوا لهم تحت كل رابية » ، على قول ابن واصل . وهكذا حتى وصلت مقدمة الصليبيين الى قلونية — على بعد ثمانية كيلومترات الى الشمال الغربى من بيت المقدس . ويروى أبو شامة أن صلاح الدين اتخذ فى تلك الأثناء عدته لمقاومة الصليبيين ، فوزع أسوار بيت المقدس على الأمراء للدفاع عنها « وتقدم اليهم بتهيئة أسباب الحصار ، وأخذ فى افساد المياه ظاهر القدس ، فخرب الصهاريج والجباب بحيث لم يبق حول القدس ماء يشرب أصلا » . هذا فضلا عن قيام فرسان المسلمين باغارات مفاجئة على معسكر الصليبيين (١) .

وبينما الصليبيون ينتظرون فى ١٧ يونيه قافلة قادمة من يافا تحمل اليهم المؤن والامدادات ، اذا بفرقة من المسلمين تحت قيادة الأمير بدر الدين دلدرم تغير عليها « فقتلوا وأسروا وفازوا ونصروا » . وهكذا ساءت حالة الصليبيين بسبب نقص المؤن وشدة الحرارة وندرة الماء ، فى حين اختار ريتشارد أن يلتزم

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ؛ ج ٢ ص ١٩٨ .

معسكره فى بيت نوبه ، ورفض أن يتقدم أكثر من ذلك ، ورد على معارضيه بأنه لا يستطيع أن يتحمل مسئولية عمل يلام عليه بعد ذلك .

على أن امتناع ريتشارد عن مهاجمة صلاح الدين فى بيت المقدس لم يمنعه من استخدام سلاح آخر ، هو قطع الطريق بين مصر والشام ، مستغلا فى ذلك سيطرته على عسقلان وقلعة الداروم من ناحية ، وخيانة بعض البدو والأعراب من ناحية أخرى . وكان صلاح الدين قد طلب حضور العسكر المصرى للمشاركة فى الدفاع عن بيت المقدس ، فخرج العسكر من مصر فى هيئة قافلة كبيرة تحت قيادة فلك الدين أخى الملك العادل لأمه . وعلى الرغم من أن صلاح الدين كتب الى رجال القافلة من القدس « يأمرهم بالاحتراز عند مقاربة العدو » ، الا أن أخبار القافلة الضخمة الآتية من مصر لم تلبث أن تسربت الى الصليبيين بالشام عن طريق البدو « والعرب المفسدين » . وعندما علم صلاح الدين بتربص الصليبيين للعسكر المصرى ومسيرهم للايقاع به ، بادر بارسال بعض أمرائه لملاقاة العسكر وتحذيرهم . ومع ذلك فان ريتشارد استطاع مباغتة القافلة المصرية أثناء الليل — ٢٣ يونية سنة ١١٩٢ — « فكبسهم قرب الصباح » ؛ ولم يستطع النجاة بنفسه من المسلمين الا الشجاع ؛ وكانت النتيجة أن أسر الصليبيون عددا كبيرا فى حين فر الباقون الى الكرك و « أوغلوا فى البرية » . وقد قدر المقريزى عدد أسرى المسلمين فى تلك الواقعة بخمسمائة رجل ، فى حين ذكر ابن شداد

أنه قتل من الصليبيين فيها زهاء مائتى فارس ، وهو عدد مبالغ فيه . أما الغنائم التى غنمها الصليبيون من الخيل والجمال والأقمشة والأموال فكانت ضخمة حتى أن المؤرخين ذكروا أن عدد الجمال وحدها بلغ ثلاثة آلاف جمل . لذلك لا عجب اذا اعتبر المؤرخون المسلمون تلك الكارثة « وقعة شنعاء لم يصب الاسلام مثلها من مدة مديدة » . كذلك يروى القاضى ابن شداد أنه حاول أن يسكن ألم صلاح الدين عندما سمع الخبر ويسليه ولكن دون جدوى « فما مر بالسلطان خبر أنكى منه فى قلبه » (1).

ويبدو أن هذه الانتصارات التى أحرزها ريتشارد جعلت الصليبيين يعودون الى خيامهم « وقد طمعوا » ، فعادوا يفكرون فى السير الى بيت المقدس . وكان أن أسرع ريتشارد الى تقوية الحراسة عند اللد حتى لا ينقطع وصول المؤن الى معسكر الصليبيين ، وفى الوقت نفسه أرسل الى صور وطرابلس وعكا « يستحضر من فيها من المقاتلة ليصعدوا الى القدس » .

ولا شك فى أن وصول هذه الأخبار الى المسلمين فى الوقت الذى قنع صلاح بالبقاء فى بيت المقدس وتقوية استحكاماتها لمواجهة الهجوم الصليبى المنتظر ؛ ترك أثرا سيئا فى الروح المعنوية للجيش الاسلامى . وقد حكى المؤرخون المسلمون أن

---

(1) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣٤٧ ــ ٣٥١
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٩٨
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٨٣ ــ ٣٨٤
المقريزى : السلوك ؛ ج ١ ص ١٠٩ .

الأجناد والأمراء أنكروا على صلاح الدين الاستمرار فى تحصين بيت المقدس واعدادها للحصار ، وقالوا « لا مصلحة فى ذلك ، فانا نخاف أن نحصر ويجرى علينا مثل ما جرى على أهل عكا ؛ وعند ذلك تؤخذ بلاد الاسلام أجمع .. » . وهكذا يبدو أن عقدة عكا ظلت تتحكم فى تفكير رجال صلاح الدين فى ذلك الوقت . هذا فضلا عما نشأ من خلافات بين صفوف الطوائف العديدة التى تألف منها جيش صلاح الدين والتى رجعت الى عناصر وأصول متعددة لم يجمع بينها سوى الاسلام والرغبة فى الجهاد . وقد أشار مؤرخو الصليبيين الى تلك الخلافات التى دبت عندئذ فى صفوف المسلمين ، مما شجع ريتشارد على الحركة والعمل ضد المسلمين .

ثم ان بقاء صلاح الدين فى بيت المقدس لم يلبث أن عرض بعض أنحاء دولته للاضطراب . من ذلك مايرويه أبو شامة من اختلال أحوال دمشق وأعمالها فى تلك السنة . وخلاصة القول أن صلاح الدين وجد نفسه عندئذ فى موقف لا يحسد عليه ، وهو الرجل الحريص على الجهاد الراغب فى تطهير البلاد . ويحكى ابن شداد أن صلاح الدين دخل المسجد الأقصى « وصلى ركعتين ورأيته ساجدا وهو يذكر كلمات ودموعه تتقاطر على مصلاه !! » وذلك بسبب ما أحس به من سوء الموقف [1] .

على أن الموقف لم يلبث أن تبدل فجأة بسبب اختلاف كلمة الصليبيين وانقسامهم على أنفسهم ، بين مؤيدين للزحف على

---

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ؛ ص ٣٥٦ .

بيت المقدس ومحاصرتها ومعارضين لتلك الفكرة . وقد روى أبو شامة وابن واصل المناقشة التى دارت بين الطرفين . وكان يؤيد فكرة مهاجمة القدس الصليبيون الفرنسيون الذين قالوا « انما جئنا من بلادنا بسبب القدس ولا نرجع دونه » ، فى حين عارض ريتشارد والانجليز تلك الفكرة بحجة عدم وجود ميـاه خارج المدينة بعد أن أفسد صلاح الدين الآبار . وعندما استحكم الخلاف بين الفريقين تقرر التحكيم ، وانتهى الأمر برفض الرأى القائل بمهاجمة بيت المقدس ، فانسحب الصليبيون « ناكصين على أعقابهم » الى الرملة فى أواخر يوليو سنة ١١٩٢ ؛ ومن هناك « بعثوا رسلهم فى طلب الصلح .. » .

* * *

صلح الرمله :

وكان لانسحاب ريتشارد رد فعل قوى فى صفوف المسلمين ، اذ انتعش صلاح الدين وارتفعت الروح المعنوية لرجاله ، ورفض المسلمون التفاوض علـى أسـاس الشروط السـابقة ، بل ان صلاح الدين أوشك أن يبطش بالرسول الذى أوفده اليه هنرى دى شامبنى للمطالبة باعادة مملكة بيت المقدس الصليبية .

على أن رغبة ريتشارد فى العودة السريعة الى بلاده ، ورغبة صلاح الدين فى التفرغ لشئون دولته دفعت الفريقين الى الدخول فى مفاوضات جديدة لتصفية الموقف والوصول الى حل لذلك النزاع الذى طال دون نتيجة . وقد قام بالوساطة فى تلك المفاوضات

الحاج يوسف صاحب الأمير سيف الدين المشطوب عن جانب المسلمين ، وأونفروى دى تورون عن جانب الصليبيين . ويفهم من رسالةريتشارد الى صلاح الدين أنه لجأ الى أسلوب يجمع بين التهديد والترغيب ، فهو يقول لصلاح الدين : « لا تغتر بتأخرى عن منزلى ، فالكبش يتأخر لينطح !! » وفى الوقت نفسه يقترح على صلاح الدين أن يحكم هنرى دى شامبنى مملكة بيت المقدس ولكن تحت حماية المسلمين ، فيكون هو وجيشه تحت امرة صلاح الدين وفى طاعته « ولو استدعيتهم الى الشرق سمعوا وأطاعوا !! » . وقد ارتاح صلاح الدين ورجاله لتلك اللهجة المعتدلة من جانب ريتشارد ، فأرسل صلاح الدين اليه قائلا « ان ابن اختك (هنرى دى شامبنى) يكون عندى كبعض أولادى » .

وبعد أن تم الاتفاق على هذا المبدأ العام بقيت التفاصيل ، لا سيما فيما يتعلق بملكية بيت المقـدس ذاتها وبعض المـدن الساحلية . وهنا تنازل ريتشارد عن المطالبة بالسيطرة السياسية على بيت المقدس ، واكتفى بالتمسك بحق الصليبيين فى حماية الأماكن المقدسة — وبخاصة كنيسة القيامة — مع ضمان حرية الحج والعبادة للصليبيين . ولم يفت ريتشارد أن يشير بتسـامح صلاح الدين وسعة صدره ، وعبر عن أمله فى أن يحظى ببعض ذلك الكرم الذى اشتهر به صلاح الدين فى معاملته للصليبيين ؛ فقال له « ان جمـاعة من الرهبان والمنقطعين قد طلبوا منـك كنايس ، فما بخلت عليهم بهـا ؛ وأنه (ريتشارد) طلب منـك

كنيسة (القيامة) » . وكان أن وافق صلاح الدين على ذلك ، كما وافق على أن يكون للصليبيين ملك البلاد الساحلية من صور الى يافا ، بشرط أن « عسقلان وما وراءها تكون خرابا لا لنا ولا لكم » . ومن الواضح أن صلاح الدين اهتم تلك المرة بابعاد سيطرة الصليبيين عن عسقلان — وما يليها من بلدان الساحل تجاه مصر مثل غزة والداروم — حتى لا تؤدى سيطرة الصليبيين على تلك الجهات الى قطع طريق الاتصال بين مصر والشام . أما داخلية بلاد الشام ، فقد اتفق على أن تبقى بأيدى المسلمين .

على أن المفاوضات عادت وتعثرت بسبب رفض ريتشارد تسليم عسقلان وتخريبها ، حتى مقابل اللد التى عرض صلاح الدين اعطائها للصليبيين . وكان صلاح الدين قد أفاق عندئذ من أزمة هجوم ريتشارد على بيت المقدس ، فأجاب على اصرار ريتشارد على التمسك بعسقلان وعدم تخريبها بالقيام بهجوم كبير على يافا ، « فحاصرها ولم يزل يقاتل من فيها من الفرنج الى أن أخذ البلد عنوة وغنم الناس منها شيئا عظيما » . وكان ريتشارد قد اتجه عندئذ شمالا بنية انتزاع بيروت من المسلمين ثم الابحار فورا الى أوربا ، فانتهز صلاح الدين فرصة ابتعاد ريتشارد من جهة وضعف حامية يافا من جهة أخرى لتنفيذ خطته والاستيلاء على يافا فى أواخر يولية سنة ١١٩٢ (١) .

على أن صلاح الدين لم يهنأ بيافا طويلا ، لأن حامية المدينة

---

(١) عماد الدين الكاتب : الفتح القسى ؛ ص ٣٤٢
ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٣٩٣ — ٣٩٤

دافعت فى قوة واصرار وشجاعة استرعت نظر القاضى ابن شداد الذى لم يستطع أن يخفى اعجابه ببسالة الصليبيين فى يافا . ومع أن الصليبيين لم يستطيعوا وقف تيار المسلمين واضطروا الى اخلاء المدينة ، الا أنهم احتفظوا بقلعتها وثبتوا فيها حتى تم الاتفاق على التسليم . وفى الوقت المحدد للتسليم لاح الأسطول الصليبى أمام يافا فى أغسطس سنة ١١٩٢ ، يحمل ريتشارد الذى عاد من عكا مسرعا لانقاذ يافا . ولم يشأ ريتشارد أن يضيع الوقت فى تلك المرة ، وانما أسرع بانزال قواته ومهاجمة المسلمين فورا ، وتمكن بفضل تلك السرعة المباغتة من انزال الهزيمة بالمسلمين فى أول أغسطس سنة ١١٩٢ ومطاردتهم حتى يازور . ولم يتمالك ريتشارد نفسه من الشماتة فى أعدائه ، فقال مخاطبا بعض أمراء المسلمين « هذا السلطان عظيم ، وما فى هذه الأرض للاسلام أكبر ولا أعظم منه . كيف رحل عن المكان بمجرد وصولى ؟ !! » (١) .

وكانت القوة التى أتى بها ريتشارد الى يافا صغيرة لم تتجاوز ألفى رجل ، منهم خمسمائة فقط من الفرسان ، فأسرع هنرى دى شامبنى الى قيسارية عن طريق البحر لاحضار المدد . على أن صلاح الدين أراد أن يستغل قلة رجال ريتشارد قبل أن يأتيه المدد ، فحاول القيام بهجوم جديد مفاجىء فى مساء يوم ٥ أغسطس على معسكر ريتشارد ، ولكنه لم يجد استجابة وتأييدا من رجاله . بل لقد تجرأ أحد أمراء صلاح الدين — ويعرف بالجناح —

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ؛ ص ٣٧٧ .

عليه ، وقال له « يا صلاح الدين ! قل لمماليكك الذين أخذوا أمس الغنيمة وضربوا الناس بالحماقات يتقدمون فيقاتلون . اذا كان القتال فنحن واذا كانت الغنيمة فلهم ! » . وهكذا ساء موقف صلاح الدين ، وانسحب فى حالة سيئة من خيبة الأمل الى يازور ومنها الى النطرون ، فى الوقت الذى تحول ريتشارد من الدفاع الى الهجوم .

ولم يلبث ريتشارد أن اعتراه المرض فى يافا ، فأبت شهامة صلاح الدين الا أن يقدم له كل معونة ممكنة فى مرضه . من ذلك ما تذكره المراجع من أن الأطباء وصفوا لريتشارد الفاكهة والثلج ، فأخذت رسله تتردد على صلاح الدين الذى لم يضن على خصمه بكل ما طلبه ؛ فكانت « رسل الأنكلتيرى لا تنقطع فى طلب الفاكهة والثلج ، وأوقع عليه فى مرضه شهوة الكمثرى والخوخ ، وكان السلطان يمده بذلك .. » . ويبدو أن هذا السلوك من جانب صلاح الدين كان له أثره الطيب فى نفس ريتشارد ، الذى أخذ يشعر عندئذ بمزيد من القلق للأخبار السيئة التى استمرت تصله من بلاده والتى تطلبت عودته الى الغرب على وجه السرعة . وقد أدرك المسلمون صعوبة موقف ريتشارد فى الشرق وأنه مضطر الى العودة غربا ، فذكر القاضى ابن شـــداد « وكان لعنه الله مضطرا الى الرواح ! » . بل ان ريتشارد نفسه لم يخف عن المسلمين اضطراره الى العودة السريعة الى بلاده بسبب سوء أحوالها ، فقال لأحد أمراء المسلمين : « سلم على السلطان وقل له : بالله عليك أجب سؤالى فى الصلح ، فهذا الأمر

لابد له من آخر ، وقد هلكت بلادى وراء البحر ، وما فى دوام هذا مصلحة لا لنا ولا لكم ! » [1] . والواقع أن ريتشارد كان لا يستطيع العودة الى بلاده تاركا الموقف معلقا فى بلاد الشام بين المسلمين والصليبيين . واذا كان ريتشارد قد حقق بعض انتصارات على المسلمين ، فانها كانت انتصارات جزئية محلية ، فى حين ظل صلاح الدين رابضا فى داخلية بلاد الشام على رأس جيوشه يتحكم فى دولة قوية تمتد من حلب ودمشق وبيت المقدس الى وادى النيل ، وتحيط بالبقايا الصليبية المتناثرة قرب شواطىء الشام .

وسرعان ما تدهورت صحة ريتشارد تدهورا ملحوظا ، بحيث بدا أنه ان لم يعجل بالعودة الى بلاده ، فربما أدركه الموت بالشام . وكان لابد لريتشارد من الاتفاق مع صلاح الدين بأية صورة قبل أن يودع بلاد الشام ، لتأمين موقف الصليبيين بالشام بعد عودته . والواقع ان الاتفاق بين صلاح الدين وريتشارد لم يكن متعذرا ، لولا مشكلة عسقلان وغزة والداروم التى أبى صلاح الدين الا أن يستردها المسلمون وصمم ريتشارد على أن يحتفظ بها الصليبيون . وهكذا عاد ريتشارد الى ملاينة صلاح الدين من جديد ، الأمر الذى جعل القاضى ابن شداد لا يتمالك نفسه ويعجب من أسلوب ريتشارد فى التهديد حينا

---

(1) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ٢ ص ٣٩٩
ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٣٨٣ .

والملاينة أحيانا ، فقال « انظر الى هــذه الصناعة فى استخلاص الفرص باللين تارة والخشونة أخرى ! » .

وأخيرا — وتحت تأثير الرغبة الملحة فى العودة الى بلاده — اضطر ريتشارد الى التنازل عن بعض شروطه ، فتم عقد صلح الرملة ، فى ٢ سبتمبر سنة ١١٩٢ ، وهو الصلح الذى نص على أن يكون للصليبيين المنطقة الساحلية من صور الى يافا ، بما فيها قيسارية وحيفا وأرسوف . أما عسقلان فتكون للمسلمين فى حين تكون الرملة واللد مناصفة بين المسلمين والصليبيين . واشترط صلاح الدين دخول بلاد الاسماعيلية (الباطنية) ، واشترط الصليبيون دخول صاحب أنطاكية وطرابلس فى الصلح ؛ « ورضى الاســبتارية والداوية ، وسائر مقــدمى الافرنجية بذلك » . أما الأماكن المقدسة فقد ظلت فى أيدى المسلمين ، على أن يكون للمسيحيين حرية الحج الى بيت المقدس دون مطالبتهم بدفع أية ضريبة . وقد اتفق على أن تكون مدة الصلح ثلاث سنوات وثلاثة أشهر ، وناب عن الملك ريتشارد فى التوقيع على الاتفاقية هنرى دى شامبنى وباليان الثانى دى ابلين — الذى عرفته المراجــع العربية باسم باليان بن بارزان — وأونفروى الرابع دى تورون ؛ فى حين مثل الجانب الاسلامى الملك الأفضل والملك الظاهر ابنا صــلاح الدين ، فضــلا عن أخوه الملك العادل وبعض الأمراء الآخرين .

* * *

خاتمة صلاح الدين :

لا يخفى علينا أن صلح الرملة قوبل بالارتياح التام من المسلمين والمسيحيين سواء ، بعد أن ملوا جميعا تلك الحرب الطويلة التى لم تنته الى نتيجة حاسمة وتاقوا الى فترة من الهدوء والسلام يباشرون فيها نشاطهم العمرانى . ويصور لنا المقريزى عظم الفرحة التى عمت المسلمين والمسيحيين سواء عند اعلان الصلح ، فيقول « كان يوم الصلح يوما مشهودا ، عم فيه الطائفتين الفرح والسرور لما نالهم من طول الحروب ! » [1] . أما صلاح الدين نفسه ، فيبدو أنه لم يقدم على مصالحة الصليبيين مختارا ، وانما الظروف هى التى اضطرته الى الصلح اضطرارا بعد أن رأى « سآمة العسكر وتظاهرهم بالمخالفة » . ولو سارت الأمور لصلاح الدين على ما يشتهى لاستمر فى الجهاد حتى تتحقق غايته الكبرى ، وهى تطهير بلاد الشام من الدخلاء الغربيين . وكان أخشى ما يخشاه صلاح الدين هو أن يترك الصليبيين فى بعض مراكزهم ببلاد الشام ؛ فتكون هذه المراكز بمثابة قواعد لانطلاقهم بعد ذلك واستقبال وفود أخرى من الغزاة الغربيين . ويؤكد القاضى ابن شداد — وهو رفيق صلاح الدين وصديقه وجليسه هذا المعنى ، فيقسم قائلا : « والله العظيم ! ان الصلح لم يكن من ايثاره ، فانه قال لى فى محاوراته فى الصلح : أخاف أن أصالح ، وما أدرى أى شىء يكون منى فيقوى به هذا العدو ؛

---

(١) المقريزى : السلوك ، ج١ ص ١١٠ .

وقد بقيت لهم هذه البلاد ، فيخرجوا لاسترداد بقية بلادهم ونرى كل واحد من هؤلاء الجماعة قد قعد فى قلعته ! » [1] .

ومهما يكن من أمر ، فان صـلاح الدين أعلن « ان الصلح قد انتظم فمن شاء من بلادهم يدخل بلادنا فليفعل ، ومن شـاء من بلادنا يدخل بلادهم فليفعل ! » . وقد حرص صلاح الدين على أن يتحلى دائما بروح الشهامة والمروءة والتسامح التى ميزت معاملاته مع الصـليبيين ، فقبل ما طلبه منه هوبرت اسـقف سالسبورى من تعيين اثنين من رجال الدين الكاثوليك فى كل من كنيسة القيامة وكنيسة بيت لحم وكنيسة الناصرة ، وذلك الى جانب ما كان فى تلك الكنـائس من رجـال الدين الارثوذكس والسريان واليعاقبة [2] .

ولم تلبث أن عادت الحياة الطبيعية الى فلسطين ، فأقبـل الحجاج المسيحيون على بيت المقدس آمنين ، وأخذ النشـاط يدب فى طرق التجارة ، « واختلط العسكران وذهب جمـاعة من المسلمين الى يافا فى طلب التجارة ، ووصل خلق عظيم العدد الى القدس للحج وفتح لهم السلطان الباب فى ذلك ، ونفذ معهم الخفراء يحفظونهم حتى يردوهم الى يافا » . ولما علم ريتشارد قلب الأسد كثرة من يزور بيت المقـدس من حجاج المسـيحيين ، خشى أن يغضب صلاح الدين لذلك « وسير الى السلطان يسأله

---

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٣٩١ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبيـة ؛ ج ٢ ص ٨٩٩ — ٩٠٠ .

منع الزوار واقترح أن لا يؤذن لهم الا بعد حضور علامة من جانبه أو كتاب منه » . ولكن صلاح الدين أبى ذلك ، ورد عليه بأن أولئك الحجاج « وقد وصلوا من ذلك البعد لزيارة هـذا المكان الشريف ، فلا استحل منعهم ! » . بل ان صلاح الدين بالغ فى اكرام من يرد الى بيت المقدس من حجاج المسيحيين ، « وشرع فى مد الطعام لهم ومباسطتهم ومحادثتهم !! » . وبذلك لقن صلاح الدين أحد ملوك الغرب الأوربى درسا فى التسامح وسعة الأفق ، وذلك قبل أن يركب ريتشارد البحر فى طريقه الى غرب أوربا فى أوائل أكتوبر سنة سنة ١١٩٢ .

ويفهم من المراجع المعاصرة أن صلاح الدين استمر فى ذلك الدور الأخير من حياته متمسكا بسياسة التسامح مع الصليبيين والاحسان اليهم . من ذلك أنه عندما حضر بوهيموند الثالث أمير أنطاكية لزيارة صلاح الدين فى بيروت فى نهاية أكتـوبر سنة ١١٩٢ ، بالغ صلاح الدين فى « احترامه واكرامه ومباسطته » . وعندما استحكم الخلاف من جـديد بين هنرى دى شامبنى — ملك مملكة بيت المقدس — من ناحية وغريمه جاى لوزجنان الذى آلت اليه مقاليد الحكم فى جزيرة قبرس من ناحية أخرى ، احتكم الطرفان لصـلاح الدين وطلب كل منهما مساعدته ضـد غريمه . ولكن صلاح الدين لم يستجب لرغبات أحد الطرفين ، ورفض أن يقدم مساعدته لأيهما ، وربما رأى فى « افتراق كلمتهم نصر للاسلام » . ومن جهة أخرى فانه يبدو أن الصعوبات التى أحاطت بهنرى دى شامبنى ملك بيت المقدس جعلته يحرص على

كسب ود صلاح الدين ، فأرسل اليه « يستعطفه ويستميله ويطلب منه خلعة ، وقال له : أنت تعلم أن لبس القبا والشربوش عندنا عيب ، وأنا ألبسهما منك محبة !! » . وكان أن أرسل له صلاح الدين خلعة سنية ، منها القبا والشربوش ، ففرح بهما الملك الصليبى وارتداهما فى عكا !! (١) .

أما عن نشاط صلاح الدين بعد صلح الرملة ، فكان معظمه محصورا فى دائرة داخلية ضيقة . ولم يكد صلاح الدين يتأكد من سفر ريتشارد قلب الأسد الى الغرب ومغادرته بلاد الشام ، حتى قرر الرحيل الى مصر بعد أن طال غيابه عنها . وكان أن وضع صلاح الدين لنفسه برنامجا يتلخص فى زيارة القلاع والمواقع البحرية ليتفقدها حتى بانياس شمالا ، وبعد ذلك يتوجه لزيارة دمشق زيارة قصيرة تستغرق أياما معدودة ؛ ومنها يرحل الى مصر مارا ببيت المقدس . وفعلا غادر صلاح الدين بيت المقدس بعد أن ترك فيها القاضى ابن شداد ليعنى بعمارة البيمارستان (المستشفى) الذى أنشأه صلاح الدين وادارة المدرسة التى أقامها فيه . ومن بيت المقدس اتجه صلاح الدين الى نابلس فسبسطية فكوكب فبيروت ، حيث لقيه بوهيموند الثالث أمير أنطاكية — كما سبق أن ذكرنا — فى أواخر أكتوبر سنة ١١٩٢ . وفى جميع البلاد التى مر بها صلاح الدين كان يستمع لشكاوى الأهالى « ويكشف عن أحوالهم » ويرفع الظلم عنهم . وبعد

---

(١) ابن الأثير : الكامل : حوادث سنة ٥٨٨ هـ .

أن تفقد صلاح الدين القلاع الساحلية وعمل على « سد خللها واصلاح أمور أجنادها ، وشحنها بالأجناد والرجال » ؛ اتجه الى دمشق — وكان يحبها ويؤثر الاقامة فيها على سائر البلاد . وفى دمشق التقى صلاح الدين بمجموعة من أولاده منهم الملك الأفضل والملك الظاهر والملك الظافر ؛ فعقد مجلس كبير حضره الخاصة والعامة وأنشد فيه الشعراء القصائد والمدائح ، وجلس صلاح الدين ينظر فى شكاوى الأهالى « وينشر جناح عدله ويهطل سحاب انعامه وفضله » .

ويبدو أن صلاح الدين قضى فى دمشق وقتا طيبا فلحق به هناك أخوه العادل ، وأخذ صلاح الدين وأخوه وأولاده يمارسون رياضة الصيد « ويتفرجون فى أرض دمشق وموطن الظباء ؛ وكأنه وجد راحة مما كان فيه من ملازمة التعب وسهر الليل ونصب النهار » . ويذكر ابن شداد أن بهجة دمشق أنست صلاح الدين ما كان قد اعتزمه من قصد الديار المصرية ، بل انه أرسل الى القاضى ابن شداد بالقدس يستدعيه ليكون الى جواره بدمشق . ولما وصل ابن شداد الى دمشق ، استدعاه صلاح الدين على انفراد « فدخلت عليه ، فقام ولقينى لقاء ما رأيت أشد من بشره بى فيه ، ولقد ضمنى اليه ودمعت عينه ، رحمه الله » .

وعلى الرغم من أن صلاح الدين استمر فى ذلك الدور يستقبل رسل الصليبيين ويمارس نشاطه العادى دون أن يشكو علة أو مرضا ، فان رفيقه ابن شداد لاحظ عليه ثقل الحركة والكسل

وانحراف المزاج « ولم أجد عنده من النشاط ما كنت أعرفه » .
ومع ذلك فقد خرج صلاح الدين لاستقبال الحجاج سنة ٥٨٩ هـ في يوم عظيم اجتمع فيه جمع كبير من الناس وأحاطوا بصلاح الدين حتى خاف عليه ابن شداد ، وحدثه في ضرورة الحيطة على نفسه .
وكان ركوب صلاح الدين في ذلك اليوم آخر ركوبه ، اذ بات تلك الليلة ليفتح عينيه وسط الليل وقد غشيته « حمى صفراوية » .
ولم يفلح علاج الأطباء اذ أخذ المرض في تزايد سريع ، واشتد الألم في رأسه « وقلت رطوبات بدنه » . وكان ان انتشر خبر مرض صلاح الدين في دمشق فاضطرب الناس وخافوا « وغشيهم من الكآبة والحزن مالم يمكن حكايته » . وقد تكاثرت جموع الناس حول قلعة دمشق بين مستفسر يريد الاطمئنان وداع له بالشفاء . ولم يسمح لأحد بالدخول عليه سوى القاضي ابن شداد والقاضي الفاضل ، فكانا يترددان عليه بضع مرات في النهار والليل.
وفي اليوم السادس لمرضه كان يجلس عنده القاضي ابن شداد ، فأحضروا له ماء فاترا ليشربه عقب الدواء ، ولكن صلاح الدين شكا من شدة حرارة الماء . ولما أحضروا ماء ثانيا شكا صلاح الدين من برده وقال : « سبحان الله ، ألا يمكن أحد تعديل الماء » ؛ وكان ذلك دون أن يغضب أو يصخب ؛ « فخرجت أنا والقاضي الفاضل من عنده وقد اشتد بنا البكاء والقاضي الفاضل يقول لي : أبصر هذه الأخلاق التي قد أشرف المسلمون على مفارقتها ! والله لو أن هذا بعض الناس لضرب بالقدح رأس من أحضره » .

وبازدياد وطأة المرض على صـــلاح الدين أخذ يغيب ذهنه وتنتابه حالات اغماء بين حين وآخر ، وتزداد كمية العرق التى ينضحها من جسمه . واذا كانت حالته قد تحسنت بعض الشىء فى اليوم العاشر ، مما أثار فرح الناس وسرورهم ؛ فانها كانت صحوة الموت التى أعقبها تفاقم الحال . ولما تحقق الملك الأفضل نور الدين على — أكبر أبناء صلاح الدين — ألا رجاء فى شفاء والده ، استحلف الناس له .

وفى ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة ٥٨٩ هـ (مارس ١١٩٣) ؛ وهى الليلة الثانية عشرة من مرضه ؛ ساءت حالة صلاح الدين بدرجة ملموسة واستمر فى حالة غيبوبة طويلة لم يفق منها الا نادرا ، فاستحضر أحد المقرئين ليقرأ عنده القرآن ، حتى اذا ما وصل المقرىء الى قوله تعالى « لا اله الا هو عليه توكلت » تبسم وجه صلاح الدين وتهلل ، وانتقلت روحه الى رضوان الله ؛ وكان ذلك بعد صلاة صبح يوم السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة .

لقد وقع نبأ موت صلاح الدين على المسلمين جميعا وقع الصاعقة ؛ ولنترك القلم للقاضى ابن شداد — وهو شـــاهد عيان — يصف لنا صدى تلك المصيبة فى قلوب الناس ، اذ يقول : « وكان يوما لم يصب الاسلام والمسلمون بمثله ، منذ فقدوا الخلفاء الراشدين ، وغشى القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يعلمه الا الله تعالى . وبالله لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فداءه بنفوسهم ، وما سمعت هذا الحديث الا ضرب من التجوز

والترخص الا فى ذلك اليوم ؛ فانى علمت من نفسى ومن غيرى أنه لو قبل الفـداء لفـُدى بالنفس .. وكان أولاده يخرجـون مستغيثين الى الناس فتكاد النفوس تزهق لهول منظرهم ، ودام الحال على ذلك الى ما بعد صلاة الظهر .. وكان نزوله فى حفرته — قدس الله روحه ونور ضريحه — قريبا من صلاة العصر ؛ ثم نزل فى أثناء النهار ولده الملك الظافر ؛ وعزى الناس فيه ، وسكن قلوب الناس ؛ وكان الناس قد شغلهم البكاء عن الاشتغال بالنهب والفساد ؛ فما وجد قلب الا حزين ، ولا عين الا باكية الا من شاء الله . ثم رجع الناس الى بيوتهم آقبح رجوع .

هذا ، وقد دفن صلاح الدين فى قلعة دمشق الى آن شيدت له قبة (ضريح) فى شمال الكلاسة ، شمالى جامع دمشق قرب المدرسـة العزيزية التى بناها العزيز عثمان بن صـلاح الدين ؛ فنقل اليها .

الفصل السادس

أخلاق عالم

توفى صلاح الدين عن سبع وخمسين عاما ، قضى معظمها فى الجهاد والسعى لتحرير الوطن العربى فى الشرق الأدنى من دنس الغزاة الغربيين الذين تستروا تحت قناع زائف من الدين ليحققوا أهدافا استغلالية وسياسية بعيدة المدى فى منطقة هى بمثابة القلب من جسد العروبة .

واذا كانت شهرة صلاح الدين الواسعة فى التاريخ قد جاءت نتيجة لحسن بلائه وصبره على الجهاد وشجاعته فى مواجهة الأخطار ، فان هناك جوانب أخرى فى شخصية هذا الرجل جديرة بالتسجيل وقمينة بأن تضفى عليه مزيدا من الأهمية والعظمة فى التاريخ . ذلك أن صلاح الدين لم يكن محاربا شجاعا شهما فحسب ، بل كان أيضا انسانا كريم الخلق وحاكما عادلا أحبه رعاياه لما لمسوه فيه من صفات سامية . واذا كان صلاح الدين قد نجح فى حروبه وحقق من الانتصارات ما عجز عنها كثير من القادة والحكام فى التاريخ ، فاننا ينبغى أن نذكر دائما أن جزءا كبيرا من الفضل فى تحقيق تلك الانتصارات وذلك النجاح انما يرجع الى شخصية صلاح الدين وكرم أخلاقه ومحبة رجاله له . ورب

قائد فى التاريخ توافرت له من أسباب العظمة ووفرة الجيوش وقوة السلاح أكثر مما توافر لصلاح الدين ، ومع ذلك لم يستطع أن يحقق جزءا مما حققه صلاح الدين من ظفر ونجاح . ذلك أن صلاح الدين استطاع أن يكتسب محبة رعاياه واخلاص أمرائه وجنوده ، فكان اذا خرج للجهاد خرج مطمئنا الى أن وراءه رعية تؤمن به وتدعو له بالنصر والتوفيق ، والى أن حوله جيشا يخلص له ويثق فيه ويعتقد فى صلاح رأيه وعمله . ولا أقل من أن نلقى نظرة سريعة فى هذا الفصل على حكومة صلاح الدين وأخلاقه وصفاته لنعرف الأسباب الحقيقية لنجاح صلاح الدين فى حياته وخلود ذكراه بعد وفاته .

* * *

حكومة صلاح الدين :

أراد الملك الظاهر غازى — ابن صلاح الدين — أن يستأذن أباه قبل رحيله الى امارته فى حلب وشمال الشام ، فاختلى به صلاح الدين — فى حضرة القاضى ابن شداد — وزوده ببعض النصائح والمبادىء التى ينبغى أن يسير عليها فى حكمه ، والتى تعبر فى حد ذاتها تعبيرا صادقا أمينا عن أسلوب صلاح الدين نفسه فى الحكم ، وأفكاره عن طرق معاملة الرعية ومبادئه فى رعاية شئون البلاد والعباد . قال صلاح الدين لابنه : « أوصيك بتقوى الله فانها رأس كل خير ، وآمرك بما أمر الله به فانه سبب نجاتك . وأحذرك من الدماء والدخول فيها والتقلد لها ، فان الدم لا ينام .

وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر فى أحوالهم ، فأنت أمينى وأمين الله عليهم . وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء وأرباب الدولة والأكابر ، فما بلغت ما بلغت الا بمداراة الناس . ولا تحقد على أحد فان الموت لا يبقى على أحد . وحذار ما بينك وبين الناس فانه لا يغفر الا برضاهم ، وما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك اليه فانه كريم ! » (١) .

هـذا هو منهج صـلاح الدين فى الحـكم . واذا كان صلاح الدين قد حرص عـلى أن يوصى أبنـاءه ونوابه بتلك النصائح ، فلا شك فى أنه كان أشد حرصا على أن يطبق بنفسه تلك الآراء تطبيقا مباشرا فى حكمه ، ليكون مثلا ساميا يحتذيه نوابه فى حـكم أجزاء دولته الواسعة . والملاحظ فى كتابات المؤرخين المعاصرين — أمثال ابن الأثير وأبى شامة والعمـاد وابن شداد ثم ابن خلكان وابن واصل — أنهم فى كتابتهم عن صلاح الدين ركزوا مادتهم العلمية فى شرح حروبه وانتصاراته ، دون أن يتعرضـوا للجانب السلمى من نشاط صـلاح الدين الا بالقدر اليسير . ولكننا مع ذلك نستطيع أن نلتقط من خلال أحداث الحروب طرفا من اصلاحات صلاح الدين وأسلوبه فى معاملة رعاياه . ومن حسن حظ التاريخ أن الرحالة الأندلسى ابن جبير زار مصر والشام على أيام صلاح الدين . ومع رغبته

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٣٩٦ .

في الايجاز وتخير المادة التى يسجلها ، الا أنه لم يتمالك نفسه فأثنى على صلاح الدين وأعماله واصلاحاته ثناءا كبيرا . فابن جبير تارة يقول ما نصه : « وهذا السلطان الذى سن هـذه السنن المحمودة ورسم هذه الرسوم الكريمة على عدمها فى المدة البعيدة ، هو صـلاح الدين أبو المظفر يوسف ابن أيوب ، وصـل الله صلاحه وتوفيقه » . ومرة أخرى يذكر ان « مآثر هذا السلطان ومقاصده فى العدل ومقاماته فى الذب عن حوزة الدين لا تحصى كثرة » ..

وقد ذكر ابن جبير من مناقب صلاح الدين « وآثاره التى أبقاها ذكرا جميـلا للدين والدنيا » أنه أزال بعض المكوس والضرائب تخفيفا عن الناس ورفعا للظلم عن كواهلهم . ومن هذه المكوس عـدد كبير كان مفروضا على كل ما يباع ويشـترى « مما دق أو جل ، حتى كان يؤدى على شرب ماء النيل المكس » ؛ فألغى صلاح الدين ذلك كله . وكانت هناك ضريبة قدرها سبعة دنانير ونصف تفرض على كل حاج فى طريقه الى الحجاز وتجمع حصيلة هذه الضريبة لترسل الى الحجاز لتعمير مكة والمدينـة ومساعدة الناس هناك . وقد اشتط الفاطميون فى جمع هذا المكس من الحجاج ، ومن يعجز عن دفعه يعذب عذابا أليما فى عيذاب ثم فى جده اذا وصل اسمه غير مشار اليه بما يفيد سداد المكس . ولكن صلاح الدين ألغى ذلك المكس ، وخصص لأهل الحجاز قدرا من المعونة تعادل قيمة ما كانوا يحصلون عليه من قيمـة مكس الحجاج ، وبذلك أراح الحجاج من عنت الجباة ، لاسيما

وأن نسبة كبيرة من الحجاج كانوا فقراء لا ينهضون بدفع ذلك المكس ؛ « فكفى الله المؤمنين على يدى هذا السلطان العادل حادثا عظيما وخطبا أليما » .

ثم ان صلاح الدين لم يكتف « ببسط العدل ونشر الأمن » فى بلاده حتى غدا الناس يتنقلون من مكان الى آخر أثناء الليل دون أن يشعروا بخوف أو قلق ؛ وانما حرص أيضا على اقامة عدد كبير من المنشآت العامة والمرافق بقصد تيسير أسباب الحياة لرعاياه . ويذكر ابن جبير أن صلاح الدين أمر بانشاء عدد من المحاضر أو الكتاتيب وخصص لها المعلمين لتعليم الأيتام وأبناء الفقراء ، وخصص لهم جميعا الجراية الكافية . هذا بالاضافة الى عديد المدارس التى أنشأها صلاح الدين — والتى سبقت الاشارة اليها — وخصص لها المدرسين والأوقاف والأرزاق للانفاق عليها وعلى طلبة العلم فيها .

ومن مآثر صلاح الدين أيضا المارستان أو المستشفى الكبير الذى شاهده ابن جبير فى القاهرة وقال عنه انه « قصر من القصور الرائقة حسنا واتساعا » . وقد رتبت فى غرف ذلك المستشفى أسرة مفروشة فرشا كاملا نظيفا بحيث يكون لكل مريض فراشه الخاص به ، وخصص للمستشفى مجموعة من الأطباء يتفقدون أحوال المرضى ويصفون لهم العلاج ويصرفون لهم الدواء من صيدلية كبيرة ملحقه بالمستشفى بها الأدوية « على اختلاف أنواعها » . ويذكر ابن جبير أن هذا المستشفى كان ينقسم الى ثلاثة أقسام ، قسم خاص بالرجال وقسم خاص بالنساء « ولهن

أيضا من يكفلهن » ، وقسم ثالث خاص بالأمراض العقلية . وقد لوحظ فى القسم الأخير تشديد الحراسة عليه حتى أن نوافذه كانت من الحديد حتى لا يتمكن مجنون من الهـرب . وكان صلاح الدين نفسه « يتطلع هـــذه الأحـــوال كلها بالبحث والسؤال ، ويؤكد الاعتناء بها والمثابرة عليها غاية التأكيد » (١) .

والمعروف أن مصر فى العصور الوسطى كانت مقصد كثيرين من زهاد المغرب ، فضلا عن حجاج المغاربة الذين كانوا يمرون بها الى الحجاز والذين كانت نسبة منهم تفضل البقاء بمصر وعدم العودة الى بلادهم . وتبع عن ذلك ازدياد جالية المغاربة بمصر ازديادا ملحوظا منذ أيام الفاطميين بوجه خاص ، ومعظم هؤلاء المغاربة كانوا فقراء فى حاجة الى معونة ومساعدة اجتماعية . وهنا نجد صلاح الدين يشمل هؤلاء المغاربة بعطفه ورعايته ، فخصص لهم جامع أحمد بن طولون يقيمون فيه ويعقدون حلقات الدرس بين رحابه الواسعة ، كما أجرى عليهم الأرزاق ، فخصص انسانا أمينا من قبله لتوزيع الطعام فى كل يوم على « أبناء السبيل من المغاربة » . فاذا عجزت الأوقاف المخصصة لذلك الغرض عن الوفاء بالغرض فانه نبه على الموظفين المختصين أن يأخذوا ما يلزم « من صلب ماله » . وقد روى بعض هؤلاء المغاربة لابن جبير ان السلطان صلاح الدين ترك لهم حرية واسعة بحيث لم يسمح لأحد بالتدخل فى خواص أمورهم « وجعـل أحكامهم اليهم ،

---

(١) رحلة ابن جبير ؛ ص ٢٠ ــ ٢١ .

ولم يجعل يدا لأحد عليهم » . وهكذا اختار المغاربة بمصر أحدهم ليكون رئيسا عليهم « يمتثلون أمـــره ويتحاكمون فى طوارىء أمورهم عنده .. فتفرغوا لعبادة ربهم ووجدوا من فضل السلطان أفضل معين على الخير الذى هم بسبيله » [1] . هذا عن الأغراب الموجودين فى دولة صلاح الدين ، أما رعاياه من أهل البلاد فقد وصفهم ابن جبير بأنهم « فى نهاية من الترفيه واتساع الأحوال » .

وخلاصة القول أن سياسة الجهاد التى اتبعها صلاح الدين ، وما تتطلبه هذه السياسة من جهود متواصلة وامكانيات ضخمة ومزيد من الوقت والمال .. كل ذلك لم يشغل صلاح الدين عن أن يقيم دعائم حكومة عادلة تعمل لصـــالح البلاد والعباد . وكان لصلاح الدين فى أخلاقه القويمة خـــير سياج يضمن صـــلاح حكومته وعـــدم انحرافها ، ويتضح ذلك بدراسة أخـــلاق صلاح الدين نفسه فى شىء من التفصيل لنرى صـــلاح الدين فى صورة الانسان المسالم المستقيم مثلما رأيناه فى صورة البطل الشجاع المحارب .

* * *

شجاعته وصبره على الجهاد :

اتصف صلاح الدين بالشجاعة الفائقة التى شـــهد له بها الأعداء قبل الأصدقاء . ولم يكن صلاح الدين مثل القادة الذين نسمع عنهم فى التاريخ والذين كان الواحد منهم يقنع بالجلوس

---

(1) رحلة ابن جبير ، ص ١٠ ، ٢١ .

فى عاصمته ويقذف بالجيوش الى ساحة الوغى ليقتل من رجاله من يقتل ويجرح منهم من يجرح ، فاذا أصابوا نصرا فالشرف والفخر للملك أو القائد الذى لم يشارك رجاله فى قليل أو كثير ؛ وان حلت الهزيمة بهم فالتبعة تقع عليهم وحدهم لأنهم لم يثبتوا ولم يصمدوا للعدو . كلا ؛ لم يكن صلاح الدين من ذلك الصنف من الملوك والقـادة وانما كان اذا أراد منازلة العدو تقدم رجاله وخرج صحبتهم الى ساحة القتال ؛ وشاركهم مخاطر الحـرب وأهوالها ، وثبت معهم فى وجه الشدائد والأزمات ، فان أصابوا نصرا فهو شريكهم فى المجد والثواب ، وان خانهم التوفيق فهو أيضا شريكهم فى المسئولية .

ومن أمثلة شجاعة صلاح الدين أنه بعد أن استولى على حصن كوكب سنة ١١٨٨ (٥٨٤ هـ) ، سمح المعسكر المصرى بالانصراف للراحة ، وكان ذلك العسكر بقيادة أخيه الملك العادل ، فقرر صلاح الدين أن يودعهم حتى عسقلان ثم يتفقد البلاد الساحلية حتى عكا . ولم يوافق المقربون من صلاح الدين على تلك الخطة ، لأنه بعد أن يودع العسكر المصرى فى عسقلان سيبقى هـو فى شرذمة قليلة من الجند ، فكيف يأمن على نفسه أن يتنقل من مدينة الى أخرى من مدن الساحل ليتفقدها وهو دون جيش يحميه ، لا سيما وأن جموع الصليبيين كانت كبيرة فى صور . لذلك أشار مرافقو صلاح الدين — ومنهم القاضى ابن شداد — عليه بألا يفعل ذلك ، واعتبروا عمله « مخاطرة عظيمة » ؛ ولكنه أصر على رأيه ومضى فى طريقه الى عكا بحذاء الساحل بعد أن

صرف العسكر المصرى دون أن يخاف عدوا أو يخشى خطرا .
وكان الفصل شتاء والبرد قاسيا والبحر هائجا ، فنظر صلاح الدين الى أمواج البحر الهادرة ، ثم التفت الى القاضى ابن شداد وقال « أما أحكى لك شيئا فى نفسى ! انه متى يسر الله تعالى فتح بقية الساحل ، قسمت البلاد (بين أبنائه) وأوصيت وودعت ؛ وركبت هذا البحر الى جزائره ، وأتبعتهم (الصليبيين) فيها ، حتى لا أبقى على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت !! » .

ثم ان صلاح الدين كان محتفظا دائما بروحه المعنوية عالية ؛ لا ييأس أمام تفوق العدو ولا تخور قواه اذا أحاطت به الشدائد ، ومن ذلك ما يرويه ابن شداد أنه حدث أثناء حصار الصليبيين لعكا أن وصلت فى البحر فى ليلة واحدة أكثر من سبعين مركبا صليبيا ، وهو يعدهم مركبا بعد آخر من بعد صلاة العصر الى غروب الشمس ؛ ومع ذلك فان صلاح الدين كان « لا يزداد الا قوة نفس !! » . وفى ذلك الموضوع قال ابن شداد — وهو رفيق صلاح الدين وملازمه فى معظم حركاته وسكناته — « ما رأيته استكثر العدو أصلا ، ولا استعظم أمرهم قط .. » .
وقد حدث فى بعض المواقع التى دارت بين صلاح الدين والصليبيين فى مرج عكا أن هزم المسلمون وسقط علمهم على الأرض ، ومع ذلك ظل صلاح الدين « ثابت القدم فى نفر يسير ، حتى انحاز الى الجبل يجمع الناس ، ويردهم ويخجلهم حتى يرجعوا ، ولم يزل كذلك حتى نصر عسكر المسلمين على العدو فى ذلك اليوم » .

ومن الواضح أن هـذه الشـجاعة التى اتصف بهـا صلاح الدين ، كانت سببا من أسباب صبره على الجهاد ، بالاضافة الى ما عرف عنه من غيرة على مصالح المسلمين ورغبـة قوية فى مواصلة الجهاد حتى يطهر أرض العروبة من الدخلاء الطامعين . وقد جمع القاضى ابن شداد كتابا فى الجهاد ذكر فيه آدابه وكل آية وردت فى القرآن عنه ، وكل حديث نبوى روى فى فضله ، وقدم كتابه لصلاح الدين الذى كثيرا ما كان يخلو الى نفسه ليطالع فيه . واذا أراد رجل أن يتقرب الى صلاح الدين ، فان خير طريق لذلك كان طريق حثه على الجهـاد . وتفيض كتب التاريخ بأمثلة عديدة على صبر صلاح الدين على الجهاد ، وكيف أنه — اذا كان على رأس جيشه قريبا من العدو — حرص على أن يطوف حول العدو فى كل يوم مرة أو مرتين . وقد حدث فى ليلة ممطرة عاصفة وصلاح الدين يرابط على مرج عكا أن سقطت خيمته وكان من الممكن أن تقتله ، ومع ذلك لم يزده ذلك الا رغبة فى الجهـاد ومثابرة عليه . وكان ان عبر القاضى ابن شـداد عما لمسه فى صـلاح الدين من حب للجهاد واهتمام بأمره تعبيرا موجزا عميقا حين قال : « لقد كان حبه للجهـاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيما ، بحيث ما كان له حديث الا فيه ، ولا نظر الا فى آلته ، ولا كان له اهتمام الا برجاله ، ولا ميل الا الى من يذكره ويحث عليه .

لقد هجر فى محبة الجهاد فى سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسائر بلاده ، وقنع من الدنيا بالسكون فى ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة » .

* * *

تدينه وصبره :

والواقع ان صلاح الدين كان مدفوعا الى الجهاد بعاطفة دينية قوية واضحة ، وهذه العاطفة هى التى جعلته يواصل الجهاد فى صبر واصرار .

وقد شهد المعاصرون لصلاح الدين بأنه حسن العقيدة سليمها ، وأنه استفاد من مشايخ أهل العلم وكبار الفقهاء المعاصرين فى تفهم ما استعصى عليه من أحكامها . وكان الشيخ قطب الدين النيسابورى قد جمع له كتابا فى أحكام الدين ، فحرص صلاح الدين على تلك المعلومات وأخذ يعلمها الصغار من أبنائه ويحفظها لهم .

وظهر تدين صلاح الدين فى محافظته على الفروض الدينية . فمن ناحية الصلاة كان شديد المواظبة عليها بالجماعة حتى حكى عنه آنه ظل عدة سنوات ما صلى فيها الا جماعة . وكان اذا مرض يستدعى الامام وحده ويتحمل القيام من فراشه والصلاة مع الامام جماعة . ويذكر القاضى ابن شداد أنه رأى صلاح الدين مرات وهو يصلى أثناء مرضه الأخير الذى أودى به الى الموت .

كذلك كانت له صلوات يصليها اذا استيقظ أثناء الليل ؛ بحيث لم يترك الصلاة الا فى الأيام الثلاث الأخيرة التى فقد فيها وعيه .

وأما الزكاة ، فان صلاح الدين مات « ولم يخلف ملكا ولا دارا ولا عقارا ولا بستانا ولا قرية ولا مزرعة ولا شيئا من أنواع الأملاك » مما تجب عليه الزكاة . ومع أن صلاح الدين لم يتملك فى حياته ما يستوجب دفع الزكاة ، فانه توسع فى صدقة النفل ، حتى استنفدت الصدقات التى اعتاد أن يوزعها جميع ما لديه من أموال ، فلم يترك فى خزانته — كما سبق أن أشرنا — سوى سبعة وأربعين درهما ، وجراما واحدا من الذهب .

وأما صوم رمضان ، فكان صلاح الدين حريصا عليه حرصه على الصلاة ؛ ولكنه تخلى عن صيامه بضعة سنوات بسبب أمراض ونوازل حلت به . وقد دأب القاضى الفاضل — وزير صلاح الدين — على ثبت تلك الفوائت التى فاتت صلاح الدين من صيام رمضان ؛ حتى شرع صلاح الدين فى السنة التى توفى فيها فى قضاء تلك الفوائت وهو بالقدس . وواظب صلاح الدين على الصوم مدة متصلة ، وكان القاضى الفاضل متغيبا ، فأخذ القاضى ابن شداد يثبت الأيام التى يصومها صلاح الدين أيام مرضه . ولم يوافق طبيب صلاح الدين على صومه أثناء مرضه الأخير ، بل لقد لامه فعلا على ذلك ، ولكن صلاح الدين أصر على الصيام حتى قضى ما كان عليه قبل أن يشتد عليه المرض ويموت .

وأما الحج فكان صلاح الدين تواقا للنهوض بتلك الفريضة ، ولكن مشاغل الجهاد التى استنفدت وقته ونشاطه حالت بينه وبين تحقيق أمنية عزيزة عليه . ولا يستطيع التاريخ أن يطلب من صلاح الدين أن يترك الجهاد ويفارق جيوشه لتقع البلاد والعباد فريسة للمعتدين الغاصبين فى حين يقضى بضعة أشهر فى الحج . ولذلك لم يستطع صلاح الدين أن يفكر تفكيرا جديا فى الحج الا بعد عقد صلح الرملة مع الصليبيين . وكان أن تأهب صلاح الدين للحج فى العام السابق لوفاته ؛ وعملت فعلا الترتيبات الخاصة برحلته الى الحجاز بحيث لم يبق الا المسير . ولكن المشكلة الأساسية التى حالت دون تنفيذ المشروع كان نقص المال ، اذ لم يجد صلاح الدين فى خزائنه ما يمكنه من أداء الفريضة ، وبذلك تقرر تأجيل الحج للعام التالى بسبب « خلو اليد عما يليق بأمثاله ، فأخره الى العام المستقبل ، فقضى الله ما قضى !! » على قول القاضى ابن شداد .

ثم ان صلاح الدين كان يحب سماع القرآن ويصغى له فى انتباه « فاذا سمع القرآن يخشع قلبه ، وتدمع عينه فى معظم أوقاته » . وبلغ من حب صلاح الدين لسماع القرآن أنه كان يأمر من يحرسه فى الليل بقراءة الجزئين والثلاثة والأربعة وهو جالس يسمع . ويروى أنه مر على صغير يقرأ القرآن بين يدى أبيه ، فاستحسن قراءته ، وأعطاه بعضا من طعامه الخاص ، ووقف عليه وعلى أبيه جزءا من مزرعة .

وما يقال عن القرآن يقال عن الحديث ، اذ كان صلاح الدين حريصا على سماعه وقراءته بنفسه . ويروى ابن شداد أن صلاح الدين كان يستحضره فى خلوته ويحضر شيئا من كتب الحديث ويقرأها هو ، « فاذا مر بحديث فيه عبرة دق قلبه ودمعت عينه » .

وكان طبيعيا أن يتحلى صلاح الدين بالصبر والاحتساب ، وهو الرجل الدين المؤمن بالله وقضائه . وهناك اشارات عديدة فى المراجع المعاصرة الى صبر صلاح الدين ، وهو الصبر الذى ظهر أشد ما يكون وضوحا فى مواصلته الجهاد وهو بعيد عن أولاده الصغار ، فكان يقضى الأشهر والسنوات فى ساحة القتال « وهو صابر على مفارقتهم ، راض ببعدهم عنه ، وكان صابرا على مر العيش وخشونته ، مع القدرة التامة على غير ذلك ، احتسابا لله تعالى .. » وقد حدث أكثر من مرة أن قاد صلاح الدين جيوشه وهو مريض ، وأخذ ينظم جيوشه ويقاتل وهو يعانى آلام المرض ، وابن شداد يتعجب من ذلك فيرد عليه صلاح الدين قائلا « اذا ركبت يزول عنى ألمها ! » .

كذلك روى ابن شداد أن صلاح الدين كان له ابن اسمه اسماعيل ، فجاءه خبر وفاة ذلك الابن ، وعندئذ عرف صلاح الدين الخبر ولكنه لم يعرف أحدا ، ولم يظهر عليه شىء من الألم سوى دمعة فرت من عينه « فانظر الى هذا الصبر والاحتساب ، والى أى غاية بلغ هذا الرجل ، اللهم انك ألهمته

الصبر والاحتســاب ؛ ووفقته له ، فلا تحرمه ثوابه يا أرحم الراحمين !! » [1] .

* * *

كرمه وحلمه وعفوه :

شهد المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين بالكرم الواسع ، وأنه كان يعطى فى وقت الضيق مثلما يعطى فى وقت السعة ، وهو دائما يعطى أكثر مما يؤمل الطالب . وقد عرف الناس فيه ذلك فكانوا يستزيدونه فى كل وقت حتى يخجل المحيطون به من كثرة ما يطلبه الناس ، وهو مع ذلك لا يمتنع ولا يمن على من يعطيه . وربما أدى اسراف صلاح الدين فى العطاء والاحسان الى نقص الأموال فى خزائنه ، مما جعل نواب خزائنه يخفون عنه شــيئا من المال حذرا أن يفاجئهم أمر فلا يجدون المال اللازم ، ولعلمهم أن سيدهم صلاح الدين متى علم بأمر مال فى خزائنه أمر باخراجه وتوزيعه . ويروى ابن شداد أنه رأى صلاح الدين وقد اجتمع لديه فى بيت المقــدس جمع من الوفود . ولم يكن فى خــزانة صلاح الدين عندئذ من المال ما يكفى لتوزيعه على تلك الوفود فباع أشياء من بيت المال وفرق ثمنها جميعا عليهم بحيث لم يبق منه درهم واحد !!

وقد اتضح كرم أخلاق صلاح الدين أتم ما يكون فى حلمه وعفوه ؛ فكثيرا ما كان يتقبل الاساءة فى صبر وحلم ويعفو عن

---

(۱) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٥٠

المسىء دون أن يسىء الظن به . من ذلك ما يرويه ابن شداد من أن الناس كانوا يتزاحمون على صلاح الدين لعرض شكاويهم ، وربما داسوا أطراف ثيابه والمرتبة التى يجلس عليها بأقدامهم ، وهــو لا يتأثر لذلك ، وينظر فى شكاويهم ويمضى فى قضـــاء حاجاتهم فى أناة وحلم . وكان يحدث أحيانا أن بعض المستغيثين والمتظلمين يغلظون له القول ، فيتقبل قولهم « بالبشر والقبول ! » . وفى ذات يوم مر عليه القاضى ابن شداد وهو ممتطى بغلته ، وكان اليوم مطيرا كثير الوحل ، فنضحت البغلة عليه من الطين حتى أتلفت جميع ما كان يرتديه صلاح الدين من ملابس ، ومع ذلك فقد رفض أن يسمح لابن شداد بالانزواء خجلا ، وابتسم وقربه منه حتى يزيل ما فى نفسه من خجل وألم .

وثمة قصة يرويها ابن شداد — وهو شاهد عيان فيها — ليستشهد بها على حلم صلاح الدين وعفوه ، فيذكر أنه حدث أثناء الصراع بين صلاح الدين وريتشارد حول يافا فى أواخـــر سنة ١١٩١ ، أن عصى بعد عساكر صلاح الدين تنفيذ الأوامر الصادرة منه اليهم ، وأجابوه « بكلام فيه خشونة » ؛ فتركهم صلاح الدين وانصرف « كالمغضب » ، حتى خيل لمن رآه أنه ربما قتل جماعة من العساكر فى ذلك اليوم لما أتوه من أعمـــال وأقوال . ولم يزل صلاح الدين سائرا حتى وصل الى يازور وحوله الأمراء يرعدون خيفة وكل منهم يعتقد أنه مســخوط عليه . حتى ابن شداد نفسه — مع عظم مكانته عند صلاح الدين

يقول « لم تحدثني نفسي بالدخول عليه خيفة مني حتى استدعاني » . فلما دخل ابن شداد على صلاح الدين طلب منه أن يجمع الأمراء ليشاركوه في أكل كمية من الفاكهة كانت قد وصلته من دمشق ، فحضر الأمراء « وهم خائفون ، فوجدوا من بشره وانبساطه ما أحدث لهم الطمأنينة والأمن والسرور ، وانصرفوا على عزم الرحيل (للقتال) كأن لم يجر شيء أصلا » .

* * *

عدله ورحمته :

وصف القاضي ابن شداد صلاح الدين بأنه كان « عادلا رءوفا رحيما ، ناصرا للضعيف على القوى » . ذلك أن صلاح الدين كان ينظر في شكاوى رعيته بنفسه ، وخصص لذلك يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع ، سواء كان مقيما أو مسافرا ، فيجلس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاء والعلماء ويسمح لجميع المتحاكمين بالدخول عليه « من كبير وصغير وعجوز هرمه وشيخ كبير » . وبالاضافة الى ذلك فقد كان صلاح الدين مستعدا في كل آن لسماع الشكاوى من رعيته « فما استغاث به أحد الا وقف وسمع قضيته وكشف ظلامته واعتنى بقصته » .

وقد حدث أن ادعى تاجر يدعى عمر الخلاطي على صلاح الدين بأنه أخذ منه أحد مماليكه ويدعى سنقر ، وبناء على ذلك استولى السلطان على ما كان لهذا المملوك من ثروة

طائلة بدون وجه حق . وعندما تقدم التاجر المدعى بظلامته الى القاضى ابن شداد ، أظهر صلاح الدين حلما كبيرا ورضى أن يقف موقف الخصم من صاحب الدعوى ، وأحضر كل من الطرفين من لديه من شهود وما لديه من أدلة يثبت بها رأيه ، حتى اتضح فى النهاية كذب الرجل وادعائه بالباطل على صلاح الدين ، وعندئذ رفض صلاح الدين أن يترك المدعى يخرج من عنده خائبا فأمر له بخلعة ومبلغ كبير من المال !! ..

أما عن مروءة صلاح الدين ، فقد أجمع عليها المعاصرون . ولم تعم هذه المروءه العلماء والضعفاء والأصدقاء فحسب ، بل عمت أيضا أعداء صلاح الدين من الصليبيين ، فكان « يكرم الوافد عليه وان كان كافرا » . وقد رأينا فى صفحات هذا الكتاب كيف أن صلاح الدين تسامح مع الصليبيين تسامحا عرضه لنقد بعض المؤرخين المعاصرين الذين رأوا فى تسامحه نوعا من التفريط وعدم الحزم . ويروى القاضى ابن شداد أنه كان راكبا ذات يوم صحبة صلاح الدين على مقربة من خطوط الصليبيين فاذا بأحد الجنود المسلمين يحضر أمرأة صليبية تبكى فى حرقة وتدق على صدرها دقا متواصلا . فلما سأل صلاح الدين عن قصتها عرف أن ابنتها الصغيرة فقدت منها ، وعندئذ « رق لها ودمعت عينه ، وحركته المروءة ، وأمر من ذهب الى سوق العسكر يسأل عن الصغيرة من اشتراها ويدفع له ثمنها ويحضرها » . وهكذا لم تكد تمضي ساعة حتى أحضروا الطفلة الصغيرة ، فجرت الأم

نحو طفلتها لرؤيتها وأخذت « تعفر وجهها فى التراب ، والناس يبكون على ما نالها ، وهى ترفع طرفها الى السماء ولا تعلم ما تقول ، فسلمت ابنتها اليها وحملت حتى أعيدت الى معسكرهم » .

* * *

حبه للشعر والأدب :

واذا كانت المراجع قد أفاضت فى الكلام عن شجاعة صلاح وصبره على الجهاد وأخلاقه الكريمة ، فليس معنى ذلك أن نتصوره فى صورة المحارب الذى لم يعرف بديلا عن الحرب والجهاد أو ، صورة الزاهد الذى عاش فى جو بعيد عن الدنيا ، وانما يبدو من الاشارات القليلة فى المراجع أن صلاح الدين كان رجلا متكامل الشخصية وأنه لم ينس نصيبه من الدنيا بالقدر الضئيل الذى سمحت له به ظروف الجهاد . من ذلك ما يذكره ابن شداد عن صلاح الدين أنه كان « حسن العشرة ، لطيف الأخلاق ، طيب الفكاهة ، حافظا لأنساب العرب ووقائعهم ، عارفا بسيرهم وأحوالهم ، حافظا لأنساب خيلهم عالما بعجائب الدنيا ونوادرها ، بحيث كان يستفيد محاضرة منه ما لا يسمع من غيره » .

أما ابن خلكان ، فقد ذكر عن صلاح الدين أنه كان يستحسن الأشعار الجيدة ويرددها فى مجالسه ، وأنه كثيرا ما كان يردد قول الشاعر : —

وزارنى طيف من أهوى على حـذر

من الوشاة وداعى الصبح قد هتفا

فكدت أوقظ من حـولى به فرحا

وكاد يهتك ستر الحب بى شـغفا

ثم انتبهت وآمـالى تخيـل لى

نيل المنى فاستحالت غبطتى أسـفا

* * *

وبعد ، فان الكلام عن صلاح الدين يوسف يطول ويطول ، فهو فى البطولة بطل شجاع ، وفى الخلق شهم فاضل ؛ وهـذا أسـمى ما كان يمكن أن يتحلى به فارس مثالى من فرسـان العصور الوسطى . لذلك لا عجب اذا احتل صلاح الدين تلك المكانة الضخمة فى تاريخ الشرق والغـرب ؛ وسـيظل اسـم صلاح الدين حيا ماثلا فى القلوب والأذهان طالما رددت معانى البطولة والفداء من ناحية وطهارة الخلق ونقاوة النفس من ناحية أخـرى .

ومرة أخرى نردد مع صديقه وجليسه ابن شداد دعاءه عندما يقول عن صلاح الدين « اللهم انك تعلم أنه بذل جهده فى نصرة دينك ، وجاهد رجاء رحمتك ، فارحمه .. » .